محمد دالاتي

سِفْرُ الخُروج

(رواية)

» اسم الكتاب: **سِفْر الخُروج.**
» اسم المؤلف: **محمد دالاتي.**
» الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-567-48-4
» الناشر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.
» سنة الطباعة: 2020.

جميع الحقوق محفوظة لدار عقل

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة
سوريا - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا
هاتف: 00963115618956
00963115637060
aklpublishing@gmail.com

وإذ خرجتَ مع جموع المهاجرين قاصداً أرضاً طيبة، بلا لون أو حمائم تودعكَ، وانتشرتَ في بقاع العالم تستجدي رحمة من الغرباء، كنتَ مرغماً على النسيان وابتلاع ماء البحر والرمال في الأرضين.

وإذ باغتكَ الليلُ ليضعك في إطار من الحزن ويرش عليك توابل الضياع، وغطى وجهكَ السماوات في بلاد أخرى، ورفت سواعدك مع شعبكَ تنشد تراتيل العودة، قبل أن تصل إلى هناك، وصليتَ كي يحفظ الله أرضك ولا ينساكَ.

في عرض البحر وعلى سطوح البر المتعرجة تلوت صلاة الغائبين على من ماتوا وسيموتون بعد رحيلكَ، كما قدّرتَ، واستجمعت قواك حين وصلت تحضيراً للعودة التي بقيت بلا مواعيد.

وحين انتشرتم في أركان لبشر آخرين، ألقيتَ عليهم موعظة كي تبقى نار الحنين متوهجة فيهم، وطلبت منهم البقاء طاهرين أنقياء كي تسهل عليهم رحلة العودة ببركة من الرب العظيم.

وإذ فُتحتْ لكم جهات الأرض كي تبتغوا فيها رزقاً، رعيتَ أغنامك ورددت الإساءات بصمت وديع مذبوح، ومن هناك، انتصب أمامكم جبل شاهق، فصعدت بهم وتلوت عليهم نشيد الهجرة، ثم شربوا من يدك واحداً واحداً ماء مقدساً بدعوات الأمهات، وبكاء الحبيبات اللواتي استودعتموهن قلوباً تشف عن الألم.

هناك حفرتم حفرة عميقة وقلتم: يا أيتها الأرض الغريبة غيضي، فغاضت، وتوجه شعبكَ إلى البحر كي يتوسل الموج أن يفيض بمد العودة، وأن يتناسل أقماراً براقة تكافح القمة إلى أن يحين، بمعجزة موعدكم المبارك مع البلاد، حاملين سلالاً من أوراق حفظتم فيها العناوين قبل أن تمحي وتمضي إلى مصبات الأنهار السريعة.

هناك، غلبكَ الحنين فجأة.

فجلست على حافة النهر وبكيت.

تذكر قرية، منذ زمن مضى، جرحها الترابي ورقصاتها المنسوجة من غبار، أيام كانت في مكان قصي تملؤها الوحدة، ممزوجة بمادة الليل وأهازيج الغربة والفرح المكتوم، كيف كانت، رغم صغرها، محطة لجميع المسافرين، قبل أن يتوزعوا في كل الجهات، وكيف كانوا يختارونها مكاناً لصب غراباتهم فيها وأغانيهم وزيجاتهم العابرة بجميلاتها المخبآت في أمكنة مجهولة قرب الجداول.

تذكر كيف مر بها قساوسة ورجال متصوفون، رموا أحمالهم من ملائكة خفيفة وتراتيل من وله ومضوا مع غيوم الحافلات

البدائية، تعرف طقوس الحب وأعماق الكراهية التي لم تستطع أن تصنع لها مكاناً فيها، بوجود الصلوات الدائمة ودعاءات الأمهات. تعود بأيامها إلى ذكرى أطفال يلعبون، أيتام لكنهم يلعبون، ويقسمون على جعل أرضها أكثر قدسية من أماكن عبادة وثنية، وعلى إطلاق طيورهم في السماء لتجلب لهم من عتبات البركة حظاً سعيداً، أقسموا في دوائر لعبهم أن يرسموا أرضاً جديدة، يتجول فيها الدراويش والأمهات وصاحبات الفتنة والإغواء. وأن تكون دائرة مغلقة على الظلال الغامضة المحبة لكل ما هو أليف وبسيط في الدنيا.

وأقسمت النساء أن يرمين على أسطحتها كل أنواع المؤونة الصيفية، وأن يملأن البيوت بالزبيب والتين والعسل وتعاويذ السحر الأبيض لدرء الأذى عن الرجال وتسهيل زواج الفتيات الحائرات، ورد الغائبين وشفاء المرضى المدنفين.

بسطت يدها للغرباء عبر الزمن، فمروا بها ولم يعودوا إلى أماكنهم القديمة، ضربوا جذورهم فيها ونذروا لها أعمارهم الممزوجة بالخضرة والماء والتراب والحب، وقفوا يصلون لها ولم تتوقف صلواتهم حتى اللحظة، تراتيلهم وأدعيتهم المتوسلة، زرعوا وأكلوا، وتزوجوا بلا موعد مقدمين لها أولادهم إشارة محبة ووله. تعود البلدة الصغيرة لتفاصيل أيامها في الشتاء الذي تسكنه نيران المدافئ، وتتبسط فيها جداول الماء العذب في حر الصيف، فتضحك وتبكي مع الفرح والحزن وتجدد صباحاتها كدورة الشمس التي لا تنتهي ودورة القمر الذي يوزع فضته بسخاء.

كانت «أم الطين» قرية بين القرى العديدة المتناثرة، لكنها تحولت يوماً بعد يوم إلى تاج مرصّع بالغرابات والمفاتن والضلالات والرتابة القاتلة، مثيرة ومربكة حيناً، وقاتلة بمللها وضجرها في أحيان أخرى. ينجذب أهلها لتراب الأرض الأحمر، فيزرعون في بطونها البذار المختلفة وينتظرون موسماً غالباً ما يأتي بالمفاجآت، لهذا اختار البعض الآخر العمل في الوظائف الحكومية لأن رواتبها ثابتة وتؤمن لهم ضمانات حتى آخر العمر. لكنها بقيت بالنسبة لأهاليها الأرض الأثيرة التي يتعلقون بها بسحر لا يقاوم، يجذبهم ترابها وحقولها ومياهها الشحيحة إلا من بعض الجداول الصغيرة هنا وهناك.

وبسحرها الجاف ربطت سكانها بجذور لا يمكن اجتثاثها من أرواحهم المتشبثة بالتعاويذ والغرابات معتادين على ألفة السكون الممل فيها عدا بعض من أدركه الضجر من أهاليها فرحل إلى مدينة حلب.

وكان لنسائها اللواتي يعشن في وسط الجفاف وواحات الخضرة القليلة سحرهن الخاص لرجالهن الذين لا يلبثون أن تكبلهم مكائد جاذبيتهن الغامضة التي على رأسها تتربع فتنة الأطعمة الفريدة مع توابل التأوهات الصاعدة بخفر وسط الليالي.

لهذا كانت أم الطين تمارس دلالها بين أهاليها كراقصة جميلة ذات فتنة نادرة، فيصدح صوتها الرصين بأناشيد الحجر والتراب ومساكب الخضرة المتناثرة في أراضيها، تستقبل الداخل والخارج واثقة من سحرها الذي لا يقاوم رغم الجفاف الذي منه استمدت

جاذبيتها الخاصة المعجونة بحبات من أنين غامض ممزوج بفرح بلون المطر، خلطة من ضباب وشمس وعواصف رملية وأشجار تتمايل بدلع جاذب بحمى ما تثيره الراقصات الغجريات وسط رجال ملأ الفراغ أرواحهم وعلا جباههم العطش لفرح متهتك.

أم الطين الفتاة المدللة التي بكت ثم غنت في يومها التالي ناسية أحزانها، تعيش سنة من الأسى ولا تنسى أن تعيد الفرح بكؤوس تملؤها سحب السماء المفتوحة على رحمة لا تنتهي، في سنتها التالية، يزورها الموت ويمضي وتزورها الأعراس وتمضي، وتبقى هي المكان الأثير الذي يحضن أهله بقلب واسع دافئ لا يتخلى، يزرع بذوره كي يكبر فيها شبانها الصغار وفتياتها ولا يغادروها إلا لسريرهم الأخير داخل الأرض.

أهداها الأمير العابر يوماً ياقوتة وضعتها في الحقول وأخرى وضعتها في ساحات التراب، ووضعت الأخيرة في قلب مكان مخبوء ظل مصدر جاذبيتها الرحيمة وشفاء للحزن وخلقاً مستمراً لأفراح تولد من المجهول، ثم غادرها باكياً.

منها يخرج الأبناء وإليها يعودون يجذبهم الحنين الغامر، لا يبادلونها بجنات الأرض، يرجعون إليها بعد غياب ليقدموا لها الاعتذارات والقرابين.

لم يدخلها قرصان إلا وأردته قتيلاً بالحمى الصفراء أو الكوليرا أو تعاويذ سحرتها العاشقين، ولم ترسُ على مسافة بعيدة منها سفينة في سواحل الشمال، إلا وأرسلت لها الهدايا وكنوز البحار الثمينة، عربون رسوها الآمن ببركتها.

كانت واثقة أنها تلد الكثيرين ووحدها كانت تعرف من تعاقب عليها في الزمن: «فرحة» التي ولدت أكثر من مرة بحبها وصلاتها ونقائها والدراويش الأتقياء أصحاب الأسرار الدفينة، ومنها ولد كثيرون توالوا في أيامها ولم تشأ أن تنشر خفايا وجودهم الغامض النادر. خبأتهم ككنز في محفوظات ذاكرتها كي تفسح مجالاً لمخلوقات جديدة لها ما يخصها من طبائع وميول متنوعة آسرة لا يصادفها العابرون في الأرض إلا في أوقات نادرة وأمكنة قصية لم يرها إلا المغامرون، كأنها وحدها كانت تختص بالغيب، وتوقد الشموع لمجيئه.

* * *

من الفجوة الضيقة خرج وإليها سيعود، أبواب واسعة مشرعة على الهواء والرطوبة لم يمر بها، وعرف أن الطريق إليها سيبقى أمراً بعيد المنال، لا يخصه وإنما هو حلم يحلم به كلما أخذته غفوة قصيرة وسحبته إلى مداها الواسع المليء بروائح البراري، ثم أخرجته فجأة ورمته إلى صحوة مغلقة بلا أبواب، وسيبقى اسمه دائماً ناصر الحالم. المقيد إلى الغفوات والرغبة في الخروج من أبواب واسعة إلى عالم الأحياء الذين أطلقوا عليه أسماء كثيرة منها الوحيد، والغائب والحزين والصامت.

حين ولد، اشترت له أمه إسوارة زرقاء فيروزية كي تمنع عنه عيون الحسّاد، وبعد أن أصبح في سنته الخامسة خرج إلى الحارة الصغيرة مع الأولاد وعاد دونها، في الليلة ذاتها مرض أبوه ورمته الحمى في السرير وطال المرض كما يطول ليل الأرق، وحين

تسأله أمه «فرحة» أين الإسوارة؟ يشير بإصبعه الصغير إلى باب الدار ويتلعثم بكلمة «بئر». فينتابها الخوف والرهبة أكثر، وتقطب حاجبيها كأنها مسكونة بالسواد والتشاؤم، لكنه يركض إلى باحة الدار ويخاطب ابنة الجيران اليافعة «منى» الأقرب إلى قلبه كي تعطيه ماء ليشرب، ويقترب منها ليشم بخبث رائحتها الأنثوية التي تثيره رغم صغر سنه، ويدنو من شعرها متظاهراً بوشوشتها، فيغمر وجهه برائحته وانسيابه الناعم.

فسرت أمه «فرحة» ضياع إسوارته بعمل متعمد قامت به جارتها أم نزيه لأنها امتلأت غيرة حين أتاها مولود ذكر جميل، بينما اصطفت أمامها خمس بنات أثرن إحباطها، كررت الفكرة أمام أبي ناصر زوجها الذي استفزته طريقة تفكيرها فأكد لها بعصبية أنه عاصر رؤساء وملوكاً تبوؤوا سدة الحكم، ولم يكن في معاصمهم أساور زرقاء، لكنها كانت تسمع الكلام وتشيح بوجهها عنه كمن لا يريد أن يتخلى عن قناعة راسخة.

واستمرت على هذا النحو قصة الإسوارة، لغزاً مستغلقاً لم تترك خلاله أم ناصر أحداً لم تفكر باتهامه بسرقتها لإيذاء صغيرها. حتى أكدت ابنة الجارة منى أنها شاهدته قريباً من البئر يعبث بساعديه لفترة غير قصيرة وأنها على الأغلب ضايقته بوجودها في معصمه، فخلعها بصعوبة ورماها في البئر، إلا أنها حين سمعت الخبر من منى اليافعة لم تصدق كلامها، وظلت تبحث في ذهنها بين الجارات عن واحدة هي المرشحة الأقوى لتكون قد سرقتها منه بخبث ونية سيئة.

وحين دخل ناصر ابنها المدرسة، بقيت تعزو إصاباته بجروح في يديه ووجهه ودرجات امتحاناته الرديئة بفقدانه للإسوارة الزرقاء. ولم يخطر في بالها لمرة واحدة، أن ابنها ناصر كان يجمع في شخصه، طيش جميع الأولاد في سنه وتهورهم، كذلك فاتها في لحظات حنقها أن تصنع له إسوارة أخرى أو تشتريها ببساطة من السوق، ربما لأنها كانت في نظرها النذر الأول الذي قررت في سرها أن يكون الحامي الوحيد لابنها من نوائب الزمن وغدره.

استمر قلقها على هذا النحو إلى أن زارهم شيخ البلدة، الحكيم المسن، المؤمن المتصوف والزاهد، الذي لم يتزوج حتى اللحظة، والذي أمضى عمره متنقلاً يستضيفه الناس باحترام ويطعمونه ثم يجلسون وهم يستمعون إلى أحاديثه المسائية التي تجعل هالة الخشية والوقار تضيف وزناً ممزوجاً بالاحترام والقداسة إلى قلوبهم، الشيخ الدرويش أحمد السارح متخففاً من ملذات الدنيا وأطماعها، الزاهد في كل ما يحلم به الآخرون، إذ أكد لها بهدوء وحكمة أن الله هو الحامي القادر على درء الشرور وليست «الخرزة الزرقاء» البلاستيكية التي «لا تقدم ولا تؤخر» وأضاف بلهجة معاتبة أن ذلك نوع من الشرك بالله، لهذا عليها أن تطرد الفكرة عن ذهنها وتؤمن بأن الله هو الحامي الوحيد.

أدخل كلام الدرويش أحمد طمأنينة وهدوءاً إلى نفس أم ناصر القلقة، حتى اليوم الذي صحت فيه بعيد منتصف الليل ووجدت زوجها عبد المعين (أبو ناصر) مسجى في الفراش بلا حراك، شمعي الوجه كتمثال وقد أسلم روحه بسلام المؤمن الذي سلم عمره وتعبه

وأحلامه لما تخبئه الأيام من إملاءات القضاء والقدر، غاب بصمت مبتسماً نصف ابتسامة كمن غادر الدنيا سعيداً لأنه نجا من الارتطام المتكرر بجدار الخيارات الصعبة، مدركاً عقم المحاولات، موقناً بوصوله بعد كل تلك السنين، إلى سقف الدنيا واحتمالاتها.

لحظتها، وبعد صدمتها والدمار الذي خلفته وفاته في روحها، وانتهاء إجراءات الدفن والعزاء الذي تلا فيه الشيخ أحمد سوراً من القرآن الكريم، حاولت إيضاح ما جرى لناصر وتبسيط معنى الموت له بطريقة تخفف من تأثير فقدانه لأبيه قدر الإمكان: «بابا ذهب إلى السماء، ذهب ليكون بجوار الله الرحيم الذي خلقنا جميعاً، ذهب إلى الجنة».

حينها تجمعت كل من أختها نجوى وابن حميها الوحيد العم فؤاد ليخففوا من انفجار الصبي الصغير وحدة بكائه ويحاولوا أن يجدوا له تفسيراً مريحاً مرضياً لما حدث.

بعد ذلك، وهي في فترة الحداد، راودتها فكرة الإسوارة الزرقاء التي جلب لها اختفاؤها النحس والحظ المشؤوم، كما عادت إلى الاعتقاد الراسخ الذي تجاوزته بصعوبة، أن اختفاءها كان نذيراً سيئاً لها ولعائلتها، وشرعت تتابع ناصر في تحركاته كالمجنونة خوفاً عليه من الأذى، قطعت خلالها علاقتها بجيرانها وأصبحت شديدة الانطواء، تتلو الأدعية كي تحفظ لها ابنها من كل شر، رغم مساعي أختها وجيرانها والدرويش أحمد لإقناعها بأن «الإسوارة» ليس لها أي علاقة بما حصل، وأن الولد بخير ولن يحدث إلا ما كتبه الله عليه.

لم يستمع ناصر لأحد، وحدها منى التي تكبره بسبعة أعوام، استطاعت تهدئته وجعله يسكن ويدخل قلبه الرضا.

وحين دخل ناصر المدرسة، كانت منى الصبية اليافعة تلازمه بعد عودته من دوامه، تعلمه الكتابة والقراءة والعمليات الحسابية، الأمر الذي كان يطمئن أمه فرحة التي ظلت منى ذات حظوة خاصة لديها، أما أمها زينب، فقد بدت سعيدة بتعلق الطفل بابنتها تماماً كما كانت تحس بالرأفة والرضى لمساعدة ابنتها «لناصر اليتيم».

الأشجار، في تلك الأيام، والساقية الصغيرة، والركض في البساتين كانت الإطار المبهج الذي يؤطر صورتهما في عيون أميهما، ولم يشكل حينها فارق العمر بينهما أهمية لأنهما كانا كلاهما صغيرٌ في نظر أهله، رغم أن ناصر كان شقياً يحمل في داخله حساً مضمراً مبكراً خفياً من الإثارة التي بدأت تظهر على منى التي برز صدرها الناهض الفتي جذاباً، إذ كان يختلس النظر إلى فخذيها حين ينكشفان صدفة وإلى صدرها المترع بالإغواء، لم تدرك منى حقيقة قدرتها على إثارة ناصر الصغير إلا لحظة مد يده ولمس صدرها مداعباً، فدفعت يده عنها بسرعة ولم تلبث أن غفرت له تصرفه بعد دقائق معتبرة الأمر مجرد طيش ولعب على عكس أحلامه المباركة التي كانت ترافقه عنها أحياناً في صحوه ونومه، كانت أحلاماً محملة بشعور وله طفولي غامض وأحاسيس رغبة جنينية تثير فيه الرعشة والرغبة في الاستمرار بها دون توقف، لكنه دفن أسراره في نفسه، وظل يمارس طفولته أمام الجميع، منتظراً حلول المساء بعد ملامسات غير عفوية لمنى، كي يذهب

إلى الفراش ويفكر فيها متوقعاً حلماً يرفعه إلى سماء راعشة تعرف عليها حديثاً وأبهرته بسحرها.

عاشت أم ناصر وابنها الصغير على الراتب التقاعدي لزوجها المتوفى التقاعدي وأصبحت تحت رعاية ابن حميها فؤاد، وكرست وقتها لحياكة الكنزات الصوفية التي تطلبها منها جاراتها ومعارفها مقابل أجر صغير.

في ذلك العام، مر الشتاء قاسياً لكنه لم يستطع منع ناصر من الركض تحت الأمطار والثلوج في الجو القارس، ظل بجسده الصغير الرشيق قادراً على مقاومة البرد مع تحركه المستمر الذي لا يهدأ وكأنه مهجوس بالبحث عن شيء مفقود.

كان يدخل البيت لدقائق يتناول خلالها بعض الطعام ثم يخرج ليلعب في ساحة البيت دون توقف، الأمر الذي أثار قلق أمه ولفت أنظار الجيران أنه لعب غير طبيعي يوحي بتمرد أو رد على حادث لم يرضه أو تعبير عن احتجاج.

في غمرة اللعب وسط جو شديد البياض، بضبابه وغيومه وأثيره الذي يشف كندف القطن الأبيض، كان ناصر يتوجه بعد لحظات إلى بيت منى يطرق الباب بيديه الصغيرتين ويعانقها إذا فتحت هي الباب. انفتحت أبواب الحب الصغيرة وأغلقت أبواب أخرى في وجه المتمرد الصغير، وطاف كالمجنون باكياً حيناً وضاحكاً في حين آخر، وكأنه أضاع شيئاً ثميناً يخصه، ولما أدركه التعب من الركض في البراري الواسعة، كان يذهب ليرمي نفسه في أحضان منى التي تهدئه وتمنحه طمأنينة خفية.

كان سلوكه قد أثار القلق في أمه، واحتارت وهي تبحث عما يجعله في هذه الحالة من عدم الثبات والحركة المفرطة والطيران في كل الجهات، إلا أنها ازدادت تعلقاً بمنى حين أدركت أنها الطرف الوحيد الذي يستطيع السيطرة على شيطانه الكبير.

* * *

خفف وطأة التعلق الذي كان يجثو على كاهل أم ناصر كالغول، تفوقه في المدرسة ونجاحه إلى الصف الثاني، ما زاد من حبها وامتنانها من ابنة الجيران منى التي «لولاها لما تفوق ونجح ابنها المجنون الطائش ناصر» كما عبرت أمام عمه وخالته وصديقاتها.

صار لأهل منى، أمها وأخيها وأختها نصيب من كل ما تطبخه من طعام أو حلويات تخبزها مضيفة إليها النكهات والفاكهة المختلفة محاولة قدر ما تستطيع أن تعبر بذلك عن امتنانها وحبها لابنتهم منى على طريقتها.

وكان ناصر يدخل البيت ويخرج بعد أن يراهم في ضيافة أمه، وهو سعيد بتقربها من جيرانها ويبتسم سعيداً في سره، يغمز منى ويخرج، وتبتسم هي الأخرى كأنهما متآمران على سر بينهما لا يبوحان به لأحد، كانوا يضحكون في الغرفة الكبيرة ويتبادلون الأحاديث، بينما كان ناصر يرسم ألاعيبه وخططه الخاصة مثل التفكير في طريقة يمسك بها القطة الشقراء المشاكسة التي تفلت منه كل مرة يحاول فيها إمساكها، أو الاجتماع مع أبناء الحارة لتدبير مؤامرة تكسر شوكة «عامر» الأقوى والشرير الذي تطاول على كل واحد فيهم ولم يستطيعوا الرد عليه.

وفي المساء كان يعود إلى البيت مرهقاً لكنه متلهف لإنهاء كل شيء والذهاب إلى سريره سريعاً كي يبدأ رحلة طيرانه في أحلام ملونة مع منى التي تبدأ لحظتها في إغوائه وبث الرعشة في جسده وهو يزداد متعة وسعادة.

في تلك اللحظات يبدو وجهه غريب التعابير، فرحاً، مبتسماً جامداً، مرتجفاً برعشات طفولية وغائباً عن الدنيا، ثم يصحو صباحاً وقد بلل نفسه أثناء نومه العميق الذي يعقب نشاطه المفرط خلال النهار.

لم تكن منى التي دخلت نضجها الأنثوي حديثاً تهتم للتلميحات المراهقة لابن خالها المعجب أو أي شاب يافع في الجوار، لا يثير اهتمامها أحد، وتبقى ضمن علاقات الصداقة التي تربطها بزميلاتها وقريباتها، بدت روحها وكأنها تزداد يوماً بعد يوم اقتراباً حميمياً مما هو طفولي دافئ، صارت حبيسة عالم ناصر الماجن والمتمرد الممزوج بالذكاء واللمحات العميقة المثيرة للدهشة، في طبيعته وحديثه وتعبيره الخجول المتردد عن حبه المختلط بما يشبه ضباب الأحلام، لكنه يبقى مثيراً يشد الروح إليه بقوة خفية.

وكذلك كان عالم ناصر، رغم صداقاته وحب الأقرباء له، محصوراً في اثنتين، الأولى أمه والثانية الفتاة اليافعة منى، إذ كانت مشاعره لا تغادر دائرتيهما مهما انغمس في علاقاته واهتماماته، لم يكن يستطيع التخلي عن حضن أمه التي يحرقها قلق الحرص عليه والتعلق به، وصدر منى التي تبث فيه، دون أن تدري، طاقة غامضة من الاندفاع والفرح ودائرة الأحلام الليلية الأثيرة، خطر

في باله مرة أن يحدثها عما يحدث له بطفولية فأسر لها: «أنا أحبك، وأنت ترافقينني في المساء وخلال نومي»، فهمت منى معنى عباراته، شعرت بالخجل والدهشة، ثم انتقلت إلى نشاط آخر غير مصدقة أنه يتكلم عن حقيقة ما يشعر به تجاهها، لكن كلامه أثر فيها، وبدأت من حين لآخر، تسرح وتفكر فيه، رغم يقينها أنها تتعامل مع طفل، إلا أنها كانت تدرك حقيقة واحدة وهي أنه طفل غريب ولديه مشاعر تفوق عمره بكثير وحركات لا تصدق من صغير في الثامنة من عمره، فازداد تعلقها به وشعورها الداخلي بأنه ولد عجيب ومحبوب إلى درجة لا تقاوم، ساحر دون قصد مسبق، يصنع كلماته وحركاته بوحي من شخص آخر وشيء آخر يلازمه، هو القرين الخفي له الذي لا يشاهده الآخرون لكنها أحسته وأدركت حقيقته وحدها، دبت الرعشة الغريبة في كامل جسمها حين أمسك يدها وطلب منها أن ينظر في كفها وينجم لها، كما تفعل صديقات أمه، وأشار بإصبعه الصغير على خطوط كفها بنعومة، ناقلاً إياه من خط لآخر، لحظتها أحست بتيار كهربائي يعبر جسدها وفكرت أن تسحب يدها لكنها ترددت وبقيت تسرح في متعة تنجيمه التي أشعرتها بأنوثتها وبوجود إحساس جميل مختلف مع طرف آخر، لأول مرة، وصارت تدعوه في أعماقها «بالشيطان الصغير»، ومنذ ذلك الحين، بدأت تداعب نفسها في المناطق الحساسة من جسمها مجربة ذلك الإحساس الجميل والرعشات المدمرة.

في أمسيات الصيف الذي سبق بدء عامه الدراسي الثالث، قررت أمه بدعوة من أختها نجوى التي تزوجت في حلب، بعيداً عن

بلدتها الصغيرة «أم الطين»، أن تذهب مع ناصر لقضاء أسبوع في ضيافة أختها، لكنها اضطرت أن تقطع زيارتها في منتصفها، حين أدركت أن ابنها الصغير أصبح مضطرباً وعصبياً لا ينام، متململاً معظم الوقت، لا يشارك ولديّ أختها في لعبهم ويبقى أسفل العمارة يروح ويجيء وحيداً في الشارع، رغم اهتمام خالته وابنها وبنتها به ومحاولات التقرب منه، عرفت ذلك الحين ما يؤرق ابنها ناصر حتى الجنون، إنه بعده عن منى، ذلك الذي بدل سلوكه المحبب ونشاطه الكبير وحوله إلى طفل صامت شارد كالمجنون، عندها قررت أمه فرحة العودة إلى البلدة على الفور خوفاً عليه متذرعة بحجج واهية كي تقنع أختها نجوى التي استغربت تصرفها ولم تجد تبريراً كافياً لمغادرتها، إلا أنها رضخت أخيراً لإلحاح أختها طالبة منها أن تزورها دون التزامات ومشاغل، رغم عدم قناعتها وحيرتها بقرارها المفاجئ بالعودة إلى «أم الطين» فجأة ودون سبب مقنع كما أحست.

وازدادت قناعتها بتعلق ابنها ناصر المميت بمنى حين رأته يعود لشيطنته ونشاطه الفرح وتحسن شهيته على الطعام بعد أن التقى بالأخيرة ثانية، لكنها عزت ذلك لتغير المكان عليه وفقدانه لأصدقائه وجوه الذي عاش فيه أول مرة، وقناعتها العادية أنه متعلق بالجارة منى بشدة حتى إنه لم يعد قادراً على العيش بعيداً عنها، لأنه ولد وبدأ يكبر وهو يرافقها بعد وفاة أبيه، بشكل متواصل معظم أوقات النهار.

تذكرت فرحة أن ناصر كاد يبكي وهو يرجوها العودة، دون سبب سوى اشتياقه للبلدة والبيت وسريره الذي اعتاد النوم عليه ولم

يجد حرجاً أن يضيف: «اشتقت لمنى، أريد أن أراها وألعب معها»، عندها قررت الأم العودة نزولاً عند رغبة مدللها.

كانت فرحة تحلم أن يصبح ابنها ناصر ضابطاً في الشرطة، رغم كونه وحيداً، لأنها لطالما افتقدت السند والمجد، وكثيراً ما افتقدت من يساندها في ظروفها الصعبة حين كان زوجها عبد المعين موظفاً صغيراً في مؤسسة النقل الحكومية واحتاجا في تسيير أمورهما إلى بعض التوصيات حتى لا يفصل زوجها عن العمل بسبب إصابته بمرض نفسي لم يقنع رؤساءه وطبيب المؤسسة كي يبرروا غيابه المتكرر عن العمل حين يشتد به ويزداد تأزمه فلا ينام الليل ويغفو طوال النهار بعد أن يأخذ أدويته النفسية عاجزاً عن الذهاب إلى عمله.

كان مصاباً «بالكآبة ثنائية القطب» وحينها لم يكن ثمة طبيب نفسي متمكن في أغلب المدن لمعالجته بشكل ناجح، في ذلك الوقت كانا على شفى الموت جوعاً لأنهما لا يملكان من يضغط ويوصي به كي يبرر مسؤولوه غيابه الصحي، لولا أن الطبيب قرر بوحي من الله أن يحيله إلى لجنة طبية وتقرر الأخيرة وضعه في عمل إداري بسيط وتبرير غياباته السابقة وغض النظر عن الأخرى اللاحقة إلى أن توفي قبل بلوغ سن التقاعد.

تمنت أن يتطوع ناصر في كلية الشرطة ويتخرج ضابطاً يكون عوناً لها على مرارة السنين ويعيش حياة لا يعكر صفوها شيء ويكون مهاباً ذا سلطة ونفوذ، لكنها غيرت رأيها تلك الليلة الصيفية حين صحت من نومها على حلم رأت فيه ولدها ناصر

الضابط الكبير وقد قتل على يد جماعة غامضة، صحت من نومها مذعورة وأسرعت بخوف إلى غرفة ابنها الذي رأته يغط في النوم سليماً دون أذى، ظل قلبها يخفق لاهثة ولم يهدأ روعها حتى الصباح.

في ظهر ذلك اليوم، ذهبت إلى بيت الدرويش أحمد وحكت له حلمها، ابتسم الشيخ ورد مطمئناً بهدوء: «لا تقلقي هذه مجرد رؤيا، فكري عكس ما رأيت، سيكون لناصر شأن كبير مستقبلاً إن شاء الله، دعي عنك الخوف، لن يحصل شيء سوى ما كتبه الله علينا». هدأت بعد سماعها كلماته، أعطته بعض المال الذي اعتاد أن يتلقاه من المحسنين وغادرت.

شرعت في البيت تصلي وتدعو الله أن يحفظ لها ابنها متأثرة بذلك الحلم الذي لم يختف أثره لأيام عديدة.

* * *

عصر ذلك اليوم من أيام الصيف الحارة، أصبح الناس في أم الطين والبلدات التي حولها يؤرخون فيه كل شيء حصل بعبارة «ما قبل الكوليرا، وما بعد الكوليرا»، وصل الجميع خبر أول إصابة في البلدة، لم يكترث معظم الناس للخبر، لكنْ حين انتشرت أخبار عددٍ من الوفيات في مشفى حلب الوطني مع إصابة آخرين يعالجون، بدأ الناس يتابعون أخبار المرض والإصابات بجدية أكبر، استنفرت أم ناصر حين سمعت بخبر الكوليرا، وزاد قلقها، لم تستطع إخفاء خوفها أمام جيرانها وبدت عيناها تدوران في أرجاء الغرفة وهي تبحث بذهنها عن مكان ابنها ناصر وما يفعله،

نهضت على الفور وودعت الحضور ثم غادرت إلى بيتها، وحين بحثت فيه عن ابنها ولم تجده، ذهبت إلى بيت أهل منى، بدت عليها الرهبة والتوتر حين سألت عنه وازدادت توتراً حين أخبروها أنه مر بهم ومضى، خرجت إلى شوارع البلدة الترابية تبحث عنه، ظلت تدور الطرقات بصحبة منى التي لحقتها فور خروجها المذعور من بيتهم، لساعتين إلى أن وجدتاه يلعب الكرة في ساحة مجاورة مع أبناء البلدة، هرعت أم ناصر وأمسكت بيده وساقته إلى البيت مسرعة، بدا عليها القلق والتوتر حين أكدت له بصوتٍ عالٍ أنه يجب أن يلزم البيت منذ تلك اللحظة، ثم أخذته إلى الحمام، جردته من ملابسه وحممته بالماء والصابون وكررت ذلك مرتين ثم أخرجته وبدأت تعطيه توجيهات النظافة وعدم احتكاكه بالفتيان في المنطقة، لاحظت منى التي جلست مدة ساعة حتى فرغت من حمامه، مبالغتها وخوفها الشديد، لكنها لم تستطع أن تطلب منها الهدوء أو الكف عن عصبيتها وخوفها، بحكم عمرها الصغير، وأدركت ذلك الحين، أنها تخاف على وحيدها الذي حملت به بعد خمسة عشر عاماً من زواجها كما أخبرتها في إحدى مسامرات المساء وهي تجلس مع أختها ليلى وأخيها ماهر، وأمها ذات الجسد النحيل زينب.

لم تكن زينب تعاني من الخوف الزائد نفسه الذي تعانيه فرحة حرصاً على ابنها، رغم كونها عصبية المزاج ولا تتوقف عن الصراخ في وجه ابنتيها منى وليلى أو ابنها ماهر، إذا كانت تريد من أحدهم شيئاً وتأخر في تنفيذه، إلا أنها كانت ذات قلب أبيض

يملؤها الحنان والكرم، بدأت زينب تتوخى الحذر وتتابع نظافة المأكولات والانتباه على نظافة أبنائها حين اجتاحت الكوليرا البلدة، لكن تدابيرها كانت هادئة ودون مبالغة على عكس مزاجها الناري.

الشبح الأصفر اجتاح أغلب القرى والبلدات، ثم مر بأم الطين ولم يغادرها، إذ كانت الجائحة قد أصابت ما يفوق الثلاثين شخصاً مات منهم خمسة فيها، أجبرت أم ناصر ولدها على المكوث في البيت ليوم واحد، لكنه في اليوم الثاني جن جنونه وبدأ يصرخ باكياً محتجاً يركل الأرض بقدميه، عندها سمحت له بالخروج والبقاء في المنطقة القريبة من البيت لكي يبقى تحت أنظارها وعادت فأوصته بالابتعاد عن الأولاد المتسخين أو الزعران.

في ذلك الوقت، ازدادت ملازمة ناصر لمنى وأهلها كي يزجي فراغ الصيف، حيث بدت البلدة فيه، بعد الكوليرا، مكاناً مهجوراً.

لم ير ناصر دموع منى وهي تفيض بحزن إلا عندما وصلهم خبر وفاة خالها مروان في المستشفى بعد إصابته بالعدوى وتأخرهم بنقله إلى حلب حتى وصل وقد فقد معظم سوائل جسمه، ولم تنجح الإجراءات الإسعافية في إنقاذه، بكت بمرارة في حين انهارت أمها وأجهشت بعويل مجروح حتى كاد يتوقف تنفسها، أحبت منى خالها الذي كان يزورهم يومياً ووعت على الدنيا وهو يحضر لها الألعاب والحلوى، سرح ناصر وهو يتأملها وأدرك كما أدركت هي حقيقة الموت المفجعة الصاعقة، وانخرط مثلها في البكاء وهو يحاول تهدئتها ومواساتها.

انتهى زمن الكوليرا وبدأ فصل الأمطار الخريفية التي ملأت

شوارع البلدة بالطين كاسمها الذي يحتمل أن يكون قد أطلق عليها للسبب ذاته.

ظلت أم منى «زينب» تتشح بالحزن على أخيها مروان لفترة طويلة، لم تتوقف عن البكاء من وقت لآخر خلال النهار حيث تنتابها موجة من الأسى والخسارة حين تتذكره، وزاد في حزنها زيارة أبيها، جد منى لها إذ رمت نفسها في أحضانه باكية ولفته كمن يشكو له ألمه، ما دفع أبا مروان إلى البكاء بدوره لأنه تلقى الخبر الصاعق وهو في حلب، حيث كان يعيش مع زوجته الثانية بعد وفاة زوجته الأولى أم مروان بنوبة قلبية، جدد بكاء زينب أحزان الجد الذي كان يكافح بجهد كي يخفيها عنها ويكتم انفعاله الذي تحول إلى جدار هش بمجرد رؤية ابنته تبكي وتشهق، وبعد أن تمالك نفسه، توقف عن البكاء وقال محاولاً التخفيف عنها وهو يمسد شعرها:

– طولي بالك قليلاً يا ابنتي، هادا قضاء الله، اسألي الله أن يرحمه وادعي أن يحفظ لك أولادك.

بدأ بكاؤها يهدأ بعض مضي لحظات، استأنست بأبيها محاولة استضافته والسيطرة على انفعالها بعد أن لاحظت تأثره الواضح بموت ابنه البكر.

حاول الجد بدوره أن يتناسى حزنه بمداعبة أحفاده، منى وليلى وماهر الذين التفوا حوله يسألونه عن حلب، المدينة الواسعة المليئة بالفرح، إذ كانوا يحبون زيارتها واللعب في مدينة ملاهيها والتجول في أسواقها وشراء ما يقدرون على شرائه حسب ردود فعل أمهم

تجاه ما يشتهونه، حيث كانوا يعرفون إمكانياتها المتواضعة على دفع ثمن ما سيشترون.

غاص الحزن عميقاً في روح الجد بعد وفاة ابنه مروان، وحفر في قلبه سواداً وألماً لا يمّحي، كان الحادث المؤلم الثاني الذي تلقاه كضربة كسرت ظهره، بعد وفاة زوجته أم مروان التي أخذت معها في رحيلها راحته وسعادته واستقراره، وأطفأ موتها فيه حب العالم وأطفأ ضوء حياته، بعد أن عاش معها خمسة وعشرين عاماً وأنجبا مولودين اثنين مروان وزينب، توقفت بعدها أم مروان عن الإنجاب لأسباب مجهولة.

في الصباح الباكر كان الجد أبو مروان يصعد ليستقل الحافلة التي ستأخذه إلى حلب، بعد أن ودع الجميع، لكن ناصر الذي كان يقف حزيناً ينظر إلى خطوات الجد وهو يمضي، بدأ بالبكاء ولم تستطع أمه التي كانت تقف بجانبه أن تمنعه عن ذلك، واشتد بكاؤه أكثر حين انطلقت الحافلة، بدأ يركض خلفها محاولاً اللحاق بها وهو ينشج كطفل أضاع أبويه، ركض أسرع وأسرع وهو يلوح بيديه عل الحافلة تقف له، إلا أنها غابت وسط غبار الأتربة والدخان، ولم يهدأ حتى رأى منى من بعيد تتجه نحوه، ركض إليها، لفها وانخرط بالعويل إلى أن هدأ بين يديها وهي تمسد شعره وتلاطفه، رمى رأسه على كتفها ثم صمت وهو يشهق بصوت خفيض. إذ خلال زيارة الجد تردد ناصر على بيت أهل منى وآنسه أن لديهم جداً مسناً يحكي الحكايات مساءً، في حين لم ير جديه لأبويه أو جدتيه.

ظلت منى صديقة ناصر الكبيرة وحبيبته السرية وأمه التي تقطن في الحديقة الخليفة لبيته حيث يعيش، أماً أخرى يمتزج فيها كل الأشخاص القريبين إلى قلبه، يتناثرون في دائرة تطفو، ثم يتكاثفون جميعاً متجهين إلى مركزها ليشكلوا فرداً واحداً هو منى، اختل استقراره حين فقد أباه وجاءت منى لتعيد توازنه وتعوض عنه، ثم في مرة أخرى أزاحت أنقاض روحه الصغيرة كي تملأ الفراغ الذي خلفه فقدان غامض لشيء في روحه، وفي دائرة أوسع، كانت الكائن الذي يحل كبديل عن فقدانه لأخ أو أخت يشاركانه حياته، الألم الدفين الذي يوجد دون مبررات، يعقد أمور الحياة بنظرات فيها ألف إحساس بالفقدان، ويخلق انطباعاً باليتم وهواجس الدنيا وآلامها دون أن يعيشها كلها، وصرخة الاحتجاج الدفينة في كل حركة يتحركها، احتجاج دون مبررات كافية، كانت تشكل صورة ناصر الصغير وتدعو لأسئلة لا جواب لها لدى الآخرين، ذلك المهجوس بأشياء لا يعرفها، ولا يتلمسها من يراه، لا وجود لها لكنها تحيا في كلماته وحركاته وضحكاته وبكائه واحتجاجه المعلق في الفضاء دون خيط بداية أو نهاية، كأنه يختزل صرخة الكائن بفرحة الحياة وارتجاجه الصاعق بقلق الوجود.

* * *

وصل ناصر إلى السنة الأولى من المرحلة الثانوية، ولم يشكل بلوغه ونضجه الجنسي فارقاً كبيراً له، سوى بالرعشة التي يصلها حين يحلم في الليل وخروج سائل أبيض يبلل سرواله الداخلي، لأن المسافة بين أحاسيسه المبكرة في سنواته الأولى وبداية فترة البلوغ

لم تكن كبيرة أو تشكل اختلافاً جوهرياً إلا في جوانبها المادية، ولم تؤثر كذلك بشكل كبير على مستوى هواجسه التي يفكر فيها في نفسه ولا يبوح بها لأحد، حتى منى، الأقرب إلى روحه، كانت تشعر بها وتفسرها خلال سلوكه، دون أن يبوح لها بشيء منها، أو يناقشها معها، بقي يخبئها في دائرة معزولة من روحه، تحفر عميقاً فيه وتتجذر ولا تتحرك حددوها عما وضعه لها كي تبقى هناك، في مكان غامض فيه، لا تخرج إلا في سلوكه الذي يحير ويحتمل ألف دلالة، رغم أنه غالباً ما يلفت نظر القريب منه دون تفسير واضح، إلا أن ما بدأ يضيق على روحه، هو أن زينب، أم منى، بدأت تقلق على ابنتها من علاقتها الحميمة معه، لأنه كبر وطالت قامته، وارتسم شارب خفيف أعلى شفته العليا وخشن صوته، لاحظ أثر تعاليم جارتهم زينب لابنتها في اضطراب وتحفظ منى في بعض المواقف التي كانت تبدو مكرهة عليها وغير مقتنعة، إلا أنها كانت تلتزم بها بحضور الناس، لكن روح منى التي كانت تشبه إلى حد كبير روحه، آثرت أن تعقد اتفاقاً سرياً معه، كي يبقيا ضمن حدودهما السابقة ويتصرفا كما اعتادا دون أن يبدلا شيئاً مما كانا يمارسانه من دفء وتلامس ولهفة وعناق، بلا مسافات فاصلة، أو تحفظ، لم تقدر روحاهما أن تتقيدا بجدران مغلقة مهما كان من يمليها، لكن ذلك بقي سرياً تحاشياً لإثارة المتاعب، إلا أن الشيء الحقيقي الذي اختلف بالنسبة إلى ناصر، هو الفارق بين أحاسيسه الروحية المتعالية، نصف الحسية في طفولته، وأحاسيسه الآن التي أصبحت أكثر حسية وتأثيراً في سلوكه، إذ إنه في عصر ذلك

اليوم من أيام أيلول، بعد أن ابتعدا في الكروم وجلسا تحت شجرة بعيداً عن أنظار الناس، دفعته قوة تلك الأحاسيس الطاغية إلى الاقتراب لشم رائحة منى في شعرها، انتبهت الأخيرة إلى حركته، فاجتاحها الشعور ذاته، واقتربا يتبادلان القبل المجنونة لأول مرة، مغمورين بتلك الرعشات المرتجفة التي حلقا فيها إلى سماوات لم يرتاداها من قبل.

مد ناصر يده إلى صدر منى وبدأ يداعبه بأصابعه المتوترة المحمومة، ما جعل منى تغيب عن الدنيا وهي تغوص في روحها إلى الأعماق المجهولة المليئة باللذة، لكنها أوقفته بحركة من يدها حين تطور الأمر إلى دس يده بين رجليها، وانصاع للأمر مدركاً حقيقة حرصها وتابع ملامساته الرقيقة الناعمة، وهو يعض بخفة شفتها السفلى غائباً عن العالم.

رسما معاً حلفاً سرياً لا تقدر على كسره لا تعليمات ولا أوامر أو توجيهات، يرتبان معاً لقاءاتهما بحذر وحرص بعيداً عن أي رقابة.

ودون خبرة سابقة، تبادلا الملامسات والقبل بحركات غريزية تقودها الرغبة وبعض مما ارتجلته الفطرة البدائية الدفينة، كانا سعيدين متلهفين للمزيد مما يمارسانه كاكتشاف جديد مدهش لم يحسبا حسابه أو يتصوراه كلاهما.

ذلك الشيء الذي أصبح متعة تخطفهما في كل لحظات حياتهما اليومية فيغرقان في أحلام يقظة تجعل كليهما سارحاً لا ينتبه للحديث الموجه له، ناصر في المدرسة الثانوية ومنى في

البيت أو في أي زيارة لها مع أمها، بعد أن نجحت في شهادة الثانوية العامة ولم تكمل دراستها، ذلك المارد الخفي الذي يستطيع أن ينتشلهما من أي موقف أو لحظة دون أن يدركا ذلك، ويأخذهما إلى عوالم مفتوحة على أنهار متدفقة وصباحات رطبة ومشاعر تحلق بهما إلى السماوات العليا كطيور راحلة في الأفق، لا وجهة لها سوى المساحات المفتوحة في الفضاء.

اعتاد ناصر أن يمشي في الكروم وبين الأشجار أو يعود لمرافقة أصدقائه في المنطقة القريبة من منزلهم، بعد أن يلتقي منى التي تكون بدورها قد توجهت إلى المنزل، كي لا تنتبه أمها وإخوتها أو تثير شكوكهم.

حين عاد إلى البيت عصراً حاملاً كتبه، كانت أمه تنتظره قلقة ورغم قدرته على إخفاء تعابيره المثيرة للشك إلا أن الأم أحست بتغير سلوكه وروحه وتصرفاته، ولم يكن يدري أن ذلك لا يخفى عليها مهما كان بارعاً في تمثيل دور الابن ذي الاهتمامات التي كان عليها قبل لقاءاته مع منى، إلا أن أم ناصر نظرت إليه وردت تحيته وأخفت مشاعرها وارتيابها، ثم نهضت لتحضر له الطعام بعد أن طلبت منه الاغتسال وتغيير ملابسه، لم يكن يعرف فراسة الأم التي تستطيع التمييز حين تختلف طريقته في لبس بنطاله أو منامته، عن المرات السابقة، لكنه استمر بادعاء حياة خالية من كل إضافات أو مستجدات حصلت له.

- عليك أن تهتم بدراستك أكثر يا بني.

قالت له وهو يدخل غرفة الجلوس، ورد بهدوء مفتعل:

– أنا أتابع دروسي.

أضافت ملاطفة:

– لكن هاليومين أنت أصبحت مهملاً قليلاً.

قالت جملتها ببسمة ذات دلالة.

تجاهل ناصر حركتها وأجاب:

– يجوز، ربما أهملت خلال هاليومين، بس سأتابع وأكمل ما ينقصني.

وغادر الغرفة بتراخ متعمد.

في مساء اليوم التالي، أتى عمه الأكبر فؤاد في زيارة لهم، كي يبلغ أمه تفاصيل مصاريف زراعة الأرض السنوية، وقيمة المحصول الصيفي، كانت الأرض الصغيرة هي ما خلفه لهما أبوه بعد وفاته، ولم يكن المحصول يضيف كثيراً إلى مورد رزقهم سوى تغطية النفقات التي تنقصهم خلال أشهر السنة الجارية، بحيث لا تضطر أم ناصر للجوء إلى مساعدة أختها نجوى أو ابن حميها.

مر الشتاء قاسياً ماطراً ومثلجاً في شهر كانون الأول والثاني، الأمر الذي جعل ناصر يفقد الفرصة لمقابلة منى في الكرم أو تحت أي شجرة بعيداً عن العيون، بدا عليه التوتر والضجر ما جعل أمه شبه متأكدة من أن شيئاً يشبه الحب قد بسط سيطرته عليه، ولم تتلق أي رد من ناصر يوضح تساؤلاتها المتلاحقة التي سألتها له، لكن الشتاء أضعف قدرته على الافتعال بسبب الضغط النفسي الذي بدأ يعانيه، أرادت أمه أن تعرف شيئاً عما يدور في رأسه، لكنها لم تستطع، رغم يقينها أن ابنها واقع في الحب ولا تفسير آخر

لما ينتابه، فكرت بمنى لكنها استبعدت الفكرة لأن الأخيرة تكبره بسبعة أعوام، وخلصت في آخر الأمر أنها المراهقة، ربما وقع في حب طالبة في مدرسة البنات الثانوية المقابلة لمدرستهم، قالت في سرها، وعمّق قناعتها أنه صار يقرأ شعر نزار قباني ومحمود درويش ويكتب الشعر، منغمساً بأجواء تشبه أجواء العشاق في أفلام السينما، وهو يغوص مسترسلاً وحالماً في عالم لا تراه لكنها تعرف مظاهره الخارجية تماماً.

ولكي تتأكد أكثر زارت بيت أهل منى بحركة دهاء، كي ترى فيما لو كانت الفتاة في نفس الحال، لكن منى بدت أكثر قدرة على إخفاء مشاعرها والتصرف بشكل طبيعي، وغاب عنها أن المرأة عادة، تستطيع ضبط مشاعرها وإخفاءها أكثر من الرجل، لاسيما وأن ابنها أصغر سناً وما زال مراهقاً، حرصت منى على الاكتفاء بالمعلومات التي تخبرها أمه عن أحوالها هي وابنها ناصر لأمها زينب، إلا أن هذه الزيارة أعادت الألفة السابقة وشجعت منى وأمها على زيارتهما كما كانا يفعلان في الأشهر والسنوات التي مضت.

كانت القبلة الوحيدة ذلك الشتاء، حين زارت منى وأمها زينب أم ناصر، إذ استطاع العاشق أن يخطف قبلة سريعة من فم منى في المطبخ حيث جعلها اندفاعه المجنون ترتعد خوفاً وهي تراقب الممر المفضي إلى غرفة الجلوس وتتأكد بأذنيها أن أمها وأمه منخرطتان في الحديث ولم تنتبها.

عام القبلة الوحيدة، كما أسماه ناصر، المحترق حباً وحنيناً للحضن الذي صحا عليه، يدفئه وبلمساته وتدفقه الذي يكفي كي

يملأ السماء بطيور محلقة جاءت من أرض الجنات وربيع لم يسبقه شتاء ولم يتبعه صيف، ربيع أخضر دائماً، يلف الأرض ويطفئ نحيب أرواح المولهين بقبلات مجنونة خرجت من شتاءات باردة طويلة، مبللة موحشة، كان عام القبلة الوحيدة كما ظل ناصر يطلق عليه في لحظات الخيبة أو الذكرى.

خرج الشتاء حاملاً معه وعداً حافلاً وسخياً بأيام أكثر رحابة وحرية، بعد أن أمضاه ناصر بقراءة الشعر والكتابة والدراسة السريعة المقتضبة.

أصل الحكاية أن ناصر زار صديقه أمين في بيته، وللأخير أب مثقف يملك مكتبة كبيرة وهو خريج جامعي في التاريخ بجامعة حلب، كان لأبي أمين الأثر الأكبر في إرشاد ناصر لقراءة كتب معينة بعد أن انتبه لحبه لها وفشله في جعل ابنه يقرأ، أمسك ناصر بخيط القراءة تحت تأثيره، وتابع بلهفة استعارة الكتب من مكتبته، أضافت قراءاته عالماً آخر وأبعاداً أخرى لحبه لمنى وفهمه للدنيا في سن مبكرة، إذ كان حين ينهي كتابة قصيدة، يهرع إلى بيت صديقه أمين، ليُري والده ما كتب متحمساً، مصغياً لتوجيهاته باهتمام.

بطيئاً مضى الشتاء، وسريعاً مر الربيع باتجاه الصيف، اجتاز خلاله ناصر امتحاناته الدراسية منتقلاً إلى الصف الثاني الثانوي، يرافقه حبه الذي ازداد عمقاً وقدرة على السيطرة على كل تفصيل في حياته، بدأ ناصر أثناء ذلك التدخين حتى اعتاد عليه، وكانت تزعجه ملاحظات أمه ونصائحها له بالإقلاع عنه، وحين يئست صمتت نهائياً.

عوالم أخرى كانت تلك التي يعيشها ناصر، وهو يتنقل بين البشر، الأم والأصدقاء والأقارب عدا منى التي كانت بمفردها فضاءً كبيراً شاسعاً، من تلك المساحات، صار أقوى وأكثر استقلالاً، تغلب على إحساس الوحدة وفقدان الإخوة والأب وترك هواجسه القديمة لكنه صار يعيش هواجس من نوع آخر، تائهة، محيرة، متسائلة، مؤرقة، بلا سبب سوى أسبابه الخاصة التي لا يبوح بها لأحد، حتى منى لم تستطع أن تفهم كلياً معنى تساؤلاته وهواجسه حين شرح لها، وخلال ذلك، كان الليل الغامض، المجتمع في أحلامه ومساحة أفكاره وذكريات رعشاته مع منى، يدخل في عروقه، محتلاً ما لا يتيح فرصة كي يعيش كالآخرين من سكان «أم الطين»، ذلك الاسم الحزين الذي بدأ يفكر بترك كل ما يصله فيه، وينطلق إلى حياة أوسع لا تدفعه للاختناق في عالم شاسع من فراغ البلدة وانغلاقها على الرتابة حتى الجنون.

في تلك الآونة، صار ناصر يحسد كل من يسمعه سينزل من البلدة ليعيش في حلب أو دمشق، وكان يتساءل بإحساس بالغرابة، لماذا كانوا حزينين لفكرة العيش في المدينة ومغادرة «أم الطين» التي كان يحسها سجناً خاوياً من كل شيء، لا علاقة لها بالحياة الاجتماعية الحقيقة، تملؤها الوحشة والسكون، في تلك الفترة، لم تكن في حساباته، هو الذي يعيش في كنف أمه، مصاعب الحياة وتفاصيل العمل والمصاريف والعائلة، وبدا في موقفه ذاك، وكأنه قد انتزع ذكريات طفولته وارتباطه الروحي بالمكان الذي ترعرع فيه، ودرس وعاش طفولته الأولى حتى يفاعته، لم يخل موقفه

من القسوة وانتقاد كل من كان يبوح لهم بمشاعره ورأيه في بلدته الأولى، أم الطين، الأليفة الحنونة، البسيطة الطيبة، كما كانت في قلوبهم جميعاً.

أكدت له منى في حوار معه أنه يبالغ في حب حياة المدينة ولا يحمل حباً حقيقاً لبلدته، لكنه أجابها إنه على عكس ما تتصور، يحب الأرض التي نشأ فيها، ولا يتخلى عن ذكرياتها وذكريات طفولته بأحجارها وحقولها وترابها وطيبتها، لكنه يطمح للانتقال إلى ما هو أرحب وأوسع وأكثر غنى في الحياة وعلاقاتها ونشاطاتها، وأدركت بعد حديثها معه، أن أم الطين لن تعود مكاناً تحتمله نفس ناصر التواقة والحالمة بما هو أكثر ضجيجاً وحركة ونشاطات، ذلك الإحساس الذي أتاه مبكراً دون سواه من أصدقائه الذين في عمره، فكر ناصر في سره، أن تلك التصريحات ربما تمهد الأجواء لروح منى وعقلها كي توسع مساحة تفكيرها وتفكر بأهمية العيش في المدينة، وذلك ما حصل فعلاً، إذ إنها راحت تراجع في نفسها كلماته وتميل إلى الاقتناع برأيه رغم رفضها له، أول الأمر، واستبعاد فكرته.

أعاد الصيف النشاطات التي توقفت بين منى وناصر بسبب الشتاء، وعادا إلى اللقاء في مكان آخر يتبادلان الأحاديث والهواجس والأحلام التي حملها معه صيف تلك السنة، بعد أن خلف وراءه ركود الشتاء ومواته، وقدرته، في مكان محدود كأم الطين، على إغلاق الأبواب أمام اللقاءات والحب والشرود في الأراضي الواسعة بأقدام تدفعها أحلام لا تنتهي ورغبات مجنونة في

التجوال في كل الأماكن وصولاً إلى أعالي الجبال، في أرض ولدت الآن، بأشجارها ونسائمها ورائحتها وجمالها البسيط الذي ينتشر في كل الجهات، دون منغصات أو عقبات، أرض بكر رطبة مسالمة، حنونة، بسطت ذراعيها لكل الناس دون قيود، لم يكن ناصر قادراً على تخيل حياته دون منى، وكان يتمنى في نفسه، لو استطاع، أن يجعلها جزءاً من جسده وروحه كي لا تضيع منه، لذلك تمادى حين التقيا ظهر يوم الخميس ذاك وهما يتوقدان شوقاً ورغبة، تبادلا القبل الحميمة وزاد إيقاع الرغبة والملامسات التي بدت كحب جارف للامتلاك، استطاع خلالها أن يمد يده إلى الأماكن الأكثر شهوة وشبقاً، وبادلته منى بدورها الملامسات المجنونة الحارة، مستثارة بقبلاته وأصابعه التي تداعب نهديها ومثلث الرغبة فيها حتى ولج فيها مندفعاً بجنون دون تحفظ حتى انتهيا، سال الدم على قدمي منى التي لم تدرك في البداية حقيقة ما حصل، لملمت نفسها واغتسلت في بركة ماء قريبة ثم أسرعت متجهة إلى البيت تحت رجاء ناصر لها بالبقاء كي يبرر ما حدث أو يخفف عنها، لكنها أشارت بيدها أن يبتعد وركضت دون أن تنظر إلى الخلف، صوب البيت الذي بدا لها بعيداً بمسافات لا تنتهي.

حاولت منى التخفيف من توترها مدعية الهدوء، دخلت البيت وهي تحاول الحفاظ على توازنها النفسي أمام نظرات أمها الفاحصة، توجهت ببطء إلى غرفتها وأغلقت الباب، اقترب المغرب ولم تخرج سوى للحمام، ثم لبست منامتها ودخلت غرفة الجلوس لتجلس مع أمها وأختها وأخيها، سألتها «أم ماهر» عن تأخرها فردت:

– مررت بصديقتي بعد أن أنهيت درس الخياطة عند أم فارس، ولم تتركني أعود قبل أن نتناول الغداء.

كان الجواب مقنعاً لأمها التي لم يدخل الشك قلبها، وأكمل الجميع مشاهدة المسلسل التلفزيوني، كانت منى تدعي متابعة المشاهد التي تمر لكنها كانت تسرح في أجواء أخرى، مليئة بالإحساس بالذنب والذعر، والأفكار التي تأخذها هنا وهناك، وكانت بين حين وآخر تسرق النظر إلى أمها كي تتأكد من أنها تتابع المسلسل دون أن ترتاب بشيء، ثم حدثت نفسها:

– متى يأتي الليل كي أذهب إلى فراشي وأطفئ الأضواء دون أن يراقبني أحد؟!

طال المساء قبل أن تأتي ساعة النوم، قامت منى خلالها بتحضير العشاء مع أمها وحاولت أن تأكل قليلاً، رغم عدم قدرتها على تناول شيء كي لا تنتبه أمها إلى أي شيء غريب عن عاداتها اليومية.

أخيراً أطفأ الجميع الأضواء ومضوا إلى النوم، تأرجحت مشاعر منى وهي تتخيل ما جرى بين متعة اللحظات وصدمة الخاتمة، إلا أنها كانت تمنع نفسها من الاسترسال في تخيل المتعة لتعود فتؤنب نفسها على ما حصل، وبدت في بكائها الصامت وابتساماتها كالمجنونة تحت غطاء السرير، نامت منى بعد ساعات طويلة من الأرق الصامت حيث أدركها الإرهاق لدى بزوغ الفجر، فدخلت في النوم متعبة وقد خبأت يديها بحركة قلق فوق بطنها.

وصل ناصر البيت مساء، دخل غرفة الجلوس حيث وجد أمه تستقبل جارتها في الحارة المجاورة كانت تدعى «أم المجنون» كما درج أهل «أم الطين» على تسميتها كتمييز لها، سمعها تشكو همومها لأمه، فدخل غرفة نومه، ارتدى منامته وفتح كتاباً يقرؤه، كان غير قادر على التركيز، يسرح في اللقاء الذي مضت عليه ثلاث ساعات مع منى، بدا حائراً بين تأنيب نفسه وإحساسه العارم بمتعة القبل وحميمية المداعبات، «اليوم منى هي لك، لن تكون لأي شخص آخر، لن تشعر بالقلق بعد الآن أن يتزوجها أحد غيرك، ذلك القلق الذي كان يحفر فيك عميقاً، لن ترتبط بغيرك»، حدث نفسه بابتسامة خفيفة، ثم انقلبت ابتسامته إلى عبوس بسبب الشعور بالذنب: «كيف فعلتَ ما فعلتَ؟! ستكون منى الآن في أشد لحظاتها قلقاً وتوتراً وخوفاً، لأنك تصرفت تصرفاً غير مبالٍ، ربما هي الآن تبكي، كيف تفعل ذلك بمن تحب؟!» عاد يخاطب نفسه في سره، وبين إحساسين متناقضين يتناوبان، أمضى ناصر ليله دون نوم، حتى أدركه آذان الفجر، غط في النوم مستسلماً للإرهاق الذي أصابه خلال النهار وسهر الليل، كان الدرويش أحمد يتوجه حينها إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، وحين مرّ ببيت ناصر، نظر إليه وهو يتمتم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

لم يكن ناصر أو منى أو أي من أهل البلدة يدرك أن الدرويش وحده الذي رأى منى تتجه منفعلة تداري بكاءها باتجاه المنزل، وأن الشيخ رجع عكس خطواتها كي يرى مع من كانت، ورأى ناصر يلملم نفسه قرب شجرة كبيرة وينهض في اتجاه مخالف لها.

نهض ناصر صباحاً في وقت متأخر، غسل وجهه وتوجه إلى غرفة الجلوس حيث دعته أمه لتناول الفطور لكنه لم يستطع الأكل، تناول قليلاً من الطعام ونهض، الأمر الذي لفت نظر أمه لأن ذلك ليس من عادته.

سألته لماذا لم يأكل جيداً أجابها:

– لست جائعاً، بجوز آكل على الغداء، الآن لم أشته الطعام.

ودخل غرفته ليبدل ثيابه ثم توجه إلى باب المنزل، أخبرها أنه على موعد مع صديقه وغادر البيت بهدوء، شعرت أمه التي كانت أكثر الناس علماً بطبيعته وسلوكه أنه ليس على ما يرام، أحست أن ثمة شيئاً جديداً طرأ عليه لكنها حين عجزت عن إيجاد تفسير، توجهت إلى المطبخ لتوضيب الصحون، ثم بدأت بعض الترتيبات التي تخص البيت.

توجه ناصر في أول خروجه نحو منزل منى، دار حوله عدة مرات حائراً وهو يحلم أن تظهر ويراها ولو لثوان، بقي الباب مغلقاً والصمت يلف المكان، فتوجه لزيارة أمين وأبيه، وهو يحارب لفراغ يوم الجمعة الرتيب كما يحارب فراغ يوم الجمعة الذي دب فيه دافعاً إياه لمعرفة أي شيء بخصوص منى، بعد لقائهما في اليوم الفائت.

عقب حديثٍ طال، أدرك ناصر لأول مرة معنى كلمة «ماركسي» وشيوعي حين شرح له ذلك أبو أمين الذي بدا أنه على قناعة تامة بذلك المذهب ومؤسسيه، استفسر قليلاً عن بعض الأفكار وتبادل الحوار معه ثم توجه الأخير لإحضار كتاب يوضح بعض مفاهيمها ليقرأه، تناوله ناصر بيد قلقة لأنه لم يكن يستمع

بأريحية لكلام أبي أمين، إذ كانت صورة منى تداهمه في كل لحظة فيدعي الإصغاء للحوار الطويل، لكنه يضج في داخله بأفكار مشوشة حول لقاء اليوم الفائت وما يمكن أن يكون قد حصل لها بعده.

دق الدرويش أحمد باب زينب «أم ماهر» فتحت ابنتها ليلى الباب، حياهم ودخل. أثار مجيئه حفيظة منى التي كان قلقها يبتكر كل الاحتمالات السيئة آنذاك، جلس الدرويش وهو ينظر إلى الأمام ويكلم أمها يسألها عن أحوالها وهو يمسد لحيته البيضاء، نهضت منى لتحضير الشاي، كما كان الشيخ يفضل، انتبهت إلى أنه نظر إليها بطرف عينيه بصمت حين همت بالذهاب إلى المطبخ ما جعلها في مهب الشكوك، «لماذا يأتي الدرويش أحمد في هذا التوقيت؟ وماذا وراء مجيئه؟» حدثت منى نفسها بارتياب وقلق، تناول الشيخ الشاي وهو يحمد الله ويتلو الشهادة بين الحين والآخر وكان التوتر يتصاعد في روح منى دون أن تبدي أي حركة يمكن أن تكون ذات دلالة «للشيخ الخبيث» كما دعته في نفسها.

تبادل مع أمها الحوار عن أحوالهم وعن أخبار زوجها نادر وأحوال الأولاد وابن حميها فريد، زوجها الذي كان يعمل في ليبيا كمعلم كهرباء، ولا يأتي إلى البلد إلا في عطلة الصيف، ويبقى في أم الطين لشهر يتفقد أحوال عائلته ويقضي أيام إجازته بسعادة لا تدوم طويلاً إذ يقطعها انتهاء إجازته، ثم يرحل حين يحين موعد السفر.

لم يستطع الدرويش أحمد أن يجد مدخلاً غير ملفت للحديث مع منى، إذ آثر أن يلزم الصمت معها بوحي من خبرته الطويلة بأحوال البشر والأخبار التي سمعها وعاشها، لذلك قرر منذ زمن طويل ألا يثير أي سؤال بخصوص النساء والفتيات في أي عائلة يعرفها، رغم كونه على شبه يقين، بعد أن رأى ناصر ينهض من مكانه للمغادرة، أنهما كانا معاً.

في ليلة ذلك اليوم، حلمت منى أنها تشرد في الأمكنة الواسعة وهي ضائعة لا تعرف أين هي، وأنها رأت ناصر يمشي معطياً ظهره لها، تائهاً في البراري، يلتفت يميناً وشمالاً كأنه يبحث عنها في اتجاهات مجهولة، بينما يضيع ناصر في مساحات أخرى في اتجاه آخر.

صحت من نومها مذعورة، لكنها أخفت فزعها وسيطرت على صوت تنفسها كي لا توقظ أحداً، خبأت ذلك الحلم المزعج في حضنها وعادت للنوم كطفل ينام إثر ألم، مستسلمة للإرهاق بعد ساعتين من الأرق.

في لحظة انسجام سعيدة قالت أم ناصر أمام زينب أم منى، تعليقاً على تعلق ناصر بابنة الأخيرة، إنها لو كانت أصغر سناً لخطبتها لابنها، ما جعل منى الجالسة قرب أمها في تلك الزيارة، تشعر بالراحة التي فقدتها في الآونة الأخيرة، بين القلق والحسابات والخوف، ضحك الثلاثة بعد أن أنهت أم ناصر كلامها ممتدحة طبيعة ابنة جارتها الجميلة وهدوءها وترتيبها، احمر وجه منى بعد أن نظرت إليها أم ناصر بمحبة وإعجاب، وعلقت زينب إنها

تتشرف بها وبابنها لكن «العمر! هو العقبة السيئة التي تمنع ذلك». ضحكت المرأتان تاركتين منى تسرح في عالمها المليء بمشاعر متناقضة من الحب والراحة والخوف من الأيام القادمة، خصوصاً حين سألت أم ناصر زينب عن عمر ابنتها وأخبرتها أنها في الثانية والعشرين، وشكت لها عناد ابنتها التي يتقدم لها ابن خالها وآخرون، لكنها ترفض ولا تعرف السبب، حينها عاد الخوف والتوتر اللعين إلى منى التي بدت ساهمة بنظرات قلق وكأنها في عالم آخر، ثم عادت إلى الجلسة حين سألتها أمها بم تفكر، انتبهت وعدلت الوضع مدعية مشاركتها لهما بإضافة كلمتين للحديث.

قبل أن يمر الصيف حين بدأت النساء ينتهين من أعمال المؤن الصيفية التي كانت تثير أعصاب منى وتململها، عادت والتقت بناصر في مكان مختلف، سألته بقلق:

– لماذا فعلت ذلك؟ ألم تفكر بي؟

رد ناصر بارتباك ممزوج بمشاعر الحب:

– لم أستطع السيطرة على نفسي، ثم مم تخافين، سنكون لبعضنا حتى نهاية الزمان، ما الذي يخيفك؟

ردت محتجة:

– ناصر! أنت لا تحسب حساب الأيام وما يمكن أن تخبئه لنا، ما زلت صغيراً على مفاجآت الحياة، أعرف أنك تحبني لكن كان عليك أن تحسب حساباً لكل شيء.

– أنا متمسك بك، وسأحارب الدنيا لأجلك، لا يهمني فارق العمر، هذه سخافة، ماذا يمنعهم من الموافقة على ارتباطنا؟

ردت وقد أثار عصبيتها كلامه السطحي الخالي من التجربة والخبرة:

– أنت تتحدث عن أمنياتك فقط، لكن الأمور لا تسير دائماً كما تتصور، أمك وأمي علقتا على هذا الأمر وبدتا وهما تتمازحان أبعد ما تكونان عن تصور هذا الموضوع يحدث.

سأل بدهشة:

– متى حصل ذلك؟

ردت:

– منذ أسبوع حين كنا في زيارة لأمك.

– هذا سخيف، لا تكترثي.

ومد يده إلى شعرها وهو يحاول أن يجعلها تسكت، لكنها رجعت إلى الوراء ممانعة، إلا أنه اندفع وأمسك يديها وقبلها، لم تستطع منى المقاومة، نسيت في لحظتها كل أنواع القلق والأسئلة، واسترخت أعصابها مستعيدة إحساسها بجمال المداعبات، وقد رمت دون إرادة منها بساعات الخوف والتوتر والحسابات الطويلة، مستسلمة للمشاعر السماوية التي أحستها لأول مرة في لقائهما السابق، وقد عادت من رحلة التعب الطويلة التي سرقت منها أجمل لحظات حياتها وهي تتلوى تحت المداعبات الدافئة التي تصعد بها أعالي الجبال وتجعلها تتدحرج فوق سفوح العشب المليء بالرعشات التي لا تقاوم تياراتها الآسرة، ناسية كل الدنيا وهي تسعى في داخلها إلى المزيد من اللذة والانخطاف إلى عالم لم ترتده روحها من قبل، زمن قصير ممتع من التواطؤ والاستسلام الخفي لتشنجات لطيفة

تنتقل في عضلات جسدها ومسام جلدها وتجعلها تشتعل بابتهالات مجنونة كي تصل إلى هدف يقبع في مكان سري، هناك، لا يهم ما قبله وما بعده، استلقيا هما الاثنين على عشب نصف يابس يتأملان السماء الصافية، في ظل شجرة تحجب أوراقها الخضر ضوء الشمس المتوهج، شعر كلاهما أنهما كائن واحد يحيا حياته باستقلال تام بعيداً عن الترتيبات الأخرى لوجودهما، كأن ذاكرتهما نسيتا أنهما ينتميان إلى عائلتين مختلفتين، وأن عليهما بعد لحظات، مهما طالت، أن يتوجها إلى بيتين منفصلين لكل منهما موقعه الخاص بين الناس واعتباراته، تبادلا الأسرار الحميمة والأمنيات الداخلية بحياة مشتركة واحدة لا يمكن أن ينفصلا فيها، كجدولين متقاربين يتفرعان من نبع واحد، بدا فيه الناس والطبيعة والزمن و «أم الطين» البلدة الوادعة، جزءاً أليفاً يحتويهما بحب ولا يتجزأ عنهما، وأن أشياء العالم تتآلف لصالحهما، كارتصاف النجوم في السماء وتوزع الأشجار المنسجم الهادئ في الحدائق، في تلك اللحظة، كانت حيوانات الحقل، وعصافيره، وأعشابه وحفيف أشجاره، كأنها كلها تبارك حبهما وتمنحه قداسة ابتهالية لا احتمال فيها لأي طارئ مزعج، أو عائق خارج إطار مشاعرهما ودائرة تفكيرهما التي كانت تدور في مساحات مفتوحة، لا حدود فيها لروحيهما المفتونتين بالبريق وبهجة اكتشاف خبايا جسديهما المتدفقين بطاقات ترفعهما عن الأرض، ولا تترك مكاناً للتفكير بوقائع الحياة وثقلها.

- أحبكَ. - قالت.

- أحبكِ. - قال هو بدوره.

وتقاربا وهما مستلقيان دون توتر أو شعور بما حولهما، وصعدا معاً إلى ذروة الجبل الشاهق الذي يقف أمامهما في الأفق البعيد «لأم الطين».

* * *

مرت الأيام خلال دراسة ناصر للثانوية العامة بطيئة مزعجة له ولمنى التي تغير سلوكها في البيت ما أثار تساؤل أمها وانتباهها، رغم أن ناصر لم يكن يعطي المرحلة سوى قليل من الاهتمام وكان مسترخياً غير قلق يعيش حياته كالآخرين، يذهب في زياراته المعتادة هنا وهناك، كما كان يزور منى وأهلها في البيت كل بضعة أيام.

سيطر برد الشتاء ذلك العام على نشاط الناس، إذ كان شديد القسوة كما أثلجت لأيام لم يخرج أغلب الناس خلالها سوى لتأمين بعض ضرورات الحياة الملحة والموظفين الذين كانت تقلهم حافلات الشركات أو سيارات الأجرة «السرفيس»، إلى مواقع عملهم، لم يشعر ناصر بالبرد في عظامه من قبل كما شعر تلك السنة، حيث لزم زاوية ثابتة في غرفة الجلوس مغطى ببطانية قرب المدفأة التي لم تتوقف ذلك الشتاء، إذ شكل ذهابه إلى المدرسة محنة صباحية شاقة، لهذا بات ينتظر قدوم شهر آذار كي ينقطع عن الدوام ويلزم البيت للتحضير لامتحان نهاية العام، إلا أنه في واقع الأمر لم يكن مهتماً بالدراسة كما ينبغي، بل كان لا ينقطع عن جولاته لزيارة الأصدقاء وبيت منى، ثم يعود في المغرب يدس نفسه تحت غطاء صوفي يدرس لساعة أو ساعتين، يقضي نصفهما وهو سارح يفكر

في حبه الذي لا يبعد عنه سوى مئات الأمتار، يدفعه الحنين إلى لقاء منى التي أحرقها الشوق تلك الفترة وأربكها برد شتائها الذي ضيق حركتها، إضافة إلى ضرورة مراعاتها لانشغال ناصر بدراسته، رغم أنها كانت تعرف جيداً عدم اهتمامه الشديد لكنها على عكسه، كانت مهتمة بضرورة نجاحه في البكالوريا وإحراز درجات عالية تخوله دخول كلية مهمة في دراسته الجامعية.

انتشر البياض تلك السنة مغطياً حقول «أم الطين» وأحجارها ومنازلها، مضيفاً جرعة أخرى لهدوئها ومللها الذي لا يخلو من الضجر والرتابة التي كانت جزءاً من أجوائها وطبيعتها، كانت تستلقي بوداعة على مساحاتها البيضاء الباردة، دون احتجاج، استسلام تام لقدر الشتاء، لها أحلامها البسيطة الخاصة، مسالمة، صامتة تتلقى ضربات الرياح البادرة دون حركة، لكنها أدركت في عمقها ذلك الحين أن ثمة اثنين فيها، يحترقان كلهب المدافئ وهما ينوءان بحمل ذكريات ومشاعر لا تبالي ولا تعترف بالبرد أو الثلج أو حتى الجحيم، بذلت أم الطين جهوداً كبيرة كي تقدم لهما بضعة أيام نصف مشرقة هادئة يستطيعان فيها الخروج لرؤية بعضهما البعض لوقت قصير، لكنها لم تستطع أن تلبي احتياجات روحيهما اللتين لا حدود لمطالبهما.

كان الشيخ أحمد قد ولد لأبوين مزارعين سنة الاستقلال في القرن الماضي، يوم كانت أم الطين قرية صغيرة في أطراف الدنيا، يعملان في أرض ورثاها عن جده لأبيه، يزرعان القمح ويرعيان بضع مئات من أشجار الزيتون والفستق واللوز، ولم تستطع أمه

إنجاب أخ أو أخت له بعد أن أصبحت تعاني من نوبات غامضة من الهلوسات والأوهام التي تتتابها لشهر أو أكثر ثم تنحسر عنها كطمي الأنهار، حيث أجهضت بعد سنتين من ولادته عقب إصابتها بهجمة عنيفة من الاضطراب النفسي أسقطت على إثرها حملها ولم تحمل بعدها بسبب اضطراب في وظائف رحمها، عاش خلال تلك السنوات وحيداً مدللاً حتى بلغ الثانية عشرة، في ذلك العام دخل أهل القرية بيتهما، صباحاً فوجدوهما ميتين، كان الدرويش أحمد أثناء ذلك في مدرسته، وكان قرار الطبيب الشرعي الذي أحضروه أنهما ماتا متسممين بنوع معين من الطعام البري، لم يستطع آنذاك تحديده، جن الطفل أحمد حين سمع خبر وفاتهما وارتمى على الأرض أمام باحة دارهم وهو يمرغ نفسه بالتراب، ضارباً الأرض بقدميه ويديه كالمجنون، إلى أن حضر أخواله وتدخلوا للتحفيف عنه بلا جدوى، ثم حملوه إلى بيت خاله ليقيم مع أسرته في بيته، مع الزمن هدأ الصبي، لكنه اضطرب على نحو لم يجد معه نفع الأطباء والأدوية وكتبة السحر والمشايخ بدعاءاتهم وتلاواتهم لسور القرآن الكريم.

جربوا كل الأساليب المتاحة كي يعود الولد أحمد إلى رشده ويتوقف عن التوهان في البراري والحديث عن أشباح وأشخاص مجهولين يراهم وهم قادمون لإحراق القرية وأهلها، إلا أنهم لم ينجحوا في جعل الصبي يعود إلى توزانه ورشده، إذ أصبح بعد ثلاث أو أربع سنين متعبداً يرتاد المسجد ويكاد يلازمه، وهو صامت لا يتبادل الأحاديث مع أحد من أهل القرية أو أقربائه ويتحاشى

أبناء وبنات أخواله وخالاته وأعمامه، إلى أن أطلق لحيته وتاه في الأمكنة بحيث كان سلوكه مزيجاً من التدين والأوهام والتفكير الحكيم في لحظات معينة، بعد أن أدرك أخواله وأعمامه اليأس من تحسن حاله، ظل يهيم في الأرجاء من شارع إلى شارع ومن بيت إلى آخر وهو صامت أو يردد كلمات لا يفهم أحد سياقها ولا معناها، يجده أهل «أم الطين» مرة في حقل وأخرى في المسجد أو أمام تجمع المدارس أو في بيت من بيوت الأهالي.

صار نموذجاً ثابتاً ومألوفاً هناك، بحيث كان الجميع يحبونه ويعطفون عليه ولا تطاوعهم نفوسهم على إزعاجه أو رفض طلب له، عاد بعد بضع سنوات للعيش في بيت أمه وأبيه عندما لم تعد تستطيع زوجات أخواله أو أعمامه تحمل الفوضى والأوساخ التي يزرعها في بيوتهم حيث يحضر من الشوارع والبراري أشياء لا قيمة لها ويخبئها في أركان المنزل حتى يصبح مكب نفايات.

ومن بين جميع أهالي البلدة، كان الدرويش أحمد يحب ويرتاح لأشخاص معينين هم الأقرب إلى قلبه، يرتاح لهم ويتقرب منهم دون الآخرين، كانت فرحة «أم ناصر» أهمهم، لأسباب لا تعرفها هي، رغم كونها تداريه وتقدم له المعونات وتستقبله بحرارة واحترام، لكن هذا كان يفعله أناس آخرون في البلدة ولا يتقرب منهم بالدرجة ذاتها.

قصته لا يعرفها سوى من هم أكبر منه، أولئك الذين عرفوا أمه وأباه وعاصروا مأساتهم، أما من هم دونهم سناً، فكانوا يعرفون قصته سماعاً مثل أم ناصر وزينب أم منى وغيرهما ممن يصغرونه بسنوات.

يقال إنه يمكث أحياناً في بيته دون أن يخرج لأيام سوى لتناول الطعام من محسني أهل البلدة ثم يعود، ويقال أيضاً إنهم سمعوه يتلو أبياتاً من قصائد لعمر الخيام وأقوال جلال الدين الرومي وابن عربي، الأمر الذي أثار ذهول واستغراب المتعلمين من الأهالي، إذ رجحوا بعدها أنه يختلي بنفسه، حين يغيب في المنزل للقراءة، لكنهم لم يكونوا على يقين من كل ذلك.

كان الدرويش أحمد صديق السواقي والتراب والأشجار والعصافير يحاكيها طيلة النهار حتى يحل الليل ولم يعد يراه أحد في مكان من البلدة، عرفوا أنه عاد إلى منزله وجلس تحت ضوئه الخافت، يقطع حبل الحوار مع أي شخص حين تبدأ جمله بالانتظام ويقترب من حافة الكلام العميق أو الحكيم ليدخل في نثارات كلام لا رباط منطقياً لها، ثم يلقي بشطر لشاعر غير معروف ويصمت سارحاً في كل الجهات.

لا بوصلة يقتدي بها فيما يخص اهتمامه بنظافته أو أشياء مشابهة، يراه الشبان والفتيات أحياناً عارياً يستحم في ساقية وهو يدندن أغنية ليس لها إيقاع مميز، دون أن يبالي بنظرات الناس إليه، وغالباً ما تشعر الفتيات بالخجل فيمضين مسرعات بعيداً عن المشهد في حين يبقى الشبان يتفرجون ويرمونه بتعليقات خبيثة وهم يضحكون، ويرد عليهم بدوره ثم يتابع استحمامه دون انفعال، سنوات مضت على الدرويش أحمد، وهو يدون في ذاكرته التائهة وقائع ومشاهد الناس وأحجار أم الطين، الموت والحب والأعراس والمهاترات وتفاصيل أخرى تتراتب بفوضى على الأدراج المخلخلة

لذهنه المشوش والمنظم حين يريد، ويأتي زمان يدفع أبا أمين ليقول لابنه ولناصر في جلسة من جلسات أيام الشتاء:

– من قال إن هذا الدرويش أحمد لا يفهم في الشعر والسياسة والمال والنساء، من قال إنه مختل مجنون، أشعر أحياناً أن الحكمة والذكاء اللذين يمتلكهما لا يملكهما كثيرون في بلدتنا، إنه «بئر أم الطين الدفين».

عندها نظر الشابان إلى بعضهما البعض مستغربين دون أن يدركا معنى ما قصده بشكل كامل.

وتأكيداً لملاحظة أبي أمين، شاهده عصر يوم آخر من شتاء تلك السنة كلٌّ من أمين وناصر، واقفاً في البرد القارس تحت السماء الصافية، ينظر إلى غروب الشمس الواهنة وإلى الصقيع في الأرض نظرة لها كثير من المعاني أدركها ناصر بمفرده، متذكراً ما سمعه من والد صديقه في لقائهم الفائت.

بدأت الحركة والنشاط يبدوان على أم الطين وناسها حين دخل الربيع مخلفاً شتاءً قاسياً بدا الأسوأ خلال العشرين سنة الماضية، ورغم تقلب الجو إلا أن الشمس بدأت تسطع على حقولها وحيطان بيوتها التي تشربت رطوبة البرد، في تلك الأيام ازداد قلق أم ناصر على دراسة ابنها واقتراب امتحاناته، في حين ازداد استرخاء الأخير الذي كان مشغولاً بشيء وحيد هو حبه لمنى التي تفاقمت حدة ضجرها خلال فترة الشتاء وازداد حنينها إلى الخروج في الحقول والاستلقاء على الأرض المعشبة تحت شجرة المشمش وهي مستسلمة لغزل ومداعبات ناصر.

حسم ناصر في داخله أمره فيما يخص سنة البكالوريا العلمية بحيث قرر أن يعطي أمر الدراسة وقتاً مخصصاً يلتزم به، وقرر أن يحيا، خلافاً لعادات الطلاب الآخرين، حياة طبيعية مسترخية، لا يشنجها عصاب الخوف من الامتحانات وهاجس الحصول على درجات مرتفعة لدخول كلية محترمة يحلم بها الجميع، كالطب أو الهندسة.

ماهر أخو منى الأوسط كان بعمر ناصر يحضر لامتحانات البكالوريا الأدبي، اختلاف الاختصاص هذا حرم ناصر من حجة قوية يلجأ لها لزيارة أهل منى والبقاء عندهم لوقت طويل مدعياً أنه يأتي ليدرس مع أخيها، لكنه لم يستطع في معظم المواد سوى اللغة العربية ومادة التربية الوطنية والإسلامية التي يتشاركان بها.

وحتى بلوغ الامتحان واجتيازه، كان ناصر قد دخله الحنين الغامر، واحتل عروقه ولم يخرج منها، إذ سهر الليالي الطويلة وهو يفكر فيها محاولاً استحضار روحها كي تكون معه في عمق الليل، يتسامران ويتبادلان القبل والمداعبات داخل الغرفة التي اعتاد أن يغلق بابها خلال فترة التحضير والدراسة، وسط الصمت المطبق للبلدة التي ينام أهلها منذ الساعة التاسعة مساءً، لم يستطع ناصر أن يداري خجله ويصلح غلطته حين نادى أمه باسم منى سهواً دون تفكير، وردت أمه على زلته في النداء بالابتسام وهي تقول مداعبة:

– منى آخدة عقلك حتى اسمها على لسانك لما بتنادي أمك.

ولم يبدر عن ناصر سوى ابتسامة خجولة مطرقاً رأسه من زلة لسانه تلك التي سببت له الإحراج دون حسبان.

تشاركت زينب وفرحة الهم والترقب خلال أيام الامتحانات العامة، إذ كانتا تظلان قلقتين في كل مادة يقدمانها حتى يرجعا إلى المنزل وتطمئن الاثنتان على مستوى أدائهما، استمرت محنة توترهما إلى أن انتهيا، ليحل محلها ترقب النتائج بقلق صامت، في الوقت الذي كان ناصر يشعر فيه بأنه استعاد حريته مع دخول الصيف وألقى عن كاهله هم برد الشتاء والدراسة اللذين حدا من قدرته هو ومنى على ترتيب اللقاءات، بعيداً في أطراف البلدة.

* * *

لم تكن الاضطرابات التي بدأت في جنوب دمشق وبانياس وحمص في شهر آذار ذلك العام قد وصلت ارتداداتها إلى حلب بعد، وذلك كان واضحاً في إيقاع حياة أهل أم الطين ومدينتها الكبرى حلب، إذ أمضى الناس فيها حياة عادية هادئة، في الوقت الذي كانت فيه المظاهرات والاشتباكات بالأيدي بين المتظاهرين والشرطة ورجال الأمن، تعم ثلاث مدن كبيرة في البلاد، تابع الناس قنوات التلفزيون بفضول وترقب حتى أصبح شغلهم الشاغل قبل أو بعد العمل في الأرض أو وظائف الدولة، أن يجلسوا أمامه ليتابعوا مستجدات الأحداث إضافة إلى الاضطرابات المشتعلة في كل من تونس ومصر وليبيا، بحيث بدا أن الناس قد دخلوا مرحلة جديدة مفاجئة، بعد ثلاثين سنة من الحياة العادية المستقرة.

آنذاك، كان الدرويش أحمد يلف الأمكنة متوتراً مضطرباً من السوق إلى الجامع، إلى البيوت المتناثرة داخل البلدة، وكأنه خرج

عن هدوئه النسبي الذي وصل إليه آنذاك بعد أزمته الكبيرة، لم يكن أحد من الأهالي يعرف متى كان الدرويش أحمد يشاهد أخبار التلفزيون ويتابعها في أغلب الأوقات حتى وقت متأخر من المساء، وكان يصحو صباحاً وهو يردد على الأهالي خبراً جديداً عن أحداث جنوب دمشق وبانياس مما لم يسمعوا به بعد، رغم أنه لا يملك جهاز تلفزيون في بيته المليء بالنفايات والأوساخ والأتربة، وكأنه كان يمثل بوق النفير الذي يطلقه لينبه الناس عن أشياء قادمة بخوفه الداخلي وتداعيات عقله المضطرب الذي اعتاد على نذر القلق وتوقع ما هو أسوأ، يجمع أشلاء الأخبار والكلمات من أركان ذاكرته التي ترصد وتودع ما يستجد في ركامها الغامض، ثم تطلقه كصافرة إنذار مدوية.

حين وصلت المظاهرات إلى حلب، إذ كان أغلبها يحدث في الحرم الجامعي وينشط فيه الطلبة، ازدادت هواجس أم ناصر وقلقها على وحيدها، إلى درجة طلبت فيها من ابنها ناصر، الذي قبل في كلية الهندسة الميكانيكية، ألا يذهب إلى الجامعة تلك الأيام، لكنه طمأنها أنه يقف على الحياد ويتعامل مع الأحداث والاضطرابات بحذر، بحيث يتوجه إلى الحافلات التي تقله إلى البلدة حين يصل الأمر إلى درجة من الخطورة تستدعي عودته إلى «أم الطين»، لكن رده لم يخفف حدة قلقها ولم يكن مقنعاً بشكل كافٍ لأم هاجسها الوحيد في دنياها هو سلامة وحيدها، كان توترها يبدأ حين يغادر البيت صباحاً، حيث تجلس على عتبة الدار، ولا يهدأ حتى تراه يطل من بعيد متجهاً إلى البيت،

صار ذلك التوجس والخوف عذابها اليومي الذي لا يتوقف سوى أيام العطل الأسبوعية، توقع الناس عودة الحياة إلى طبيعتها لكن الأحداث استمرت واتسعت إلى دوائر أكبر في المدينة وباقي المناطق في البلاد، ما جعل القلق يترسخ ويتضخم في نفس أم ناصر، وظلت على يقين أن الأمر لن تكون له نهاية وأنه يتجه إلى الأسوأ، وعتبة خلف عتبة، كانت «فرحة» ترصد المدى وتفكر خائفة فيما يحصل في المدينة، مملوءة بالصور المرعبة التي تغزو مخيلتها الحزينة الهشة التي تعلمت عبر أيامها توقع ما هو معتم أكثر من الحلم بما هو مشرق يملؤه الفرح، توالدت أيامها صوراً مفزعة وأحداثاً بما يخيف ويؤلم، ولم تكن جارتها زينب أحسن حالاً منها، إذ كانت بدورها تدور في منزلها، محاولة ابتكار ما هو ضروري وغير ضروري من أعمال كي تخفف من وطأة قلقها وحدة الأفكار المتسارعة التي تخطر في بالها ريثما يعود ابنها ماهر من الجامعة وحده أو بصحبة ناصر.

تأكدت مخاوفها عصر ذلك اليوم الذي عاد فيه ابنها ناصر ولم يعد ماهر، أخبرها ابنها أن الأخير قد اشتبك مع عناصر الأمن وقوات حفظ النظام حيث كان بين الطلبة المتظاهرين واعتقل، أخفت «فرحة» في ذلك اليوم فزعها وغلفت رهاب قلبها الذي تسارعت ضرباته وتوجهت إلى بيت جارتها زينب هي وابنها، حيث أخبر الأخير أم ماهر أن ابنها اعتقل في الجامعة قريباً من كلية العلوم، حاولت «فرحة» أمام جنون الأم وابنتها منى، التخفيف عنها وتهدئتها بأنه سيخلى سبيله ويعود خلال يوم أو يومين، إلا

أنهما لم تهدأا، رغم التطمينات التي أخبرها بها ناصر أن من يعتقل «هذه الأيام» يخلى سبيله بعد يومين وذلك ما كان يحصل للطلاب والطالبات الذين حدث لهم الشيء ذاته، هدأت أم ماهر ومنى قليلاً تحت تأثير الكلمات المخففة وتطمينات الأم وابنها لهما، هدأتا بنوع من الاستسلام للقدر والأمر الواقع ولم يبرحهما القلق والترقب والخوف على الشاب ماهر الذي كان قد بدأ سنته الأولى في كلية الفلسفة مع بدء اندلاع المظاهرات في الجامعة بكل أقسامها واختصاصاتها.

انتظرت أم ناصر إلى أن عادت إلى البيت، وأقسمت لابنها ناصر أنها ستقتل نفسها إذا ذهب إلى الجامعة قبل توقف الاضطرابات والمظاهرات هناك.

في تلك الأيام، كان الدرويش أحمد يلقي خطباً سماوية على أهل البلدة أمام الجامع، ينذرهم بانتظار أيام قاتمة أشد هولاً، ثم يتوقف ويتحدث عن العمل الصالح الذي يدخل من خلاله الإنسان إلى جنة الله إذا التزم بالعبادة والأخلاق وفعل الخير، كانوا يقفون لفترة قصيرة ثم يتركونه يلقي مواعظه للفضاء.

مضت ثلاثة أيام وأم ماهر تحترق قلقاً على ابنها قبل أن يطلق سراح الأخير ويعود إلى البلدة، كادت أقدام زينب تنهار تحت تأثير الفرح الذي اجتاحها هي ومنى وصغيرتها ليلى، وقفت تتلمسه وكأنها تحاول التأكد من أنها لا تعيش حلماً، قبلته وهي تحاول الاطمئنان على صحته قائلة:

– آذوك؟ ضربوك؟ عم تشكي من شي؟

حتى أكد لها ماهر أنه بخير ولا يشكو من إصابة أو أذى، وطلب منها أن تعد له الحمام ليغتسل من أوساخ السجن ويأكل.

وصل الخبر إلى أم ناصر عبر منى التي تذرعت بالذهاب لإخبارها كي ترى ناصر. فرحت لخروج ابن جارتها سالماً لكنها ظلت متمسكة بموقفها أن على الاثنين أن يتوقفا عن الذهاب إلى الجامعة ريثما تهدأ الأمور وتتوقف المظاهرات، ثم توجهت إلى بيت أم ماهر لتبارك لها عودة ابنها بسلام.

استغلت منى فرح أمها وجارتها أم ناصر وتخلفت عن الأخيرة بحركة خاطفة كي تعود إلى ناصر ويتبادلان قبلاً سريعة، ثم عادت فتوجهت سريعاً إلى منزلها.

بدت «أم الطين» في تلك الليلة كأنها طفل وادع، يترقب شيئاً مجهولاً، كما يترقبه الشيخ أحمد وهو يخرج أمواج خوفه وقلقه بالخطب والجمل التي يرميها على أسماع الناس بصوتٍ عالٍ.

شجرة إثر شجرة، وبيتاً خلف بيت، هبت رياح تشرين الثاني تجوب الفضاء وتحرك الأكياس المرمية في الشوارع الصغيرة والأرض الترابية، وتضرب أوراق الأشجار التي بدأت تفقد اخضرارها وحيويتها في أيامها الأخيرة، بينما كان ناسها يجلسون متوجسين حول جهاز التلفزيون يقلبون المحطات كي يسمعوا مزيداً من الأخبار ويروا مشاهد من هنا وهناك، من أرجاء البلاد.

في حين كان ناصر يستلقي في غرفه نومه ممسكاً بكتاب لا يقرأ منه سطراً أو سطرين، حتى تجتاح صورة منى خياله ويسترجع طعم القبلات السريعة التي تبادلاها عصر ذلك اليوم

على عجل، مرت في باله كلمات أمه الخائفة وهي ترجوه ألا يذهب إلى الجامعة، واختلطت صور اشتباكات الطلاب مع قوات حفظ النظام وهروبهم أمام السيارات التي تلاحقهم، ثم عادت واستقرت صورة منى المتهورة وطعم القبلات الشهوانية التي غامرت فيها، غير مبالية باحتمال انكشاف أمرهما من قبل الأمين.

سمع في تلك اللحظة صوت الريح تحف أطراف نوافذ البيت المطلة على الشارع، عندها فقط، زحف النعاس إليه فحضن الوسادة ونام.

زاد من ثقل الأزمة التي تمتد في البلاد ظهور مشهد مخيمات اللجوء التي انتصبت في المناطق الحدودية المتاخمة للبنان والأردن ثم تركيا بعد وقت قصير، في قنوات التلفزيون المتنوعة، آنذاك أحس أهالي «أم الطين» بجدية الاضطرابات وهولها، خصوصاً بعد بدء انتقال المظاهرات السلمية إلى اشتباكات مسلحة، في ذلك الحين، جثم على صدورهم هاجس رعب حقيقي وخوف مترقب لتطورات لم يعودوا واثقين أنها يمكن أن تتراجع وتخمد، التبس عليهم الأمر واحتاروا وتناثرت قناعاتهم ومواقفهم هنا وهناك مع القلق الذي استوطن قلوبهم وهم يتفرجون.

العم فؤاد، عم ناصر، كان يعيش في حلب وينقل الأخبار إلى أقربائه وأصدقائه في البلدة، يحكي لهم بتفصيل أكثر مصداقية ما كان يحصل ويشاهده في المدينة، وأكد أنه سينتقل إلى «أم الطين» مع عائلته إذا استمرت الأوضاع على تلك الحال «لأنه لم يعد يطمئن على أفراد أسرته الذين يدرسون في المدارس والجامعات».

كان العم فؤاد موظفاً في مجلس مدينة حلب منذ عشرين عاماً، واستقر هناك بعد أن تزوج من فتاة حلبية الأصل يعيش أهلها في المدينة، استأجر في بداية زواجه شقة صغيرة ثم اشترى منزلاً يدفع أقساطه للبنك، العم فؤاد الصالح كان معروفاً في كل قسم من مبنى البلدية، يحبه الجميع ويقدم خدمات لكل من يقصده، لكنه بطبعه، ودون زعل، يحب الهدايا!...

مرت شهور دخل خلالها الشتاء والأزمة تزداد حدة، مع حوادث الانفجارات والعبوات المفخخة، ووقائع الموت بالقذائف والشظايا، تزامن ذلك مع حدوث الخطف من أجل فدية والاشتباكات على محاور طرقات السفر الدولية، بحيث أصبح الطريق إلى «أم الطين» غير آمن ولكنه سالك لأن بعض الأهالي موظفون في المدينة مضطرون للذهاب إلى شغلهم يومياً حتى مع وجود المغامرة واحتمال نشوب اشتباك أو إشكال على الطريق، ضاقت الدنيا بناصر الذي لم تكن تسعه الأزمة والاضطرابات هناك، وعليه فقد صار مضطراً للإقامة الجبرية في البلدة دون خيارات، وجاء الشتاء فأغلق كل المنافذ التي يلجأ إليها وتخفف من شعوره بعدم الرضى، أولها وأهمها لقاؤه بمنى الذي أضحى شبه مستحيل في ظروف الشتاء والبرد وفضاء البلدة المحدود، توقف عن الدوام في جامعته وانكب يقرأ مزيداً من الكتب إلى أن ضجر من القراءة ولم تعد منفذ التنفس والسلوى لروحه التي تختنق.

صار يتنقل من بيت إلى بيت في زيارات مضطربة، يدور ويدور في دائرته الصغيرة ثم يعود محبطاً إلى البيت مستسلماً

للرتابة حتى طلوع النهار.

في أيام انعدام اللقاءات بينه وبين منى، قرر ناصر أن يكتب لها رسالة مطولة، يفرغ فيها حنينه وحبه وينقل إليها تساؤلاته حول ما يجري وما يفكر فيه من حلول للتخلص من ذلك الإيقاع الرتيب المميت لحياته الذي زادت الحوادث الجارية حدته ووطأته، جلس في الغرفة وبدأ يكتب دون توقف، طوى الورقة حين انتهى وحضرها بشكل يمكنه من تسليمها إلى منى في اليوم التالي.

مع اقتراب امتحانات الفصل الأول في الجامعة، لم يعد ثمة مفر لكل من ناصر وماهر من النزول إلى حلب للتقدم لها، كانت الفوضى قد عمت أنحاء الجامعة، لكن ما هو مؤكد أن الدوام قائم ولا قرارات بخصوص أي تأجيل لها، هذا الأمر أصاب كلاً من فرحة وزينب بالقلق الذي عاد ليبسط ثقله على صدريهما، ولم يعد أمامهما خيار هذه المرة، لأن عدم الذهاب يعني الرسوب في مواد الفصل الأول جميعها واحتمال أكبر للرسوب في السنة الدراسية كاملة، جلستا تشكوان الأمر لبعضهما البعض في الوقت الذي مرر ناصر ورقة رسالته إلى منى بعد أن تذرع لماهر بدخول الحمام إذ رماها لها بشكل خاطف وعاد إلى غرفة الجلوس وهو يجفف يديه بالفوطة.

فتحت منى الرسالة بعد ذهاب ضيوفهم، وجلست تقرأ بعد أن أغلقت عليها الباب:

«الحبيبة منى، لم تعد تكفيني أنهار العالم وأشجاره وهواؤه، أنا أختنق كل يوم ألف مرة، وأبحث في زوايا البيوت والشوارع عن

شيء يجعلك معي فلا أجد، رغم أنك تعيشين في بيتك على بعد مئة متر فقط من بيتنا، وازدادت حدة مشكلة الحرب التي اندلعت من حيث لا ندري، أشعر بأن القادم سيكون أسوأ، لست متشائماً لكنني لا أرى نهاية أو حلاً سريعاً لما يجري، من كان يتوقع حدوث الموت والاقتتال والكمائن والانفجارات المدمرة في بلدنا؟! أفكر أحياناً في الهروب إلى أي مكان آخر، لكني حين أدوِّر كل الاحتمالات لا أجد حلاً أو مكاناً أذهب إليه، أقسم بحبي لك أنني أفكر فيكِ في كل الأوقات لكن أرجو منكِ أن تفكري معي ماذا نفعل، لأننا سنختنق هنا إذا لم نفكر بحل، لا أعلم حتى الآن ما هو المخرج والقرار الصحيح، أحبك لكن أرجوكِ فكري معي بحل يخلصنا نحن الاثنين من هذه الحواجز والموانع التي تجعلنا نعيش كالغريبين رغم أننا متجاوران، أحبك دائماً، ناصر».

بدت على منى ملامح الضيق والاختناق عندما أنهت الرسالة، سمعت أمها تناديها من غرفة الجلوس، فمسحت دموعها بيديها وتوجهت إليها، كان صوت الدرويش يسمع عبر الفراغ وهو يعظ الناس عابراً الشوارع الضيقة، مرتدياً معطفاً أسود قديماً متسخاً، بينما تحرك رياح الشتاء شاله الرمادي الذي اعتاد لبسه صيفاً وشتاءً، غير مبالٍ بالبرد وتناهت إلى مسامعها هي وأمها وباقي أهالي البيوت المجاورة صرخة تحذير:

– يا ناس ديرو بالكن من الغدر والقتل، الدم وصل لعنا، ديرو بالكن من الرصاص والمدافع، الدم حرام .. الدم حرام.

* * *

لطالما فكر ناصر بالمقدمات والأسباب التي دفعت ماهر عبد الحق للمشاركة بالمظاهرات، كونه لم تصدر عنه أية تصريحات أو مواقف في حديثه معه في الجامعة أو البلدة، توضح ميوله وطريقة تفكيره، إلا أنه لم يجد سوى تفسير واحد وهو مجموعة الأصدقاء الذين يرافقهم في كليته، إذ كانوا جميعهم من الناشطين المستمرين الذين اعتقلوا مرات سابقة، كان يفكر بهذا عندما دخلت أمه في الصباح وأحضرت له كوب الشاي وهو يدرس تحضيراً للامتحان، سمعها تحدث نفسها وهي تخرج داعية له بالتوفيق بعد أن أغلقت باب غرفته. وعلى أسماع أخته منى وصف ماهر ناصر بالمسالم حين استشهدت به أمه زينب كي تقنعه بعدم المشاركة بالمظاهرات مرة أخرى، مضيفاً أنه «حدثه في مرات سابقة عن هذه المسألة فأكد له تردده في المشاركة لأسباب لم يستطع ماهر فهمها لأنه لم يشرحها له بالشكل الكافي، ولكنه أغلب الظن أنه يفكر بأمه التي ستجن إذا أصابه مكروه لأنه وحيدها، أضاف الأخير.

تشاغلت منى بترتيب الغرفة وهي تسمع حديث أخيها حول ناصر بعد أن تساءلت هي ذاتها عن عدم مشاركته رغم أنه الأكثر ترجيحاً للقيام بها بحكم طبيعته المتمردة والانتقادية.

كان الدرويش أحمد يجلس على ناصية دكان البقال عبد الودود يشرب الشاي حين أقبل الاثنان عصراً لأخذ استراحة بعد ساعات الدراسة، إذ اتفقا عبر الهاتف النقال على الخروج معاً، بادر البقال ودعاهما لشرب الشاي وهو جالس قبالة الدرويش على

كرسي صغير، لبيا الدعوة سلّما على الشيخ الذي كان يشرب الشاي وعيونه زائغة كأنه مسكون بقلق عمره آلاف السنين، رد التحية وأخذ ينظر أسفل ساقيه، ثم يخطف نظرة مرتابة إليهما، تجاهلا نظراته ووجه ناصر سؤالاً إلى البقال عبد الودود:

- لا أخبار جديدة عن «الثورة» عم عبد الودود؟

رد الأخير دون تحفظ:

- والله علمي علمك، ما في شي تغير غير حوادث موت جديدة واشتباكات في كل محل.

وأدار وجهه ناحية ماهر مهنئاً:

- صحيح .. الحمد لله على سلامتك ماهر، إن شاء الله ما عذبوك؟ اسمع مني بلالك وجع الراس ابني .. الشغلة مبينة كبيرة.

ثم تردد وصمت، رد ماهر:

- الله يسلمك عم عبد الودود، إذا كلنا قلنا متلك رح نبقى مكاننا وما نغير شي.

ارتفع صوت الدرويش أحمد يوحد الله ويسأله الحماية والستر، وهو ينظر بعينيه القلقتين، ثم أدار البقال عبد الودود نظره إلى ناصر وسأله:

- كيف أخباركم، إن شاء الله صحة أمك منيحة؟ ما شفتها اليوم.

رد ناصر:

- الحمد لله، بخير، اليوم ما طلعت من البيت.

ووجه الحديث للجميع مداعباً:

- كيف أوضاعكن على هالأحداث، أنا شايف الأمور كل يوم أبشع من قبل؟

نظر الدرويش أحمد بطرف عينيه ولم يتكلم. رد البقال:

- أي والله يا ابني، الأمور كل يوم عم بتصير أسوأ، شوف اللي صار بليبيا ومصر وتونس يبدو هلأ أجى دورنا، الأحداث ما بطمن أبداً، والاشتباكات والقتل مستمرين، الله يسترنا من اللي جاي.

علا صوت الدرويش فجأة:

- الله، يا منجي من المهالك يا رب.

قطعت الجلسة امرأة تسكن في شارع خلفي وطلبت من البقال أن يبيعها بعض الشاي والسكر.

تابع ماهر حركاتها واستقرت نظراته على أردافها ومؤخرتها التي ترسمها الريح حين تضرب عباءتها.

عاد صوت الشيخ أحمد يخاطب الهواء وهو ينظر شذراً إلى ماهر:

- اللهم احفظنا واستر على حريمنا.

غض ماهر وحول نظره عن المرأة خجلاً، ابتسم ناصر محاولاً أن يداري وجهه، أكمل الاثنان كوبيهما وودعا البقال والشيخ ومضيا باتجاه شارع المدرسة الخالي يتمشيان في مواجهة الريح الباردة.

اعتاد العم عبد الودود أن يجلس في أوقات العصر، أيام الصيف، وفي بعض أوقات الشتاء كي يتذكر ابنته الوحيدة أمينة التي أصبحت منذ سنوات قليلة ذكرى مؤلمة يستعيدها وهو جالس

أمام دكان البقالة، حيث تميل الشمس للغروب، بعد أن تخف حدتها وتتناثر أسراب العصافير والسنونو وهي تطير خفيفة في السماء معلنة بدء تقاطر هموم ذكرياته التي تركت في نفسه لوعة تأصلت في روحة المسالمة، وحين يسرح في عوالم تلك الأيام، كان يتمنى ألا يزوره أحد من أبناء البلدة ليجلس معه أمام باب الدكان ليشربا الشاي كما اعتاد كثير من أصدقائه الذين كان أخفهم ظلاً الدرويش أحمد الذي يدرك بطريقة خفية، متى عليه أن يترك البقال عبد الودود ليتابع شروده في تفاصيل تلك الأيام التي هي الآن بئر عميق يغوص فيه متحسراً متعباً مستسلماً في آخر دورة لخواطرها، حين يطول به الدوران الزائغ في فضائها ولا يلوح في أفق دنياه أي احتمال ولو واهٍ كي تعود ابنته من غيابها المفاجئ الذي جعله يقضي جزءاً كبيراً من أوقات حياته وهو سارح مسلّم بصمت تدركه زوجته بدرية وحدها، هي التي شهدت تلك الأيام وكانت جزءاً منها، ولم يخطر في بالها آنذاك أن ابنتها أمينة سيدفعها قلبها المجنون كي تنسى جزأين يكملان حياتها هما أمها أبوها، حدث ذلك حين زارهم شاب وسيم من حلب، تعرف إلى ابنتهما أمينة أثناء دراستها في معهد دار المعلمين حيث كان مدرسها، ورأت ابنتهما آنذاك عندما اشتد تعلقهما ببعضهما، ضرورة أن يزور أبويها ويتعرف إليهما كأستاذ لها أحب أن يزور أم الطين ويتعرف إلى أجوائها وأهلها، بعد أن حكت له عنها مطولاً.

رحب العم عبد الودود بالشاب ملهم الذي كان شديد الاحترام والأناقة واختيار العبارات اللطيفة الودودة، أما أمها فقد لزمت

الصمت واستقبلته بترحاب ومودة، مكث في البلدة يومين ثم غادر ولم يدر في ذهن الأبوين أي احتمال لوجود مشكلة قادمة مع ذلك الشاب الموسيقي ملهم، وفي حديث للعم عبد الودود مع أبي أمين، سأله الأخير مستفسراً كيف تعرف على الشاب ملهم، أخبره البقال أنه مدرس ابنته أمينة في المعهد الموسيقي المتوسط وأنه شاب مثقف وواعٍ وأنه يعرفه في حلب ويتواصل معه وهو من خيرة الشبان الذين عرفهم، وحين استفسر العم عبد الودود عما يجمع بينه وبين الشاب ملهم، تردد وألغز إجابته ما دفع البقال إلى طلب مزيد من التوضيح فرد أبو أمين إنه عضو في حزب يساري معه في حلب.

كان أبو أمين معروفاً في البلدة بتاريخ سياسي في حزبه لم يخفه عن أحد، أثار وقتذاك الخبر العم عبد الودود ولم يرغب أن تكون ابنته على تواصل مع شاب لا يتفق مع معتقداته هو الذي نشأ على أفكار عبد الناصر والقومية العربية.

في مساء اليوم ذاته، أخبر عبد الودود زوجته بدرية بميول أستاذ الموسيقا وانتمائه، وكان وقع الخبر ذا أثر أكبر لدى الأم التي كانت شبه واثقة من وجود علاقة حب بين ابنتها أمينة والمدرس ملهم، ومنذ ذلك الحين قررت مفاتحتها في أمره كي تستفهم من ابنتها عن الأمر وتتعرف على ما تنويه.

وعندما فاتحت الأم ابنتها في يوم من أيام الخميس، حيث تعود إلى البلدة لزيارتهم خلال العطلة الأسبوعية، أخبرتها أمينة بحقيقة مشاعرها نحو الشاب واكتشفت إثر اعتراضها على انتمائه

اليساري أن ابنتها أصبحت تحمل القناعات ذاتها، وارتابت من احتمال أن تكون انتسبت إلى حزبه نفسه، لكن أمينة أكدت لها أن لا علاقة لها بذلك، أخفت الأم الأمر عن زوجها عبد الودود لكنها ما لبثت أن باحت له بالخبر حين تقدم ذات يوم لخطبتها مع أمه وأبيه، عندها شعرت الزوجة بدرية بضرورة إخبار زوجها كي يكون على علم بوضع الشاب حين يدرس الأمر ويأخذ قراره.

صمت العم عبد الودود حينها، لكنه اتخذ القرار بينه وبين نفسه، «لن يوافق على زواج ابنته من هذا الشاب لأنه يكره أن تعيش ابنته في جو من الإلحاد والعدمية».

عندما رجع ملهم يستفهم عن رد الأهل أجاب عبد الودود:

– يا بني، أنت شاب طيب، وأهلك محترمين، بس ما في نصيب، أتمنى لك حياة سعيدة في مستقبلك.

غص الشاب ملهم حين سمع الخبر ولم يدرك عبد الودود أن عليه في هذه الحال، أن يعرض الأمر على ابنته ويقنعها برفضه، إلا أن ذلك جرى بصورة نزاعات حادة خفية بين الأم وابنتها طالت لمدة أسبوعين، ولم يكن عبد الودود ممن يميلون إلى الاحتراز من حصول ما لا يرغبه، فترك ابنته تتابع دوامها في حلب بعيداً عن عينيه، إلى أن مر خميس وآخر ولم تأت أمينة في عطلة نهاية الأسبوع، ثم تأكد الأب حين نزل إلى حلب من خبر زواجهما وسفرهما إلى إحدى دول الخليج التي لم يعرف البقال اسمها آنذاك، فلزم الصمت ودفن ألمه في داخله إلى أن أصبح مرارة تحفر فيه فيخرج شكوى أليمة في كل الأوقات وبشكل أكثر في أوقات العصر

في الصيف، حيث يخيم على المكان جو مليء بالنسيم المنعش وسماء تغص بالعصافير وطيور السنونو، وتميل النفس بشكل غامض في نهاية النهار إلى استحضار ذكرياتها التي تخرج من بين تلافيف الذاكرة لتعيد تنشيطها في دورة لها وقع الألم.

وبعد مرور بضعة شهور، أعادت أمينة اتصالها بأهلها عبر خالتها التي يعمل زوجها في قطر، ومن هناك تحدثت بمكالمة هاتفية تستسمح أمها وأباها وتطلب منهما الرضا والدعاء.

ولأن أهل أم الطين كانوا مسكونين بمجهول لا يثقون به منذ البداية، بداية عهدهم بعصر الغبار والمصادفات الكبرى، فحين سألوا عن غياب أمينة بنت البقال، لم يستطع عبد الودود وزوجته إخفاء الأمر، ولم يفاجأ الأهالي وقتها، لكنهم أحسوا لسبب لا تفسير له، أن البنت خرجت من البلدة ولن تعود إليها ثانية.

* * *

الشتاء دار شمالاً وجنوباً في البلاد واستقر بحمولته في شوارع المدن والقرى، بدا أشد هولاً ورعباً مشهد الجثث في بعض المدن وهي ملقاة على الأرض مغطاة بالثلج وسط شوارع خالية، بعد أن تبادل المتحاربون رشقات الرصاص والقذائف والقنابل التي وزعت فزعاً شل الأهالي ودفعهم للهرب في كل الجهات المتاحة الخالية من النار، مشوا طويلاً حتى وصلوا بعد أيام حدود بلد مجاور، حطوا رحالهم وأشياءهم المتهالكة قربها وجلسوا بانتظار الموت أو المجهول، كانت محطات التلفزيون تبث أخباراً مصورة عنهم جمدت أهالي أم الطين وهم يتابعونها مساءً، ونشرت الخوف

والقلق بين الآباء والأمهات اللواتي كانت أرجلهن وسادات ينام عليها أبناؤهن الصغار، في غرف أوصدت على خارجٍ بسط البرد القارس ملكوته عليه وتراكضت القطط وكلاب الليل هاربة باحثة عن جحور تختبئ فيها بعيداً عنه.

توالى رنين الهواتف الأرضية والنقالة في مدينة حلب، منذ الصباح، مكالمات من كل المغتربات، أوروبا، والخليج، وكندا، وأمريكا، يسعى فيها أبناء وبنات العائلات المغتربون للاطمئنان على أهاليهم بعد أن سمعوا أخبار الانفجارات وشاهدوا صوراً لضحايا عبر القنوات الفضائية، ضجت المدينة وهي تنوء بثقل المفاجآت المدمرة التي جمدت الناس في بيوتهم ومكاتب عملهم، كانت شبكات قنوات الإعلام الفضائية تصل الخوف بالخوف في كل أطراف البلاد، وينتشر القلق والترقب والحسابات لما يمكن أن يأتي في الساعات والأيام القادمة، ترقب صامت وآخر مقلق في الأماكن العامة بين الأصدقاء ورواد المقاهي والأسواق.

ذلك ما أحسه ورآه كل من ناصر وماهر في زيارتهما السريعة الحذرة للمدينة والحرم الجامعي المتوتر، يوم نزلا إليها لتقديم امتحاناتهما، حيث توجه ناصر ما إن أنهى امتحانه إلى حافلات النقل للعودة إلى «أم الطين» في حين لم يكن ماهر راغباً بالعودة السريعة لأنه توجه لرؤية بعض أصدقائه وهو في حالة استرخاء تام.

أوقفت الحافلة المتوجهة إلى «أم الطين» والقرى المجاورة لها عدة مرات للتفتيش من قبل حواجز الأمن والجيش، ولم يهدأ قلق ركابها حتى استقروا في قراهم.

كان القلق والتوجس الصامت والتوقعات المتطايرة هي التي ترسم أجواء الناس وحياتهم في تلك الأيام، امتزج الحماس والتهور والشجاعة بالتحفظ والخوف والجبن والسكوت المنكسر آنذاك أمام الموت والعنف والخطف والاعتقالات.

كل زلازل الأحداث وفيضاناتها لم تمنع لا مبالاة «جميلة المنسية» عن أداء نشاطاتها السرية واستقبال ضيوفها المجهولين عند حلول المساء في أم الطين، كانت النقطة المحظورة السوداء في دائرة البلدة، لا يقترب منها الناس ففي تجوالهم يحيدون عن أي طريق يمر بها، خوفاً من أن يمسهم عارها أو يدنسهم، وقد لقبها أهل القرية بجميلة المنسية لأنها كانت وحيدة لا يعرفون شيئاً عن أصلها وأهلها، وكانت تعيش كامرأة منسية. هاجمها بعض ممن لم يحتمل عقلهم أن تمارس امرأة تعيش بينهم تهتكها بذلك الاستهتار والاستخفاف، ذهبوا في أيام مضت لقتلها في بيتها، إلا أنها كانت أصعب مما توقعوا، لم تكن وحيدة أو ضعيفة لأنها ما إن ارتفعت المقابض بالهراوات والقضبان الحديدية والمسدسات، حتى فتحت في وجوههم أبواب جهنم من شبابيك البيت وشرفته والأرض الخلفية فيه، لم يتوقع المهاجمون مفاجأة كهذه، سقط جرحى وقتلى وقامت الدنيا وجرت تحقيقات انتهت في آخر المطاف إلى إدانة المعتدين وتجريم قتلتهم الذين لم يعد لهم أثر في البلدة، صار ذلك الحدث درساً صارماً لأهالي «أم الطين» لم يستطيعوا بعدها الاقتراب من بيتها الذي يقع على حواف البلدة الغربية المتطرفة.

بعدها، حيكت الأساطير والأكاذيب والحكايا التي نبعت من

زوايا الخوف في نفوس الأهالي، حول قدرات جميلة وارتباطاتها بقوى أرضية وسماوية، واضطر الناس إلى طي ملفها وتحاشيها كأنها لم تكن.

استغرب الناس من جرأتها ووقاحتها حين وقفت في الساحة، قريباً من البقال عبد الودود وتحدثت دون خوف عن جبن أهالي «أم الطين» ورجالها الأرانب الذين يلوذون ببيوتهم في حين يقتل الآخرون ويعذبون «مطالبين بحقوقهم»، ابتسم ناصر وهو يسمعها تحكي بصوتها الفاضح، وتبادل بسمات التفاهم أيضاً مع أمين وأبيه في بيتهما حيث أكد أحمد فاتح (أبو أمين) وهو يصب الشاي لناصر وابنه أمين أن «جميلة المنسية» تلعب لعبة قذرة إذ تبدو للآخرين معارضة بينما تقوم بتسليم بعض رجال البلدة لعناصر الأمن.

منذ عشر سنوات مضت، تزوجت جميلة من سائق شاحنة شاب مهذب يدعى «أمير عوض» الذي خطبها من أهلها في ريف المدينة ثم زفها في البلدة وتزوجها، عاشا ستة شهور هادئة ثم بدأت الخلافات بينهما، لم تستطع أم أمير المسترجلة صاحبة الشخصية القوية أن تقف في وجه جميلة الشرسة الوقحة، وتناهى إلى الأسماع ذلك الحين أن أمير زوجها، لم يكن مُرضياً في ممارسة الحب معها، لأنه «كما قيل يعاني من مشاكل منذ طفولته»، وقيل أيضاً إنها كانت تخونه خلال سفره على الشاحنة الذي يدوم أحياناً قرابة الستة أيام واكتشف ذلك، كما أضاف آخرون أنها كانت تحب شاباً قبله واستمرت في علاقتها معه بعد زواجها، وتوالت الحكايا،

عقب ذلك، توفي أمير بحادث سير مرعب ودفن في البلدة، ومنذ ذلك الحين بدأت تحوم حولها الشبهات بسبب المظاهر والنشاطات الغريبة في بيتها، بعد أن أجهضت نفسها للتخلص من حملها الذي حملت به قبل وفاة زوجها «المسكين» كما أطلق عليه الأهالي والجيران.

في يوم من أيام مضت، كان ناصر يمر بمحاذاتها، حين بدأت تتراقص متهادية أمامه وغمزته بإغواء وخبث، والتفتت إليه بعد أن تابع سيره، وتجاوزها قائلة:

– شو يا بطل! ما عجبناك؟

وقتها لم يرد ناصر بكلمة لأنه يخشى وقاحتها، تابع خطاه باتجاه المنزل ولم تخرج منه كلمة واحدة، وحين حكى ما فعلته لأمه، ثارت غاضبة ونعتتها بالساقطة، لكنها هدأت بعدها ولم تفكر بالرد عليها، مثل باقي أهالي أم الطين، بل نبهت ابنها أن يتحاشاها ويبعد عن طريقها حين يراها.

لم يخطر ببال ناصر ذلك الحين، أنه سيرى «جميلة المنسية» بعد سنة، وهي تعبر البحر في قارب مطاطي بمحاذاة القارب الذي ينقله إلى جزيرة صغيرة من جزر اليونان، متجهاً في رحلة لجوء مجهولة إلى أراضي أوروبا، وأنها ستغمزه ببسمتها الخبيثة بلا خوف وسط عشرات المسافرين اللاجئين الهاربين من الموت، المصابين بالهلع من ضربات البحر الهائج العمياء.

وقفت في الصباح المبكر سيارة تحمل العم فؤاد وزوجته واثنين من أولاده، فتاة في السادسة عشرة وولد في العاشرة من

عمره، فوجئت أم ناصر بجرس البيت يرن باكراً، نهضت وهي تتمتم خائفة:

– خير إن شاء الله، ربنا يستر.

فاجأتها سلفتها شكرية وابن حميها فؤاد وبنتهما وولدهما عندما دخلا حاملين صرة من الملابس وبضعة أكياس، رحبت بهم والتساؤل يملأ تعابير وجهها، جلس العم فؤاد وزوجته شكرية على الكنبة في غرفة الجلوس، متعبين وقد لاح الإرهاق وملامح عدم النوم على وجوههم جميعاً، سألتهم بخوف حذر:

– أهلاً وسهلاً، إن شا الله خير، طمنوني صار شي معكون؟!

رد فؤاد بنبرة فيها ألم:

– والله هربنا بثيابنا، صارت اشتباكات في منطقتنا وقذائف وانفجارات، طلعنا كلنا من بيوتنا، نحنا وكل أهل الحارة.

أكد جوابه ما كانت تتوقعه أم ناصر، أرادت محاولة التخفيف عنهم وهي تضع يدها على كتف ابنهما الصغير علاء وتشير له ولأخته سلمى أن يجلسا:

– حسبنا الله ونعم الوكيل، الحمد لله على سلامتكن، المهم أنتو بخير، إن شاء الله كم يوم وبترجعوا، الحمد لله أنو ما صابكن مكروه.

والتفتت إليهم تتفقد عدد الأولاد:

– بس وين هبة، مو معكن؟!

ردت شكرية:

– هبة ضلت بحلب، خبرتنا أنها رح تنام عند رفيقتها لأنو

تأخر الوقت وهنن عم يدرسوا، منيح أنها ما كانت موجودة بالبيت ما شافت اللي صار.

مضت «فرحة» وأيقظت ناصر ثم عادت وطلبت منهم أن يبدلوا ثيابهم ويغتسلوا، وحملت الصغير علاء وأجلسته على الكنبة المجاورة بشكل مريح، أعادت عبارات ترحيبها وهي توضب بعض بقايا الليلة الفائتة:

– خدوا راحتكن، إنتو أهل البيت، تصرفوا، أكيد هادا بيتكن مالكن غربا.

دخل ناصر وألقى التحية، قبل عمه وحضنا بعضهما البعض ثم جلس قرب علاء يستمع أخبار ما حصل من العم وزوجته.

حاول ناصر ذلك الصباح التخفيف عن عمه فؤاد وزوجته بما يستطيع من كلمات لم يكن مقتنعاً وقتها أنها تقدم أو تؤخر، حضّرت أم ناصر وشكرية الإفطار وجلسوا يأكلون بأرواح منكمشة، وكأنهم يؤدون مهمة واجبة لم يستطيعوا الأكل بشهية عدا آية وعلاء اللذين كانا جائعين ومتعبين.

أشعل العم فؤاد سيجارة بعد الإفطار وجلس يتابع أخبار التلفزيون ويشرب الشاي مع ناصر بينما مضت زوجته شكرية وولداها إلى غرفة أم ناصر لتبديل ثيابهم وهم يتبادلون تفاصيل ما حصل تلك الليلة والأيام التي سبقتها.

سمع ناصر وعمه فؤاد تفاصيل الأخبار المحلية، أدرك الأول حينها بإحساس داخلي لا يخلو من التشاؤم أن «أم الطين» والقرى المجاورة لها ليست بمنأى عن الاضطرابات التي تحصل، وانتابه

شعور وهو يتمشى في الشارع متجهاً إلى منزل أمين أن الخطر قادم وأن الجميع ينبغي أن يكونوا مستعدين لكل المفاجآت.

كانت الاشتباكات المسلحة قد بدأت أصلاً في أرياف المدن وليس داخل المدن ذاتها، وبدت المناطق المشتعلة وكأنها رقع تتبادل الأدوار، بحيث تسقط رقعة في يد طرف لتعود رقعة أخرى وتصبح بيد طرف آخر، بين "المعارضة المسلحة" و"قوات النظام"، كما شاعت تسمية الأطراف المتنازعة ذلك الحين.

مرت ثلاثة أسابيع غامر فيها طلاب الجامعات في البلدة بالذهاب إلى حلب لتقديم امتحاناتهم وسط اضطرابات واشتباكات خطرة لم يكونوا آمنين فيها.

كانت أم الطين تستقبل "الفاتحين" من فصائل المعارضة المسلحة وكأنها تعلم وتتحضر منذ زمن لدخولهم، هرب خلالها الأشخاص المحسوبون على الحكومة ومنهم من قتل أو اعتقل، أما باقي الأهالي فقد صمتوا مسلمين الأمر لأصحاب البنادق.

فجأة تغير إيقاع الحياة فيها، انتشر التوتر والقلق في زوايا حاراتها وتعرضت للقصف عدة مرات، لم تعد أم الطين بلدة معزولة مسالمة بعيدة عن بؤر الاضطرابات والحروب، إذ دخلت مع الأمكنة الأخرى وأخذت أهمية لم تكن تخطر ببال أحد من أهاليها، كونها تقع في الجهة المفتوحة على تركيا شمالاً.

دخلت الحزن والخوف والدمار من الباب الواسع، دون تمهيد، صارت تتآلف مع الدم والموت وقد ملأ قلبها السواد والغبار الذي علا أوراق أشجارها ونوافذها وعكر سواقيها، حيث بدأت تلوح

علامات الجوع وانقطاع المؤن والتيار الكهربائي والماء مع غلاء مستفحل يوماً بعد يوم، صار اسمها عالمياً يذاع في المحطات الفضائية مثل كل مدن البلاد، ولم تكن سعيدة بذلك وهي ترافق شبح الموت العملاق.

هبط الحزن دفعة واحدة على جميع الأهالي الذين أصبحوا حذرين صامتين معظم الأوقات عدا انتهازييها المتواجدين في كل مكان، المستفيدين من الجوع والموت والعمى لكي يبقوا في دائرة النور، وكذلك كان حزن منى التي لم يتذكرها أحد في معمعة تلك الاضطرابات مع تلوث الماء والهواء وحتى الأرواح، سوى ناصر الذي وجد الشجاعة تلك الأيام، لكي يكسر جميع الحواجز ويزورهم يوماً بعد يوم، بعد أن تلاحم سكان «أم الطين» بحكم الألم المشترك وأصبحوا يتبادلون الزيارات والأحاديث وتفاصيل الحياة دون تحفظ، كجماعة واحدة يربط بينها خطر الموت والخوف والتعب.

صارت لغة النظرات والعيون وحركات الوجه الدقيقة وسيلة تواصل منى وناصر يحمّلانها معاني مختلفة كي يتبادلا أحاسيسهما المشتركة بدلاً من لقاءاتهما الحميمية والملامسات الدافئة في أيام صيفية مضت، حب ووله يفيض وفي رسائل صامتة حذرة تروح وتجيء وهي ترسم خطوطاً عميقة يمتد قوسها من المكان الذي هما فيه إلى أقصى الجبال الصغيرة على أطراف «أم الطين» المختنقة، لا حواجز تقف في وجهها ولا تطالها أيدي الطرفين المتحاربين.

دائرة وجود تنفتح على الداخل الذي لا يفهمه الآخرون، ويبقى حياً يراوغ الأيام كي يجدد تدفق تيار مشاعر تاهت في متاريس

الأيام الأخيرة، بحثاً عن بوابات نجاة.

وكان الاثنان يتوهان في مجاهيل أخرى عند مجيء الليل وهما يحاولان النوم صاعدين في شريط أحلام لا تتوقف، في ظل شجرة صيفية يلتقيان، ويتبادلان العناق والقبل تحت نصف سماء تغطي الأشجار نصفها الآخر، ترتفع حرارة جسديهما ويتوهجان، يقتربان أكثر فأكثر ثم يرتعشان بجنون ويستلقيان عاريين.

ورغم مرور بعض الوقت، لم يألفا الصحو على أصوات الطلقات أو الانفجارات التي توقظ كل الأهالي فزعين.

* * *

بدأ بعض الأهالي مغادرة البلدة إلى مدن أخرى خوفاً من مخاطر مجهولة قادمة، تركوا أراضيهم وبيوتهم حاملين ما يستطيعون من أوراق وثبوتيات عائلية ودراسية، الأمر الذي فاقم شعور الآخرين في «أم الطين» بالحزن والخوف والعجز أمام الأخطار اليومية.

في ذلك الحين، بدأت فكرة الرحيل عن البلدة تكبر في ذهن ناصر، رغم أنه لا يملك أية خطة أو تصور عن كيفية مغادرتها، إلا أنها ظلت تلح حتى صار مسكوناً بالسفر، ظل يقلب الفكرة في نفسه بصمت، إذ بدت له في تلك الآونة صعبة التحقيق، ولم يكن يدرك حينها أن البلدة ستصبح شبه خالية يوماً ما.

كانت أم الطين ترفرف بجناحيها الغباريين تحت وطأة النزاعات والموت، حتى تمكن طرف من أطراف المعارضة من الاستيلاء عليها وجعلها تحت سيطرته، رغم أن وضعاً كهذا يبقى أمراً معلقاً

لأن انتزاع المناطق بعد السيطرة عليها من طرف ما يبقى مسألة واردة واحتمالاً مفتوحاً.

أعقب سيطرة المعارضة المسلحة التي لم يعد الناس قادرين على تمييز أهدافها لكثرة الفصائل آنذاك، نزوحاً مستمراً لعائلات بكاملها عن «أم الطين» خوفاً من وقوعها تحت الحصار، إذ منذ ذلك الحين بدأ الأهالي يعانون من قلة المواد الغذائية وارتفاع الأسعار وتراجع الخدمات، إضافة إلى الخوف المستمر من الاشتباكات وشبح الموت المخيم.

في فصل النزوح هذا، وقع ناصر في حيرة مربكة لأنه لا يستطيع ترتيب مغادرة أم الطين مع أمه وعمه وعائلته دون أن ترافقه منى وأهلها، وأحس بصعوبة في تنسيق الأمر مع أهلها، أمها وأختها وأخيها، لأن القرار يعود إلى أبيها في ليبيا التي كانت لا تزال غير مستقرة، وعمها فريد، وأخوالها المتناثرين في حلب ومدن أخرى، شعر بذلك إثر زيارة قام بها لمنى وأهلها، حيث دار حوار بينه وبين أمها «أم ماهر» بخصوص ضرورة الخروج من البلدة بعد أن أصبحت مهددة بالحصار ومعرضة للخطر الدائم، تحدث أبوها مع أخيه عبر الإنترنت ولم يكن آنذاك قادراً على اتخاذ قرار سريع لأن عليه أن يؤمن لهم شقة يقيمون فيها في حلب وكان الرد سيأتيه بعد بضعة شهور لأن أخاه فريد قام بتأجير منزل اشتراه الأب نادر قبل سنتين مما وفره خلال اغترابه في ليبيا وطلب من الأخير استثماره وإعطاء عائداته إلى عائلته في البلدة، لم يكن وضع نادر مستقراً في ليبيا كذلك، لكنه اضطر للبقاء فيها رغم كل

شيء، بعد الاضطرابات التي شهدتها سوريا منذ سنة ونيف، كانت نتائج حوار ناصر مع أم ماهر معلقة إلى أن يخلي المستأجرون الشقة الصغيرة في حلب بعد شهور، لم يكن ممكناً لأحد التكهن بما سيحصل آنذاك، حتى لو كان الأمر يخص يوماً أو يومين لاحقين.

ونتيجة لمداولات أم ناصر مع ابن حميها فؤاد وزوجته، قررت النزول إلى حلب بصحبة ابنها والإقامة عند أختها نجوى، ريثما يرى العم ما سيحصل في تلك الرقعة المشتعلة من حي «الميدان» حيث كان يسكن، متوقعاً آنذاك أن الأمر لن يستغرق سوى شهور قليلة ليعود مع عائلته إلى شقته ويستقر ثانية، الأمر الذي أثار ضيق ناصر حد الاختناق، متذكراً ذلك الصيف الذي ذهب فيه مع أمه وهو في السادسة من العمر لزيارة خالته ذاتها وكاد يجن خلالها بسبب بعده عن منى، ذلك حدث عندما كان طفلاً، فكيف سيكون الأمر بعد أن أصبح شاباً تعمق في حبه لها، وتحول الحب إلى لقاءات وقبلات وملامسات وجنس، حتى صارت منى جزءاً منه يعذبه انفصالها عنه، رغم أن المسافة لا تتجاوز المئة متر بين بيته وبيتها، ولسوء الحظ، كما اعتبر، أن الزمان دار دورته ليصل إلى النقطة التي تركها وراءه وما كان في اعتقاده أنها ستتكرر ثانية.

وإلى أن حانت لحظة خروجهما من «أم الطين» هو وأمه، عاش ناصر لحظات طالت من التفكير اليائس بإيجاد حل يحول دون ابتعاده عن حبه، ومن الإحساس باختناق مضاعف، الأول حصار خارجي تفرضه المعارضة المسلحة، والثاني داخلي تفرضه

حتمية بعده عن منى التي لم يعد لديها خيار أو قدرة على اتخاذ أي قرار، دار في الأمكنة، في البيت من غرفة لأخرى وفي الشوارع الحذرة بين بيته وبيت صديقه أمين دون جدوى، حلقت به الأفكار المجنونة من فضاء إلى آخر ومن شمال إلى جنوب دون أن يصل إلى حل يرضيه، ظل أياماً يسهر الليل ولا ينام في النهار وهو يدور في الزوايا دون وعي، بحيث لم يعد يبالي بأسئلة أمه التي احتارت لأمره، ولم يعد يحس بما حوله كأنه كائن معزول عن كل شيء عدا الجهة المستحيلة التي تفضي إلى بيت منى التي شلتها بدورها الحيرة واليأس.

في الصباح الباكر خرجت أم ناصر تحمل حقيبة وأكياساً تساعدها فيها شكرية ثم خرج ناصر حاملاً الحقيبة الأكبر، كان البرد شديداً في ساعات الصباح المبكرة تلك، لحق بهم العم فؤاد الذي كان يرتدي معطفه الأسود، نظر ناصر لحظة خروجه إلى باب منزل منى الموصد، ود لو يستطيع العودة إلى هناك، أن يفتح الباب ويدخل، يذهب للنوم بجانب منى على السرير دون اعتراض أحد من أهلها كأنه زوجها الشرعي، رافقهما العم فؤاد وزوجته إلى ساحة قريبة، من هناك، كانت نظرات ناصر تستطيع رصد باب المنزل، وحين اقتربت حافلة النقل الذاهبة إلى المدينة، ظهرت منى فجأة، ووقفت جامدة من مسافة بعيدة، عرف ناصر وحده أنها تبكي ولوحت له بتشنج مودعة، ولم تدخل البيت، بل لازمت العتبة وهي ترتجف حد الانهيار، رنت له عبر هاتفها النقال ثم قطعت الاتصال، وأعادت العملية مرات عديدة قبل أن يصل إلى حلب.

وصلته خلال رحلته القصيرة إلى المدينة رسالة قصيرة منها تقول:

«أحبك، لنبق على اتصال مستمر، بانتظارك».

قرأ الرسالة وهو يداري هاتفه النقال عن عيون أمه التي أصابتها الحيرة حينها، إذ توقعت أن يضطرب ناصر أثناء خروجه من أم الطين، لأنها تعرف أكثر من الجميع مدى تعلق ابنها بها منذ صغره، لكنه لم يبد أي اضطراب أو حركة، خرج بصمت مطيعاً ضربات القدر، ولم تصدر عنه كلمة بخصوص منى أو ماهر أو أمهما زينب، فقالت في محاولة منها لجس نبضه وتذكيره:

- هل ودعت آل عبد الحق البارحة؟

وبدرت عنها نظرات تقيس فيها ردة فعله، أجابها باستسلام:

- أكيد، رحت البارحة، زرتهم وودعتهم في السادسة مساء.

أدركت أم ناصر من حركة عينيه اللتين توترتا وهو يخفي انفعاله أن ابنها يداري مشاعره أمامها رغم تأثره الشديد ويتحاشى أن يبدو ذلك عليه، حتى في كلماته وإيقاعها، افتعل هدوءاً لكنه لم ينجح أمام عيني أمه الكاشفتين، إذ إن مبالغته في تمثيل الهدوء قلبت الأمر بحيث بدا على عكس ما يريد.

تناست «فرحة» ارتباكه المضمر وحولت الحديث إلى موضوع آخر:

- إن شا الله ما تطول غيبتنا ونرجع لبيتنا وأهلنا.

هز ناصر رأسه قائلاً:

- إن شاء الله.

رغم أنه لم يكن مقتنعاً أن الأمر لن يطول، كان الأكثر قلقاً من احتمالات كارثة الحرب المفتوحة على كل شيء، انتبه إلى دموع أمه التي كانت تسيل بصمت وهي تشيح بوجهها عنه، أدرك مدى حزنها وكان على يقين أنها مثله تتذكر كم جلست في ظل شجرات أم الطين، وكم مشت في حقولها مع أبيه، وكم سهرت في مساءاتها الصافية تتبادل الأحاديث مع الأقارب والجيران، عرف أنها تركت وراءها أياماً ولحظات لا يمكن محوها بآلامها وفرحها، أدرك حينها أن المرارة تكبر متمادية أعمق من كل مرارات الأيام التي مضت، وأنها ربما تكون حتى الآن مرارة البداية.

بعد أن غابت الحافلة عن أنظار منى في وقت مبكر من الصباح البارد، دخلت بهدوء ثم أغلقت باب غرفتها وارتمت على سريرها تبكي بصوت مكتوم كي لا توقظ أختها ليلى، أحست أن الألم لم يأت هذه المرة من الأهل أو الأقارب والأصدقاء، الألم الذي خشيت أن يتسبب به رفض الأخرين لحبها هي وناصر، وإنما جاء من خارج دائرة البلدة كلها، أتى من غياهب الجهات والأزمنة والتوقعات، جاء على هيئة نزوج جماعي قسري، وموت وتهديد بالقتل أو الجوع، سجن كبير مفتوح، للأحياء فيه حرية الخيار، البقاء فيه أو مغادرته إلى سجن أكبر مليء بأزمات وآلام مشابهة.

للمرة الأولى في حياتها تحس بما لا يعتريه الشك بثقل الحياة ومفاجآتها التي لا تترك مساحة للاختيار أو الرفض، مساحة صغيرة بحجم براري أم الطين الصغيرة تحولت إلى كوكب واسع يصعب

تحمله بالشكل الذي جرت فيه الأمور، منتهكة بساطة الأحياء وأحلامهم الصغيرة.

أمسكت رأسها بيديها تضرب بكفيها عليه كطفل محروم يبدي احتجاجه بطريقته التي لا يسمعها أحد.

حين وصلت بهما الحافلة إلى المدينة، تلفت ناصر حوله وهو يراقب الأبنية العالية والأرصفة والسيارات التي تعبر هنا وهناك، وفي لحظة خاطفة ضاق به المكان وأحس باختناق جعل الساحات الواسعة والفضاء المفتوح لحلب، سجناً صغيراً لا يزيد عن متر بمتر بسقف منخفض يطبق على صدره ويحرمه إمكانية التنفس، وقف مع أمه على رصيف يتنظران سيارة أجرة تقلهما إلى بيت خالته نجوى، وعلى عتبة الرصيف شتتته رغبة العودة إلى أم الطين، وضع قدماً هناك وأخرى هنا، في المدينة، ذهب إلى البلدة فرآها ضيقة مليئة باحتمالات الموت والخوف، وعاد إلى المدينة فتناثرت روحه من الغربة، ظل معلقاً يتأرجح، إلى أن لكزته أمه وهي تنبهه أن يصعد التكسي التي وقف ينتظرها وهو سارح كدمية مسرح العرائس.

لاح التعب والتوتر على وجه نجوى التي استقبلت أختها وابنها بحرارة كأن عشرات السنين فصلت بين زيارتهما الأخيرة لها في ذلك الصيف وبين هذه الزيارة، أدركت أختها فرحة أن الأوضاع في حلب صعبة كما سمعت أخبارها من القادمين إلى «أم الطين»، إلا أنها لمست مدى صعوبتها حين حكت لهما أختها نجوى عن بدء انقطاع الكهرباء والماء وارتفاع الأسعار، فضلاً عن الانفجارات

والأحداث اليومية المفزعة التي بدأت تنذر ببداية الخراب، إذ بدأ الناس يهاجرون إلى لبنان وتركيا ومصر خوفاً من الأوضاع التي تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وأخبرتها بتفصيل أكير عن عذابات الحياة اليومية لتأمين المحروقات والخبز والاحتياجات الأخرى في ظل انعدام الأمن والخوف الدائم والموت المتربص.

في تلك اللحظة، أحس ناصر وهو يستمع لحديث خالته بعدم قدرته على تحريك قدميه ويديه، تحت الضغط النفسي الذي عاشه بصمت وكان تنفسه يصعب أكثر فأكثر، حتى انتبهت أمه إلى الصوت الذي يخرج من رئتيه بصعوبة فسألته على الفور:

– مزعوج من شي ناصر؟!

فرد مدارياً:

– لا أبداً، يبدو أني رح أنصاب بالزكام، أنفي مسدود.

* * *

حين مر الدرويش أحمد بحاجز للفصيل المسلح في البلدة ليلاً، انطلقت الأصوات تصرخ فيه طالبة منه عدم الحركة والجلوس على الأرض، وخرجت رشقة رصاص تحذيرية، توقف في مكانه وهو يتمتم الأدعية ورفع يديه إلى الأعلى، ركض إليه عنصران واقتربا منه وهما يسلطان الأضواء عليه، إلى أن لاحظا لحيته الطويلة وأسماله المهترئة فسألاه من هو وإلى أين يذهب، ثم أدركا أنه درويش من خلال كلامه ومظهره الذي لا يخفى على أحد فهدأا وسمحا له بالذهاب محذرين إياه من الخروج في وقت متأخر، لكن المنازل القريبة من مكان العناصر المسلحة التي سمع أهلها صوت

الدرويش والرصاص ظنوا أنه قتل ولم يتأكدوا أنه ما زال حياً حتى صباح اليوم التالي حين خرجوا متجهين إلى بيته ووجدوه ينشر خرقاً مغسولة على حبل ممدود إلى العمود المقابل للباب، سألوه ماذا حصل، فأجاب:

– الله يلطف فينا.

وصمت.

في عصر ذلك اليوم ذهب الدرويش أحمد لزيارة أهل منى في البيت، رحبت به زينب وطلبت منه الدخول، ثم نهضت منى لتحضر له شيئاً يشربه، حين وضعت الأكواب وصبت الشاي، وقعت نظرات منى على نظرات الشيخ، كانت عيناه مكحلتين ذات نظرات حادة وقلقة، إلا أن خجله ونظره المستمر إلى قدميه، كان يكسر حدتها ويجعلها موحية بجمل صامتة، أحست منى أن زيارته هذه هي لمعرفة أحوالها بعد سفر ناصر، خصوصاً بعد أن تطور الحديث بينه وبين أمها وأصبح أكثر مرونة ومودة، إذ أكد لها أنهم (أو أنها) أكثر أولوية بزيارات الاطمئنان لأنهم يعيشون بعيداً عن أبي ماهر رب الأسرة، وأنهم بلا رجل كبير يرعى شؤونهم.

قبل أن ينهض، مد الدرويش أحمد يده وناول زينب ورقة مطوية، قال لها:

– إنها حجاب (رقية) لدفع الأذى والبلاء عنها وعن أولادها وطلب منها الاحتفاظ به معلقاً بدبوس في ثوبها.

ثم ودعهم ومضى.

ابتسمت أم ماهر بعد ذهابه وهي تنظر إلى الحجاب، وعلقت:

- خسارة هالرجال، والله قلبه طيب وبحب الخير للناس كلهن.

ثم خبأته في جيبها.

وصلت دفعة نقود للأسرة من الأب نادر في ليبيا ورغم أنه زاد حجم المبلغ إلا أن ذلك لم يمنع إحساسهم بالقلق والتوتر وعدم الاستقرار، رغم تواصله شبه اليومي معهم، كانوا جميعاً بحاجة إلى من يقرر فيما إذا كان الوضع يحتم ضرورة المغادرة بأسرع وقت أو التمهل قليلاً، ولكن هذا القرار يحتاج إلى شخص يعيش معهم ويرى ما يحصل في أم الطين يومياً، لهذا عاشوا بانتظار مضي الشهور التي يستطيعون بعد انتهائها مغادرة البلدة، يائسين، لأن أي ظرف طارئ لن يكون بمقدور المرء فيه الانتظار بضعة شهور، بل مؤكد أنه سيكون أمراً إسعافياً يتخذ القرار فيه خلال لحظات وإلا ستكون النتيجة إما الموت أو التشرد و الجوع.

في تلك الأيام تعرض أبو أمين للإهانات بعد أن وشى به جاره للعناصر المسلحة المتدينة في البلدة بتعاطيه المشروبات الكحولية، أخرج الموظف أحمد فاتح (أبو أمين) من منزله وجُرّد من ثيابه عدا لباسه الداخلي وركض في الشوارع شبه عارٍ بعد أن تعرض للإهانات في المحرس الذي بناه عناصر الفصيل على ناصية الشارع، حيث كانوا يحرسون، خرج أثناءها الدرويش أحمد إلى الساحة لا يخفي غضبه عن الآخرين، وهو يطلق عباراته المعروفة:

- الله على الظالم، الله كبير، ولو شاء ربك لهدى الناس جميعاً.

وهو يضرب بعصاه الأرض، ومن المؤكد أن رجال الفصيل المسلح قد فسروا كلامه على أنه تشهير بالسكير وتحذير له، ولم يخطر لهم أنه كان يقصدهم كما أسر بذلك للبقال عبد الودود الذي انتابته نوبة جنونية من الضحك حين سمعه يوضح ما قصد، وأكمل حديثه مع البقال قائلاً:

– عندما لا تقدر على الظالم، ارمه بكلمات تلعنه فيها ولكن قل كلمات حمالة أوجه، حتى لا يفهم قصدك.

وقهقه وهو يشرب الشاي.

حين أتى شهر آذار وعم الدفء الربيعي أنحاء البلدة، خرجت منى وماهر يتمشيان في الحقول التي طالت أغصان أشجارها بشكل فوضوي وبدت الأرض مقفرة بلا زرع، نمت فيها نباتات عشوائية وأعشاب ترابية اللون، كانت تتبادل مع أخيها أحاديث الذكريات في سنوات مضت، كيف كانت حياتهم قبل الحرب وكيف خُنقت وحوصرت هذه الأيام، مرت منى بالشجرة التي طالما جلست تحت فيئها مع ناصر وشهدت مغازلاته لها وقبلهما وملامستهما الحارة المجنونة، أدارت وجهها كي لا يزيدها المشهد حسرة وألماً، ومع حفيف تمايل براعم الأوراق الخضراء أحست منى وكأنها تستوقفها لتحكي أشياء كثيرة، تمايلت نحو اليمين والشمال وانحنت كأنها ترسم ذلها ثم عادت وارتفعت بفعل هبة هواء إلى الأعلى طالبة منها ما يشبه الكبرياء، هكذا كانت منى تقرأ حركة الأغصان وتضفي معاني منها على حركاتها الناعمة الصامتة في حوار لغته تراقص لا يتوقف.

كانت تمشي بخطوات بطيئة وكأنها في حديث حقيقي لكن صامت، ترتسم معانيه داخل روحها وهي تبتسم دون أن تدري، وتعبس حين تنقطع الإيماءات.

* * *

أصبح الطريق الدولي الواصل بين حلب والمدن الأخرى حتى دمشق خطراً، بدأت تتوقف رحلات المسافرين عبره، كما تعرضت خطوط السكك الحديدية لتفجيرات صغيرة طالت مناطق محدودة فيها فتوقفت القطارات عبر المدن، حدث ذلك منذ البدايات، قبل أن تصل الاشتباكات إلى الطريق الدولية، وكأن رحلات الخطوط الحديدية كانت لها الأولية فيما يمارسه الآخرون لإكمال الخراب الكبير، مع بقاء المواصلات بين القرى المجاورة لحلب سالكة بأمان نسبي حيث نصبت الحواجز على طول طرقاتها حسب خارطة الهيمنة المتغيرة يومياً.

تلقى ناصر رسائل متلاحقة عبر هاتفه النقال من منى وهي تتخبط في تعابيرها، أكثر ضياعاً من أي زمن مضى منذ بداية الأزمة، تلوم فيها ناصر وتعتب عليه، ثم تبدي قلقها حيال الأيام القادمة، وأخرى تسأله فيها ماذا يخطط لحياتهما، أو هل ما زال يحبها، أفرحت الرسائل ناصر في البداية لإحساسه بأن خيطاً من التواصل ما زال قائماً بينه وبين منى حتى لو بدا واهياً، ثم انهالت التساؤلات القلقة والتفكير بالمجهول والخوف من الأيام القادمة الغامضة تنخر روحه وعقله، سارع فأرسل لها رسالة كتب فيها:

«حبيبتي منى، لم أنسك، ما زلت كما تعرفينني، لكن ما جرى

فوق إرادتي ورغماً عني، أفكر فيك دائماً، وسأجد حلاً يجمعنا معا، أحبك».

ظل ناصر بعدها مضطرباً ساهماً لا يستقر في مكان، خرج في تلك الفترة يتمشى في شوارع الميدان كي يبقى بعيداً عن أنظار أمه، يعود في وقت متأخر من غروب الشمس ويدخل غرفة النوم بحجة الراحة ويبقى جامداً لا يرد على أسئلة ابن خالته الصغير كريم إلا بردود قصيرة يرميها كي يسكته فقط، دب الأرق فيه وكان الليل المليء بأصوات الاشتباكات طويلاً في ساعات صحوه الطويلة، تشرق الشمس قبل أن يغرق في النوم مشوشاً متعباً.

في صباح أحد أيام نيسان المشرقة، نهض وأخبر أمه أنه ذاهب إلى «أم الطين» في زيارة قصيرة، لكنها منعته وهي تؤكد عليه مخاطر السفر إلى هناك، ورمت الأيمان كي تجعله يتراجع عن قراره، إلا أنه بقي مصراً إلى أن تدخلت خالته وطلبت من أمه وهي تطمئنها أن تتركه يذهب على أن يعود في اليوم ذاته، هدأت أختها «فرحة» مرتبكة غير راضية لكنها استسلمت أمام رجاء الاثنين.

توجه ناصر إلى البلدة، بدا له الطريق حينها وكأنه انقلب عما كان عليه منذ أشهر قليلة، إذ امتلأ بالحواجز العسكرية وأكياس الرمل والإطارات المطاطية، وكانت الحواجز تطلب أحياناً اسماً بين الرجال لينزل ويتم التأكد من شخصيته لأسباب مجهولة ثم يعود فيصعد إلى الحافلة وسط الركاب الذين لا يستطيعون إخفاء خوفهم.

حين وصل البلدة ونزل من الحافلة، أدهشه أنها كانت خالية إلا من قلة من الرجال والأولاد، وبدت له كأنها مهجورة، وكان عناصر الفيصل المسلح يتجولون فيها ذهاباً وإياباً ويتحركون كما كان يفعل أهل البلدة ذاتهم، بل كانوا مع سلطة السلاح وسطوته أكثر ثقة وراحة.

أول شخص رآه ناصر يلوح له من بعيد هو الشيخ أحمد الذي أشار له بيده وتوجه نحوه، ألقى تحية من تحت رداء رأسه الأبيض وهو ينظر بنصف إغماضة وسأله عن أحواله وأحوال حلب، رد ناصر باقتضاب خجول ثم تابع الدرويش حديثه:

– لماذا تركتم البلدة ولمن؟! إذا كان جميع الناس سيغادرون، فمن سيبقى في البلد؟

كان الدرويش لا يتكلم سوى اللغة العربية الفصحى كباقي الشيوخ الذين يقتدون بالصحابة وتراثهم، رد ناصر مرتبكاً:

– لا يا شيخ أحمد، رح نرجع بس لتخف الأزمة شوي، نحنا ما ممكن نترك بلدنا أو نتخلى عنها.

هز الشيخ رأسه وسأله:

– إلى أين أنت ذاهب الآن؟

رد ناصر:

– إلى بيت عمي فؤاد، وممكن أزور أصدقائي.

أجاب بنظرات لا تخلو من معنى:

– إيه، بأمان الله، دعني أراك قبل أن ترجع إلى حلب.

– سأراك إن شاء الله يا عم.

توجه ناصر على الفور وبقلب يخفق وكأنه سيخرج من صدره، إلى بيت أهل منى، رن الجرس وابتعد خطوة وهو يشعر بالارتباك، فتحت زينب الباب وفرحت لرؤيته ثانية، أشارت إليه أن يدخل، دخل ناصر بخطوات مترددة خجلة يجول بطرف عينيه بحثاً عن منى، سارعت الأخيرة إلى الغرفة ولحقها أخوها ماهر وليلى الصغيرة، احمر وجهها وهي تحييه وتلعثمت بالكلام في حين احتضنه ماهر بحرارة ومحبة، وجلس الجميع، كان ناصر يرتجف منفعلاً، حتى بدا ذلك عليه حين تناول كأس الشاي الذي قدمته له منى تحت أنظار أمها زينب التي سألته عن أمه وخالته وأوضاع حلب.

– أمي وخالتي بخير بس هالظروف شردتنا يا خالة وحلب أوضاعها متوترة جداً.

كانت منى تتابع الحديث بصمت، ردت أمها:

– الله يحسن الأوضاع ويلطف فينا وبأولادنا.

بعد دقائق تذرع ناصر بالذهاب لغسل وجهه ويديه، مضى معه ماهر إلى المغسلة الصغيرة آخر الممر، وحين دخل الأخير الغرفة، لوهلة صغيرة كانت منى قد ظهرت في الممر، أمسك بيدها وضغط عليها بقوة:

– بحبك، لا تخافي ما رح أتخلى عنك، اليوم ببعتلك رسائل في الليل.

ثم سحب يده بسرعة قبل أن يعود ماهر من غرفته، وتوجه الاثنان إلى غرفة الجلوس، انتبهت زينب إلى حركة منى وذهابها

السريع إلى الممر حيث يقف ناصر أمام المرآة لكنها سألته حين دخل الغرفة مع ماهر:

- رح تنام بالبلد ولا مسافر؟!

رد متلعثماً وهو يشعر بوجود منى خلفه:

- لا ما رح نام، لازم أرجع مشان أمي، أصرت أنو أرجع بنفس اليوم، خايفة علي.

ردت:

- خليك نام عنا اليوم وبكرا الصبح بتسافر؟

فرحت منى للحظة إلى أن سمعت رده:

- لا أستطيع، أمي خايفة من الطريق والأحداث، بصعوبة كبيرة حتى وافقت أجي لهون بس من الصبح حتى المساء.

بدأ ناصر يحكي عن هواجسه ولوعة مغادرة «أم الطين» وتشتته هو وأمه، وحاول في حديثه أن يوصل ما ينوي القيام به لمنى وما يفكر فيه كحل للواقع الذي يعيشونه جميعاً، وكان في حديثه يشمل العائلتين معاً في سعيه لاقتراح حل مؤقت للأزمة أمام زينب وأولادها، إلا أنها أكدت له أن قرارهم متعلق بقرار زوجها نادر في ليبيا، وعرف منها ذلك الحين أنهم سيذهبون إلى حلب، حين يسلم المستأجرون الشقة لهم بعد بضعة شهور، إلا أنه علق قائلاً:

- لكن المشكلة أنو نحنا بحاجة أحياناً ناخد قرار سريع وبنفس اللحظة لأنو ما منعرف شو رح يصير.

أكدت زينب صحة كلامه لكنها صمتت تعبيراً عن عدم قدرتها

على التصرف إلا بقرار من الأب نادر، عرف ناصر أن شهوراً قليلة تفصله عن اللقاء بمنى ثانية فأردف:

- إن شاء الله منرجع منلتقي قريباً بانتظار الفرج.

موجهاً كلامه بشكل غير مباشر إلى منى، التي كانت تبذل كل جهدها كي تبدو طبيعية ولا تبدر عنها حركة تلفت أنظار أمها أو أخيها ماهر.

قبل أن يخرج ناصر مع ماهر ليتمشيا، حذرتهما الأم من عناصر الفصيل المسلح وأكدت عليهما ألا يحتكا بأحد وألا يتأخرا، عاد ناصر بدوره واختار أن يسلك طريق الحقل المعروف الذي صار محملاً بذكرى جميلة له ولمنى، فمر بالجدول والأشجار ذاتها وأصغى باستمتاع لزقزقة العصافير عصراً، أحس لحظتها أن هذا المكان أصبح مزاراً مقدساً لاثنين يثير فيهما الرعشات لكنهما يجهلان ما تخبئه الأيام لهما، ولم يدرك ماهر بدوره سر اختيار أخته للمكان ذاته هي وناصر في مشاوريهما المنفصلة.

قبل أن يصعد ناصر الحافلة عائداً إلى المدينة، ناداه الدرويش أحمد من بعيد وأشار له أن ينتظر ثم أسرع إليه وهو يميل كعادته يميناً وشمالاً، حين وصل إليه حياه وأسر في أذنه بصوت خفيض:

- وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم يا بني، لا تعترض على شيء كتبه الله عليك.

سأله ناصر مستفسراً:

- أكره ماذا يا شيخ؟ ولماذا؟

رد بنظرات فيها تكتم خبيث من تحت غطاء رأسه الأبيض:

– أن تكره ما يحصل، ما يحدث الآن لنا جميعا!

هز ناصر رأسه مؤكداً ثم مد الشيخ يده وناوله ورقة مطوية مغلفة بطبقة نايلون وقال له مودعاً:

– بلغ سلامي لأمك وقل لها «هذه خرزة زرقاء» لكِ من الشيخ أحمد، حافظي عليها، رافقتك السلامة يا بني.

واستدار عائداً دون أن يلتفت، تاركاً ناصر يتساءل حول ما قصده الشيخ بالشيء الذي يكرهه وهو خير له.

حين وصل ناصر إلى مركز المدينة في طريقه إلى حي الميدان، انتبه إلى تحول المدينة إلى مناطق نفوذ وتمركز لقوات الجيش في مراكز سيادية فيها وتمركز قوات المعارضة في قسمها الشرقي، تعرض للتفتيش عدة مرات وأوقفته حواجز كثيرة طلبت بطاقته الشخصية، وقبل أن يهبط الليل، كان قد وصل إلى الشارع الضيق المفضي إلى منزل خالته، حين دخل الشقة استقبلته أمه بفرح كعائد من حرب، ثم جلس يتناول قليلاً من الطعام حضرته له خالته نجوى، حين انتهى مد يده إلى جيبه وأخرج منها بحركة سريعة ما أعطاه إياه الشيخ، ناوله لأمه قائلاً:

– هذه خرزة زرقاء لكِ من الشيخ أحمد، قال أن تحافظي عليها.

دهشت أمه «فرحة» عندما سمعت الاسم، أعادها ذلك إلى أيام مضت منذ حوالي العشرين سنة، أمسكت أمه بها وضمتها إلى صدرها بحرارة وشعور بالطمأنينة، لم يفهم ناصر ما هي الخرزة الزرقاء ولماذا ضمتها أمه إلى صدرها سعيدة.

ابتسمت خالته نجوى وهي تشاهد أختها تفعل ذلك، نظر ناصر بتساؤل ثم توجه إلى غرفة النوم ليستريح.

في صباح اليوم التالي توجه إلى الجامعة كي يطلع على برنامج الفصل الثاني الذي فاته منه شهران، وأدرك ذلك الحين أنه لا يعيش حياة طالب جامعي، فكل ما يفعله، خصوصاً بعد رسوبه في أغلب مواد الفصل الأول عدا مادة واحدة، يؤكد درجة سوء وضعه الدراسي وانفصاله التام عن كليته، فاجأ ناصر انكماش عدد الطلاب في الحرم الجامعي واضطراب الدوام في الفروع المختلفة وتوتر الجو العام هناك، انتبه إلى أن حركة الطلاب تفتقد إلى الحيوية والنشاط الفرح الذي كان يلف أجواء الكليات، ولاحظ كذلك عدم وجود شلل أو تجمعات للطلاب والطالبات الذين كانت تضج بهم ساحاتها وحدائقها وقاعاتها.

خيم جو عام من الخمول والتحفظ على معظم فعاليتها وناسها الذين كانوا يتحركون بحذر وصمت ململمين بقايا المحاضرات وهم يحاولون استدراك ما فاتهم في الشهور الطويلة الماضية.

فهمت أم ناصر أن الدرويش أحمد أرسل إليها التعويذة لكي تعلقها في خصر ابنها ناصر أينما ذهب لتدرأ عنه المخاطر وسوء الحظ، حين عاد الأخير من الجامعة هرعت إليه وهي تحملها مربوطة بدبوس لتعلقها بقميصه الداخلي، وحاول ناصر أن يتملص رافضاً أن يضعها، إلا أنها أقسمت ألا تكلمه إذا لم يلبِ رغبتها، فرضخ لإلحاحها وهو يبتسم.

بدأت بعض القرى والمناطق المتاخمة للحدود التركية تنزح

عبر الشريط الحدودي إلى داخل تركيا، دخل أهل بعض البلدات إلى مدينة غازي عنتاب وكلس، ثم تتالت الهجرات والنزوح من المناطق الشمالية حتى وصلت حلب وقرى أخرى، إذ بدأ تدفق بعض العائلات والشبان إليها ولم تبد السلطات التركية آنذاك أي اعتراضات على دخول السوريين حيث استطاع بعضهم تأمين عمل واستئجار شقق صغيرة للسكن، وتلقى آخرون المساعدات، عرف الناس في حلب والمدن الأخرى أن النزوح إلى الشمال التركي أصبح أمراً ممكناً فبدأت موجات الهجرة على أمل الوصول عبرها إلى أوروبا وتقديم طلبات اللجوء الإنساني بعد أن سمعوا عن بعض الحالات الفردية التي نجحت بالوصول وحصلت على اللجوء هناك.

بعد أن سمع نادر عبد الحق عن ازدياد الأوضاع الأمنية سوءاً في سوريا عبر قنوات التلفزيون المختلفة، سارع في الطلب من أخيه فريد الذي يقيم في حلب أن يحضر عائلته من أم الطين لتقيم مع عائلته وأخبره أنه سيرسل نفقات العائلة ريثما يحين موعد انتهاء عقد الإيجار ويخلي المستأجرون منزله.

لم يمانع العم فريد من مجيء أولاد أخيه وزوجته للإقامة مع عائلته، لهذا أخبر زينب أن تحضر نفسها مع الأولاد للنزول إلى حلب بناء على طلب زوجها نادر.

بدأت زينب ومنى تحضران الأمتعة اللازمة لمغادرة البلدة بمساعدة ماهر وليلى اللذين لم يكونا سعيدين بالخبر على عكس منى التي طيرتها الفرحة وأحست وكأنها ستخرج من سجن دام طويلاً وتلتقي بناصر هناك في فترات متقاربة، توقعت زينب ألا

يكون الخبر سعيداً للأولاد لكنها انتبهت أن منى توضب الأغراض بحيوية ونشاط ومزاج عالٍ خلافاً لأخيها ماهر وأختها ليلى اللذين سيطر عليهما الإحباط والمزاج السيء.

سارعت منى وأرسلت رسالة عبر هاتفها النقال تخبر ناصر بقرار أبيها وقدومهم للعيش في حلب عند عمها فريد في حي الميرديان، الأمر الذي أخرج ناصر من صمته وعزلته وجعله أمام أمه وخالته يعيش حالة نشاط وفرح.

في صباح اليوم التالي توجهت العائلة في وقت مبكر إلى الحافلة التي ستقلهم إلى المدينة حاملين أمتعتهم ولوازمهم الضرورية، قبل ساعة من بدء القصف المدفعي على أم الطين.

ففي الوقت الذي غادرت فيه عائلة منى البلدة، وقعت إصابات بليغة بين الأهالي أثناء القصف المدفعي المكثف عليها، إذ جرح أبو أمين وزوجته جروحاً خطرة، وتوفي أفراد من بعض العائلات تحت تأثير الجدران التي انهارت فوقهم أو شظايا القذائف المتطايرة، نقل المصابون على إثرها إلى مستشفيات صغيرة غير مجهزة مع نقص كبير في الكادر الطبي المختص، بعد أن أسعف أحمد فاتح (أبو أمين) إلى المشفى الجامعي هو وزوجته، خضع الاثنان لعمل جراحي لمعالجة الكسور والجروح الخطرة التي أصيبا بها، في جو يشبه القيامة بزحمة المصابين والجرحى الذين أصيبوا في اشتباكات جرت في مناطق أخرى.

بعد أن توقف القصف وعلا الغبار أجواء أم الطين، ومع خروج الأهالي لتفقد ذويهم والاطمئنان على جيرانهم والبحث بين

الأنقاض، توقع عبد الودود البقال، مع الخراب الذي انتشر قريباً من بيت الدرويش أحمد وعدم خروجه بين الناس، أنه أصيب أو مات، توجه سريعاً إلى بيته ليطمئن عليه، دخل بعد أن ناداه ولم يجب فاتحاً الباب بقوة، إلا أنه أصيب بالدهشة حين رآه جالساً على سريره المتسخ هادئاً يقرأ القرآن الكريم.

حياه فلم يجب، حتى أنهى تلاوة السورة والتفت إليه يسأله عن أخباره وكأنه لم يشهد القصف ولم يسمع دوي الانفجارات المرعب، سأله البقال عبد الودود بدهشة واستغراب:

– ما سمعت صوت الانفجارات والقصف شيخ أحمد؟

فأجاب بهدوء:

– نعم سمعت كل شيء، سأخرج الآن لأرى، لكن ما باليد حيلة، حين سنموت، سنموت دون أي اعتراض لأن ساعتنا تكون قد حانت، لا شيء يمنع قضاء الله.

نهض الاثنان وخرجا، ولدى مشاهدة الخراب الذي أصاب البيوت عاد الشيخ إلى الطبيعة التي يعرفها الجميع عن الدرويش أحمد، ركض فاتحاً ذراعيه ودار في مكانه وهو يصرخ:

– إنها القيامة، حان الموعد يا ناس، لعن الله هذه المكنات الوسخة التي تنشر الدمار، توبوا إلى الله وارجعوا إليه، حانت الساعة، القيامة قادمة على الأبواب.

حاول البقال عبد الودود تهدئته لكنه ظل هكذا، ومضى من بيت إلى بيت يتفقد الأهالي ويستفسر عن الإصابات كالمجنون، دون أن ينسى عصاه التي كان يضرب بها الأرض.

في أيام لاحقة على القصف، رأى بعض الأهالي كيف أن شظايا القذائف دخلت بيت الدرويش أحمد من كل الأطراف حتى إنها اخترقت الجدار لتخرج من الجدار الآخر وحدسوا أن ثمة معجزة حصلت في نجاته من موت أو إصابة مؤكدة، لكن عبد الودود أكد للجميع أن الدرويش لم يبرح مكانه وهو يقرأ القرآن على سريره، فقد رآه بأم عينه حين دخل عليه الغرفة، حيث وجده جالساً بقرب النافذة التي تهشم زجاجها وتناثر في الأرجاء.

في اليوم التالي الذي تلا وصول زينب وأسرتها إلى منزل العم فريد في حلب، بعد أن تناول الجميع الغداء ورتبوا ألبستهم وباقي أمتعتهم في الغرفة المخصصة لهم وتبادلوا الأحاديث مع زوجة العم ابتسام عن الأحداث الجارية، استيقظت زينب وأولادها على خبر قرأته منى على الإنترنت حول قصف أم الطين الذي أعقب خروجهم منها بساعة أو أقل، أصابت زينب حالة من الهلع والقلق على أقربائها وجيرانها وبدأت اتصالاتها بالبلدة، آلمتها أخبار وفاة البعض من المعارف وإصابة الآخرين، بكت بحرقة عليهم، وجمدها خبر الخراب الذي حل هناك، سارعت منى للاتصال بإحدى صديقاتها في دورة الخياطة للاطمئنان عليها وسؤالها عن أوضاع الشيخ أحمد حيث كان منزلهم هو الأقرب إلى بيته المتطرف في البلدة، وطمأنتها صديقتها إسراء أنه خرج من القصف سالماً، فرحت لسماع الخبر من جانب وحزنت لأخبار الإصابات والوفيات من جانب آخر، قررت زينب ذلك الحين أن تزور أم ناصر بعد أن اتصلت بها وأعلمتها بالقصف، أرشدتها الأخيرة كيف تأتي لزيارتهم وأعطتها العنوان.

تقافز قلب منى من مكانه فرحاً حين علمت بخبر الزيارة، رتبت نفسها أمام المرآة بعيداً عن أنظار أمها، ثم توجه الجميع إلى حي الميدان.

لم تتمالك منى نفسها حين رأت ناصر مرتبكاً تهتز أطرافه من الانفعال والفرح، حيّت أم ناصر بحب وحرارة وكذلك أختها نجوى وابنتها الصغيرة آية وابنها كريم، ثم اندفعت دون وعي وعانقت ناصر الذي جمد مكانه مفتعلاً عدم الانفعال، محاولاً إعطاء الموقف جواً طبيعياً مدارياً اضطرابه الشديد، دهشت أم ناصر وزينب ونجوى لذلك التصرف إلا أن زينب علقت محاولة تحويل الموقف إلى سلوك طبيعي والتأكيد للآخرين أنها تتفهم ذلك:

– هيك بتعمل المحبة، منى أخت ناصر الكبيرة، عاش طفولتو معها وهي اللي درستو، اشتاقوا لبعض لأنها أول مرة ببعدو عن بعض.

وأتبعت تعليقها بضحكة خفيفة لم تخف إحساسها بالحرج، جلس الجميع يشربون القهوة وهم يتحدثون عن أحداث القصف الذي وقع على أم الطين، استدركت أم ناصر وسألت بلهفة عن حال الشيخ أحمد، أجابتها زينب إنه بخير وأضافت منى إنها اطمأنت عليه منذ الصباح.

اضطر ناصر أن يكون محافظاً في جلسته معهم لكي يداري ما نتج عن تصرف منى المتهور، لكنه كان يخطف نظره من وقت لآخر إليها، والسعادة تملأ قلبه، دنياه الكاملة التي تركها في البلدة، عادت إليه ولم يتخل الله عنه، انتشله مجيء منى من بئر

الكآبة والغم، وجعله يطير في الأعالي، عاد الأستاذ أحمد فاتح من حلب هو وزوجته بعد أن تعافيا ليشهدا الدرويش أحمد وهو تحت «الفلقة» من عناصر الفصيل المسلح بعد أن أزعجتهم التعليقات التي يرميها إليهم في كل مرة يمر بهم، أدركوا أنها ليست كلمات يقذفها في الفضاء مثل كل المجانين بل يقصدهم بها، فقرروا تأديبه.

ظل الشيخ أسبوعاً لا يخرج من وكره الصغير بعد أن تورمت قدماه من الضرب، ثم خرج من بيته يلعنهم وهو يدور على بيوت الأهالي ويؤلب الناس عليهم.

لم تخرج «جميلة المنسية» من بيتها إلا لقضاء حاجاتها الضرورية منذ دخل العناصر وسيطروا على «أم الطين»، إلا أنهم عرفوا قصتها بعد مضي فترة على وجودهم في البلدة، فبدؤوا إزعاجها ثم طلبوا منها مغادرة المكان مهددين إياها بالقتل، خرجت تبكي بأمتعتها الشخصية ومضت إلى قرية بعيدة يعيش فيها أحد رجالها وهي ملفعة بشال أسود محتشمة أكثر من أي زمن مضى تحاشياً لإثارة غضب عناصر الفصيل، ولم يعد الأهالي يسمعون عنها أي خبر.

* * *

عقب الاضطرابات وانعدام الأمان في بعض مدن ليبيا، اضطر نادر عبد الحق لمغادرة طرابلس العاصمة متوجهاً إلى مصر، بعد أن رجاه أخوه فريد ألا يعود إلى سوريا بسبب الأحداث الجارية، وطلب منه البقاء في القاهرة ريثما تتحسن الأوضاع وأن

يحاول العمل هناك بقوت يومه إلى أن تتضح الأمور، وطلب منه الاتصال بصديق له يعمل هناك بتجارة المفروشات كي يساعده في إيجاد عمل ويسهل أموره.

كان نادر «أبو ماهر» معلم نجارة محترف إضافةً إلى خبرته بالكهرباء ووجد في اقتراح أخيه فرصة له لإيجاد عمل في المجال نفسه خصوصاً أن صديق أخيه له علاقات بالمفروشات وورشات النجارة، فتوجه إلى هناك دون تردد، وأخبر عائلته في حلب أنه انتقل للعمل في مصر بسبب أوضاع ليبيا غير المستقرة.

خلال الأيام التي أعقبت وصول زينب «أم ماهر» مع عائلتها إلى حلب واستقرارها في بيت العم فريد، صار ناصر وماهر يخرجان معاً في مشاوير إلى الجامعة أو مركز المدينة التي لم تكن آمنة آنذاك، ويوماً بعد يوم صار عليهم تأمين المياه إلى المنزلين كونهما الشابين الوحيدين هناك بعد بدء انقطاع التيار الكهربائي والماء عن المدينة.

أرسل ناصر في صباح يوم من أيام شهر نيسان ذلك الحين رسالة إلى منى عبر هاتفه النقال يطلب منها أن تحاول الخروج من المنزل كي يلتقيا في أحد الأمكنة، وردت عليه برسالة تؤكد فيها أنها تحتاج إلى بعض الوقت كي تجد حيلة تبرر خروجها أمام أمها كونها لا تعرف أحداً في حلب ولا حجة لها في مدينة لا تعرف عنها شيئاً، صمت ناصر ولم يرد، وبدأ يفكر معها في طريقة يمكنها من خلالها مغادرة بيت عمها وملاقاته، دون أن تمانع أمها أو تلفت نظرها.

بعد أيام تمكنت منى من إقناع أمها زينب بالخروج إلى السوق مع أختها ليلى كي تروّح عن نفسها بعد بقائها لفترة طويلة في المنزل إضافة إلى المرحلة العصيبة التي قضتها في «أم الطين» بعد أن سيطر عليها الفصيل المسلح المعارض، وعدت أمها ألا تتأخر، ثم أرسلت رسالة لناصر تطلب منه أن يرشدها كيف تتحرك وتصل إلى مكان الموعد حيث سيأتي الأخير ليأخذها منه ويذهبان إلى كافيتريا قريبة، وصل ناصر في الزمن المحدد مسرعاً وتوجه الثلاثة إلى المكان. بعد أن طلبت منى من ليلى ألا تخبر أمها بلقائها بناصر، أكدت ليلى أنها ستبقي الأمر سراً بينهما بعد أن فاجأتها قائلة:

– ما في داعي توصيني، بعرف من زمان أنك بتحبي ناصر.

فهزتها من كتفها مبتسمة مداعبة.

أمام ليلى لم يستطع ناصر أن يتصرف بارتياح، حتى إنه لم يعبّر عن مشاعره التي فاضت حين قابلها بعد انقطاعهما الطويل، أخبرته أن أباها نادر غادر ليبيا إلى مصر بسبب الاضطرابات هناك، وأنها تشعر بالاختناق من حالة الضياع التي تعانيها، مع تفاقم الأحداث في البلاد، رد ناصر بعد أن حرك كلامها آلامه التي بقيت مدفونة فيه وهو مشغول بتأمين المياه وأجهزة الإضاءة وباقي المواد الضرورية لحياتهم اليومية:

– يبدو أننا خلقنا منذورين للشقاء والضياع، بديت أشعر بأني كنت في جنة وفقدتها فجأة، صرت أحن لأيام زمان، الهدوء والبساطة والأمان.

ردت منى بصوت مكسور حزين:

– أي وأنا كمان، في الفترة الماضية اختنقت وحسيت إني ضايعة وإن الدنيا تسكرت بوجهي، فقدت الأمل بكل شيء.

رد معزياً:

– صحيح بس طولي بالك، لا تيئسي، لا بد نلاقي حل لوضعنا.

عندما ذهبت الصغيرة ليلى إلى الحمام بصحبة منى، رجعت الأخيرة مسرعة ووضعت يدها على يد ناصر وضغط بدوره على يدها وكأنه يفرغ حرماناً مضى عليه زمن طويل، ويبادلها الشوق والحنين عبر أصابع يديه التي تشتبك بقوة بأصابعها، لمست وجهه ولامس وجهها براحة يده خلسة في غفلة النادل وزبائن الطاولة البعيدة، ثم اعتدلا في الجلسة حين عادت ليلى.

في حافلة النقل الداخلي وهم عائدون، مد ناصر يده إلى منى وهما جالسان بجانب بعضهما البعض تتوسطهما ليلى، وعصر كتفها بقوة فابتسمت بتآمر مشترك مسترخية للمساته المجنونة متذكرة اللقاءات القديمة في حقول «أم الطين».

بعد أن نزلتا، أوصلهما ناصر إلى ناصية الشارع المفضي إلى بيت العم فريد ورجع متجهاً إلى حي الميدان، قبل أن يدخل الشارع الذي تتوسطه عمارة بيت خالته نجوى، أوقفه حاجز عسكري وطلب منه هويته ثم سأله عن المكان الذي يقصده، انتهى من الحاجز وتابع سيره محاطاً بأسئلة لا جواب جاهزاً لها.

هبط المساء على المدينة وشوارعها الخالية، كانت ترتفع

أصوات القذائف أو رشقات الرصاص وهي تقطع الصمت الذي بدأ ينتشر مع بداية حركة السنونو وطيران العصافير والحمام عند المغرب، وعلا صوت الآذان من الجامع القريب يتردد في السماوات محلقاً وحيداً، وسط انعدام الحركة والسكون الذي يلف الأركان معلناً توقف الحياة حتى صباح اليوم التالي.

على مائدة العشاء، بعد أن عاد ناصر، بكت خالته نجوى حين تذكرت زوجها عمر الذي مضى عليه ثلاث سنوات وهو يعمل في السعودية، ولم يستطع المجيء إلى البلد بعد بدء الاضطرابات فقرر تأجيل زيارته لعائلته ريثما تهدأ الأوضاع، معوضاً عن غيابه بمكالماته المستمرة عبر الإنترنت معهم، واستمر عمر بإرسال حوالات مالية إليهم كل شهر أو أقل، ذهب للعمل هناك لتحسين ظروفه الحياتية بعد أن ترك عمله في حلب من أجل دخل أكبر يستطيع من خلاله توفير بعض المال، شعرت أن ولديها كريم وآية يفتقدانه في المنزل وفي الاجتماعات العائلية والأعياد.

بادرت أختها فرحة للتخفيف عنها بكلمات ملاطفة مؤكدة لها أن تلك الأحوال لن تدوم وأنه سيأتي عما قريب.

تابع الجميع بعد العشاء الأخبار التي تبثها القنوات الفضائية التي كانت الحرب في البلاد موضوعها الرئيسي، ثم انتقلوا لمشاهدة مسلسل تلفزيوني يتابعونه، في تلك اللحظة كان ناصر يسرح في ذكريات لقائه بمنى ويفكر في مستقبل حياتهما موقناً أنهما يجب أن يجدا حلاً للظروف الراهنة خصوصاً أنه لم يكن من المتفائلين بنهاية الاضطرابات والأحداث المخيفة التي تأخذ البلاد إلى المجهول.

والد منى في ليبيا ثم مصر، وعمر زوج خالته في السعودية، وآخرون يغادرون إلى تركيا هرباً من الأزمة، أما من هم في الداخل فلا أحد منهم يعرف ما سيحصل له غداً، وسط ركام الخراب المتواصل والاحتمالات المختلفة المجهولة والتراجع الاقتصادي والمعيشي بسبب الوضع الأمني المثير للقلق والخوف في البلاد.

تذكر أن عليه الاتصال والاطمئنان على صحة العم «أبو أمين» وزوجته بعد أن علم بخبر إصابتهما في القصف الأخير على «أم الطين»، نهض إلى الغرفة الداخلية واتصل عدة مرات دون نتيجة بسبب فقدان التغطية في البلدة، وأرجأ اتصاله لصباح اليوم التالي حين تعب من المحاولات.

لم تنج «جميلة المنسية» من الفصائل المسلحة حين طردت من «أم الطين» لأنهم سيطروا بعد أيام على قرية «المريولة» التي هربت إليها، بدأت تتحاشى أي سلوك يثير غضبهم حتى تحولت يوماً بعد يوم إلى امرأة تحت الإقامة الجبرية، لا تغادر المنزل الذي أسكنها فيه أحد رجالها وخرج من البلدة الصغيرة هارباً بعد دخول رجال المعارضة إليها، لأنه لم يكن على وفاق مع أغلب الأهالي وخشي أن يشوا به إليهم، لم تعد تخرج جميلة إلا لإحضار طعام المعونات الذي يصل أهل القرية ويوزع عليهم، الأمر الذي أنقذها من التسول أو الموت جوعاً، حين أتت إلى القرية هاربة، لم تتحفظ في سلوكها مع بعض رجالها المشبوهين، وتصرفت كما كانت تفعل في «أم الطين» بسرية أكثر، حيث تحولت خلال أسبوعين إلى امرأة سيئة السمعة تتحاشاها جميع النسوة هناك ويتحدث عنها

الرجال بانزعاج خوفاً على بناتهم وزوجاتهم، تماماً كما كان يحصل في بلدتها الأولى.

أول ما فعلته حين دخلت القرية هو عرض خدماتها السخية على المختار، زوج النساء الأربع، فمنحها حظوة ثم هرب بعد دخول العناصر المسلحة المعارضة لأنه كان على يقين أنه سيكون على رأس قائمة المطلوبين الذين لن ينجوا من الضرب والسجن أو ربما القتل من قبلهم، بعد ذلك أصبحت بلا حماية أو أي مال لمتابعة نشاطاتها أو حتى في العيش بأمان دون تهديد بالعقاب أو الطرد، صار الشبان الذين ارتادوا منزلها يتحاشونها ويحاولون كسب عناصر الفصيل بتقديم الخدمات لهم.

حين تمكن ناصر بعد يومين من الاتصال بالأستاذ أحمد، أبي أمين، سمع صوتاً غريباً على الطرف الآخر، لم يكن أبو أمين من يتكلم وإنما ابنه الأصغر الذي أخبره أنه ذهب إلى حلب ونسي هاتفه النقال، طلب منه أن يبلغه تحياته وأنه سيتصل في وقت لاحق، إلا أن الولد اليافع أيمن أخبره قبل أن يغلق الهاتف أنهم سيغادرون البلدة ولذلك السبب نزل أبوه إلى حلب، فكر ناصر بالخبر، ترى إلى أين سيذهب الأستاذ أحمد فاتح وعائلته؟ تساءل في نفسه.

تسارعت الأحداث المتتالية على نحو يبعث على القلق أكثر مما مضى، الأمر الذي أثار البلبلة والتوتر بين أوساط الناس وعلى الأخص من هم على تواصل دائم مع ناصر، أمه وخالته وأم ماهر وأخوها فريد وآخرون من الأقرباء، بدا صمتهم المرتبك الداخلي

الذي يخفي حيرة ورعباً ويقطع المسافات جيئة وذهاباً، أكثر تأثيراً في نفسه مما لو باحوا بما يجول في أذهانهم ونفوسهم، ومع فهم ناصر واستيعابه المحمل بمخاوف قريبة وبعيدة لما يجري، صار قلقه وبيلاً محملاً بالاحتمالات الكارثية الممكنة وغير الممكنة، تحول إلى مزيج من الإحساس الواقعي بحجم الأزمة والأوهام القريبة من الهوس الذي تتحول فيه الأشياء إلى رعب توراتي وجحيمي.

صارت أمه وخالته وكل الأحياء من حوله موتى مؤجلين، ينتظرهم حقد الموت الأعمى المؤجل إلى موعد وشيك في كل لحظة، وزاد في قناعاته بحقيقة ما يشعر الاتصال الذي أجراه للمرة الثالثة مع بيت أبي أمين إذ بقي هاتفه النقال خارج التغطية ودفعه شكه إلى الاتصال بالبقال عبد الودود الذي أخبره أن أبا أمين سافر مع عائلته لكنه لا يعلم إلى أين، حيث دفعه هذا الخبر المفاجئ إلى القناعة بأنه كان محقاً في فكرة السفر التي كانت تحفر في رأسه، وتلح عليه دون توقف رغم أنه لا يجد من يشاركه إياها ممن حوله، كانوا جميعاً يفكرون في حل «هنا» وكان يفكر في حل «هناك»، في مكان آخر.

بعد أيام توالت ببطء وملل قاتل على روح ناصر، وصلته رسالة من رقم مجهول يبلغه فيها صديقه أمين أنهم في تركيا، خرجوا عبر الحدود دون أن يخبروا أحداً سوى عمه الذي أوكله أبوه بالنيابة بالبيت الذي تركوه كما هو ولم يأخذوا معهم سوى حاجاتهم الضرورية.

في تلك اللحظة شعر أنه سقط في بئر عميق، متروكاً يعوم في الفضاء.

صار تأمين الخبز وبعض الخضروات أمراً صعباً في أم الطين، إذ انقطعت إمدادات المؤن والحاجات الضرورية للحياة ولم يدخل إليها سوى القليل منها مما لا يكفي عائلتين على أكثر تقدير، بدا الأمر صعباً على الأمهات والرجال أن يكسروا الخبز الجاف ويبللوه ببعض الماء المحلى ليطعموا أطفالهم ويأكلوا، لكن الأمر كان يسيراً على الدرويش أحمد الذي اعتاد أن يأكل فتات الخبز عدا بعض ما يجود عليه الناس به من طعام مطبوخ قبل اشتداد الأزمة، وصار يدور البيوت هنا وهناك حاملاً كيساً كبيراً من الخبز الجاف يوزع منه على من يحتاج من الأهالي.

ظلت الأزمة تخيم كالكابوس على البلدة حتى بدأ بعض أهاليها الذين كانوا يعملون بالتجارة مع حلب بالهروب قريباً من الأراضي المتاخمة للحدود التركية وإحضار مواد غذائية مهربة إضافة إلى منتجات محلية استطاعوا شراءها من مزارعين وتجار صغار من المناطق المجاورة، حين بدأت أمور الغذاء تتحسن، كان الشيخ أحمد قد دخل مرحلة غامضة لم يشهدها أحد من الأهالي من قبل، إذ لازم منزله أياماً طويلة، بدأ الناس خلالها يحضرون له الطعام بعد أن عرفوا أنه لا يخرج أبداً ويبقى يقرأ الأدعية بصوت مسموع ليلاً وينام قليلاً في النهار، كانوا يسمعونه طيلة الليل ينشد مقاطع دينية وكأنه يقيم ذكراً غارقاً في حالاته حتى الصباح، ثم يختفي صوته مع صياح الديكة وبزوغ الشمس، أقسم كثيرون ممن

يسكنون البيوت القريبة منه أنهم رأوا في الليالي عموداً من نور يعلو بيته راسماً خيالات نورانية وهو يصعد بصوته ويهبط في تراتيل كالمجانين، وعرف البعض ممن درسوا في حلب وظلوا تلك الفترة حبيسي الأزمة لا يغادرون إلا للضرورة القصوى، أنه يعيش حالة تشبه التصوف كما أطلقوا عليها، وحين خرج لأول مرة بعد عشرين يوماً، أوقفه أحد عناصر الفصيل قائلاً:

- أنت دجال.

فرد:

- أنا درويش جائع.

ثم أعاد العنصر اتهامه:

- أنت متسكع.

فأجاب:

- أنا متألم عليك وعلى الجميع، أحصي عدد الأموات كي أعرضهم على الملك القدوس يوم العرض، وأرى جنات الله التي لا يراها أحد، نعم أنا أشاهد كل شيء، وأرى ما لا يراه أحد، أنا مسكين لكن السماء تنكشف لي ولا تردني، نعم مسكين وانتظر رحمة الله.

ضربه العنصر على كتفه وتركه يمضي في سبيله، إذ كان من المؤكد أنه لم يفهم ما يقصد أو يرمي إليه.

* * *

أبلغ نادر عائلته أن يجهزوا أنفسهم للحاق به إلى مصر، وأرسل لزوجته زينب ما يلزمهم من المال للسفر ومستلزماته، عرف ناصر بالخبر حين زارت الأخيرة أمه وخالته بصحبة ابنتيها منى

وليلى، أثار الخبر حيرته وتشتته، تماماً كما بدا ذلك على منى ذاتها وهي لا تعرف كيف تداري أمام الجميع تأزمها واضطرابها حيث شعرت أم ناصر وأختها نجوى بوجود شيء غير طبيعي في صمت منى المضطرب وتعابير وجهها فسألتها عن أحوالها أكثر من مرة، في تلك الساعات أدركت منى أن نظرات أمها توحي بمعرفتها بحبها لناصر وحبه لها، لكن في ذلك الحين، لم تعد تعبأ سواء عرفت أم لا، حاولت البحث عن مخرج لقرار أبيها لكنها لم تجد ما تفعله كبنت تعيش حياتها مع أهلها وتخضع لما يقررونه في أمور الأسرة، وأدركت أن لا مفر لها من هذا القرار سوى الإذعان أو الهرب مع ناصر إذا قرر الأخير ذلك وحسم أمره، لكنها في تلك الأوقات العصيبة لم تكن قادرة على التفكير أو توقع أي شيء، وأرجأت بحثها عن حل ريثما يتسنى لها اللقاء به.

حين حل المساء ذلك اليوم، دخلت منى غرفة النوم وأرسلت رسالة من هاتفها النقال تطلب من ناصر ترتيب لقاء بينهما وتحديد موعد كي يتقابلا، رد الأخير على الفور برسالة طلب فيها من منى أن يكون اللقاء يوم الغد في الساعة الواحدة ظهراً.

في صباح اليوم التالي، حين استيقظ الجميع على صوت الانفجارات والاشتباكات البعيدة نسبياً عن الحي، أدركت منى، شبه متيقنة، أن لا داعي لتقديم مبررات كاذبة لخروجها أمام أمها، لأنها ردت بالإيجاب قبل أن تنهي طلبها وتقدم المبررات، عرفت أنها وصلت منذ زمن إلى القناعة بوجود حب بينها وبين ناصر وكانت إذا ترددت في الرد، إنما يكون ذلك لسبب واحد لا علاقة لناصر

به، وهو خوف أمها من عدم الأمان في المدينة بسبب الأحداث الدائمة التي تتوالى دون توقف، وافقت أمها على خروجها مع أختها الصغيرة ليلى على ألا تتأخر في مشوارها.

ظل ماهر منتظماً في ذهابه إلى الجامعة وحضور المحاضرات عكس ناصر الذي أوقف تسجيله في كليته بحجة الأوضاع الأمنية، رغم أن الأجواء العامة فيها أصبحت أكثر استقراراً وأماناً بعد الأحداث التي عصفت بها، إذ اقتصر الأمر على الطلاب الذين يقصدون الجامعة لمتابعة الدراسة ولم يكونوا بالأصل من الناشطين، أما هؤلاء فكان بعضهم معتقلاً والبعض الآخر قد سافر هارباً إلى تركيا أو مصر، وحقيقة الأمر أن ناصر أوقف تسجيله لأنه أصبح مهجوساً بالسفر ولم ير آنذاك حلاً قريباً للمعاناة.

في لقائهما أوضحت منى أنها صارت غير قادرة على فعل شيء إزاء قرار أبيها، وطلبت من ناصر أن يفكر بحل سريع، رد ناصر بعد أن تخلص من حيرته في الأيام السابقة بشكل سريع ومفاجئ:

– خلص رح أقنع أمي بالسفر ورح أروح أنا وأنتِ إلى تركيا، ما في خيار أمامنا، حتى لو زعلوا أهلك، هادا هو الحل منى، ما في وقت قدامنا.

أصيبت منى بالحيرة والارتباك وكأنها سمعت الاقتراح ولم تعد توافق عليه، رغم أنها كانت تفكر فيه كأحد خياراتهما هي وناصر، بدا أن الموضوع حين أصبح حقيقة جادة، أخافها وفقدت القدرة على مواجهة أهلها أو أن تكون السبب في إحداث صدمة مؤلمة

لهم، ترددت في الإجابة وتلعثمت، وحين ألح عليها ناصر ليسمع جوابها ردت بخوف:

- بعدين بخبرك، خليني أفكر بالموضوع، على الأقل ألاقي طريقة أخبر فيها أمي، أو ألمح لها، هادا شي مو سهل عليها، شو بدها تقول لأبوي.

هزّ ناصر رأسه موافقاً رغم أنه أدرك حقيقة خوفها من اتخاذ قرار حين أصبح الأمر جدياً يحتاج إلى موقف ورد سريع.

غادرا الكافيتريا دون أن يتبادلا كلمات الحب كما كانا يفعلان بشوق، إذ فقدت منى أي مبادرة، بدت مرتبكة خائفة ولم يترك توترها أي مساحة لتبادل المشاعر التي أطفأتها جدية وصرامة الواقع والحلول المستحيلة.

صار العم فؤاد يغامر بالنزول إلى حلب كي يتابع بعض شؤون عمله، بعد أن استهلك ما أحضره من مال إضافة إلى مقتنيات زوجته الذهبية، بعد أن أصبح الحي الذي يقطن فيه منطقة ساخنة لا تهدأ فيها الاشتباكات.

في تلك الفترة لم يعد بإمكان بعض الموظفين المجيء إلى عملهم بسبب الاضطرابات في مناطقهم أو قراهم القريبة، فلم يعد الدوام اليومي ممكناً بالنسبة لهم وقررت الدوائر الرسمية أن تبرر غيابهم وأن ينزلوا إلى محاسبيهم لتقاضي رواتبهم الشهرية، وهذا ما فعله العم فؤاد حين نزل إلى حلب مغامراً باحتمال حدوث صدامات خطرة بالأسلحة أو عمليات احتجاز أو خطف، لكنه رغم استمرار راتبه الشهري، فقد بالمقابل دخله من متابعة معاملات

وأوراق المراجعين الذين كانوا يكلفونه بها كونها إجراءات معقدة وطويلة لا يرغبون في تحمل أعباء روتينها وتفاصيل إنجازها.

في طريقه مرّ على زوجة أخيه «فرحة» سريعاً، واطمأن عليها وأخبرها عن أحوال البلدة التي أصبحت الحياة فيها محفوفة بالمخاطر ولم تنس أم ناصر أن تسأله عن أحوال الدرويش أحمد، فأجابها إنه بخير، لكنه ازداد انعزالاً في الأيام الأخيرة وأصبح أكثر غرابة في سلوكه خصوصاً حفلات الذكر الليلية التي يقوم بها في منزله وحيداً حتى الصباح، «هادا المبروك، الله وحده اللي عم يحميه من المهالك» علق العم فؤاد، ثم ودع فرحة مغادراً واتجه إلى مركز انطلاق الحافلات التي تنقله إلى البلدة.

كان الشيخ أحمد مستودعاً من الأخبار والمعلومات والأسرار في «أم الطين»، وحده عرف اسم القرية التي رحلت إليها جميلة المنسية عبر أحد رجالها حين أسر له بالمكان الذي توجهت إليه بعد إلحاحٍ شديد قبل أن يغادر البلدة نهائياً، وعليه فقد صحا ذات يوم من أيام أيار المعتدلة مبكراً وتوجه دون تفكير أو خوف عبر الحافلات التي تنقله إلى قريتها، رغم مخاطر الطريق.

حين وصل قرية المريولة عصر ذلك اليوم، استقبله عناصر فصيل آخر معارض إذ استوقفوه وسألوه عن وجهته واسمه لكنهم حين هم بإخراج بطاقته الشخصية من بين الأكياس والأوراق المتسخة والخرق، قرؤوا اسمه فيها وتركوه يمر، دخل الشيخ أحمد القرية وسأل بعض النسوة عن «جميلة» المرأة المطلقة التي جاءت إليهم منذ ما يقارب السنة، استغربت النسوة سؤاله عنها إذ بدا

لهن رجل دين درويش في حين كانت في نظرهم امرأة سيئة السمعة، لكنهم أرشدوه إلى بيتها، أحضر الدرويش لها بعض الطعام والحلويات الرخيصة واقترب يدق الباب، حين فتحت بعد تردد، فاجأها الشيخ وهو يقف أمامها مبتسماً ثم حياها، ولأول مرة رغم تهتكها، أحست جميلة برعشة فرح ومودة وحنين تهزها حين ذكرها قدومه «بأم الطين» وأهلها وذكرياتها، طلبت منه الدخول دون تردد، فدخل دون أن يعبأ بما يمكن أن يقوله أهل القربة عنها وعنه، جلس على كنبة قديمة تالفة بعد أن وضع الحاجات التي أحضرها قريباً من باب المطبخ الصغير.

رحبت به «جميلة المنسية» فرحة وقد شعرت بالأمان بعد أن ظلت فترة طويلة خائفة وقلقة من عناصر الفصيل والتهديدات التي وجهوها لها، أحست لأول مرة بعد وحدة طويلة وفزع في الليالي القاتمة، بأهمية أن يكون لها من يسأل عنها، ليس أمام الناس فقط، بل أمام نفسها التي طالما استخفت بالقرابات والعلاقات بين البشر وهي تسعى لكسب المال والمجون ضاربة عرض الحائط بكل قيم الأرض، رأى الشيخ أحمد وهو يتحدث، لمعان عيني جميلة المنسية، اللمعان الذي يسبق البكاء، ورآها في إصغائها الصامت له وقد تسربت منها الدموع، لكنه تجاهل ذلك وتابع حديثه موضحاً أن الله محب ورحيم لا ينسى عباده وهو قبل أن يكون شديد العقاب الرؤوف الخبير، ملمحاً إلى التوبة، إلا أن ما أسر جميلة ذلك الحين، ليس كلام الدرويش عن التوبة، وإنما الحنان والحميمية والتسامح الذين حملهم مجيئه إليها، ودون أن يتابع ما بدأه من

كلام، ودعها وغادر رغم إلحاحها أن يبقى لفترة أطول، لكنه غادرها بعبارة السلام عليكم، ومضى في طريقه.

قبل أن يخيم الليل، استطاع الدرويش اللحاق بآخر حافلة مغادرة إلى أم الطين، رآه قلة ممن كانوا في ساحة البلدة لقضاء الأمور، حياهم ومضى متوجهاً إلى بيته الصغير، وكأنه تأخر عن موعد مع أحدهم.

أحست أم ناصر بحالة ابنها المتوترة وسلوكه المضطرب الذي لم يخفَ عليها وعلى أختها نجوى، وعرفت في سرها سبب تشتته وانزعاجه لكنها ادعت أمام أختها أنها لا تعرف السبب.

سفر منى وأهلها كان وراء كل هذا الضياع الذي يعيشه ابنها، لكنها كانت مصابة بالحيرة لا تستطيع إيجاد حل يمكن أن يكون مخرجاً له ولمنى ويرضي أهلها في الوقت ذاته، هي التي كانت على دراية بدقائق روح ابنها، وشهدت تفاصيل حياته التي كانت منى جزءاً لا ينفصل عنها، ولم تكن بحاجة لسؤاله عما يزعجه لهذا قررت أن تكلمه بشكل مباشر ودون تلميحات في الموضوع.

قررت منى كذلك، في لحظات عجزها واستسلامها أن تصارح أمها بخصوص حبها لناصر وعزمت على مواجهة الأمر معها كي تخرج من حيرتها المدمرة وتكسر جميع الحواجز التي أزمتها مهما كانت نتيجة الحوار.

وقرر ناصر بدوره، ودون أن يعلم بقرار الاثنتين، أن يفاتح أمه بالأمر بوضوح كي يخرج من هذا المأزق الذي بدا مستحيل الحل بالشكل المتحفظ الذي يسلكانه هو ومنى.

كانت منى قد اتخذت هذا القرار الذي شعرت حينها أنه قرار انتحاري ولم تعد تبالي بالنتائج، ومثلها تماماً، لكن بشكل أخف وطأة، قررت أم ناصر بدورها فتح الموضوع دون تحفظ مع ابنها الذي كان يبدو أمامها كالنعامة التي تخفي رأسها في الرمال كي لا ترى الصياد.

بدت لها مصارحة أمها بما حصل ذلك اليوم في البلدة وسط الحقول تحت شجرة المشمش أخف وطأة من ضغط القلق والخوف اللذين دمرا أعصابها وروحها.

أحست أم ناصر، كباقي الآباء والأمهات الذين باتوا يخافون على أبنائهم الذكور إبان الحرب، أن ابنها ليس بمأمن من المخاطر، ولهذا كانت هادئة حين فتح الحديث معها وصارحها بأنه يحب منى وأنه لا ينوي أن يبقى في البلد مهما كلف ذلك، «لأنه كان يختنق ولا يستطيع التحرك أو الدراسة»، كما عبر لها، شعرت لأول مرة أن ابنها الوحيد لم يعد لها، بعد عمرها الذي أمضته وهي تنذر النذور لسلامته وتخشى عليه من النسيم العابر، فاضت مشاعر الألم والخسارة الممزوجة بعواطف الأمومة في نفسها إلا أنها كبحت دموعها آنذاك واستسلمت، مدفوعة بمخاوف أن تخسره إذا بقي وسط ذلك الخراب والزلازل المفاجئة التي قد تجعلها تفقده إلى الأبد، لذلك كانت تحاوره مهادنة مسلمة أمرها إلى الله حين أسر لها أنه يريد منها أن تجمع المال اللازم للسفر، فكرت ملياً وهي تقلب الأمور في عقلها، إلا أنها اعترضت عندما ذكر اسم منى التي ستكون رفيقته في سفره وفي حياته، ردت على الفور:

– ابنـي، اترك البنت لأنها أكبر منك، وحتى إذا ما فكرنا بهالموضوع، كيف رح تاخدها وتسافر معها، شو رح تقول لأمها وأبوها؟!

رد ناصر:

– ماما، اتركي هالشغلة إلي، أنا بحلها، رح روح لعند أمها وأناقشها، لازم أقنعها لأني ما بقدر أعيش بدون منى.

أضافت أم ناصر متسائلة:

– وكيف مشان أبوها؟ حتى لو وافقت الأم، أبوها ممكن ما يوافق ابنـي.

لم يكن ناصر في تلك اللحظة قابلاً للنقاش والمجادلة، كان مندفعاً كالأعمى، وهو يخشى أن تضيع منه إذا ما سافرت مع أهلها إلى مصر، غادر البيت تاركاً أمه في حيرتها ومضى يتمشى في الطرقات القريبة من حي الميدان، يفكر ويقلب الأمور عله يعثر على حل أو طريقة يقنع بها أمها، ثم فيما بعد أباها.

في مساء اليوم ذاته، لزمت منى غرفة النوم المخصصة لهم ولم تخرج، استفسرت ابتسام زوجه عمها فريد عن سبب عدم وجودها معهم في غرفة الجلوس، حاولت أمها مداراة الأمر بحجة أنها متعبة ثم اتجهت إليها، فتحت الباب ودخلت عليها، سألتها:

– ليش قاعدة لوحدك؟ تعالي اقعدي معنا وتسلي بالتلفزيون، مرت عملك ابتسام عم تسأل عنك، قومي بنتي.

لم ترد منى، بل طلبت من أمها الاعتذار من زوجة عمها

واستئذانها لبعض الوقت والمجيء إلى غرفتها «لأنها تريد أن تناقشها بأمر ضروري».

اعتذرت الأم من زوجة العم ودخلت الغرفة ثم أغلقت الباب خلفها، بدت منى مرتبكة لكنها كانت تملك من الأسباب ما يجعلها تفتح الموضوع دون تردد وتكسر طوق ارتباكها، رفعت برأسها وبدأت حديثها:

– ماما في شي لازم أخبرك ياه ضروري، صار لازم تعرفيه.

هزت زينب برأسها بقلق، وتابعت ابنتها:

– أنا وناصر منحب بعض من زمان وهو متعلق فيني كتير وأنا كمان، إذا سافرت معكن رح يجن ويضيع، وأنا كمان متلو، الله يخليكي احكي مع بابا يلغي فكرة السفر لمصر، نحنا مرتاحين هون.

ردت زينب باستغراب:

– كيف أخبرو؟ هو صار بحاجة إنو يشوفنا ويجتمع فينا، صرلو زمان مسافر مغترب، شو رح قلو؟ غير قرارك لأنو منى بتحب ناصر وما بتقدر تجي؟!

أجابت منى محاولة منحها مبرر:

– ماما لازم تقنعيه لأني إذا ضل عند رأيو أنا رح أهرب مع ناصر.

أثار الرد أعصاب زينب فسألتها بتوتر:

تهربي معو، وتتركي أمك وأبوكي وأهلك، ليش شو صار حتى تتخلي عنا بهالطريقة؟

لم تجد منى جواباً يحسم تساؤلات الأم وعصبيتها وغضبها فسارعت وأسرت لها يائسة:

– ماما شو لازم أتصرف، كل شي بيني وبين ناصر صار.

كان للخبر تأثيرٌ صادمٌ شل زينب لوهلة عن التفكير أو الكلام، ثم ردت حين تمالكت نفسها:

– شو؟! ايمتى صار هالشي، وين؟..

– من زمان في البلد أيام الدراسة.

زادت دهشتها:

– معقول؟ من أيام الدراسة، كيف بتعملوا هيك وكيف بتسمحي أنتي؟..

– ماما صار بلحظة غفلة وتسرع، بس صار وانتهى.

لم تستطع زنيب الرد، شعرت وكأنها أصبحت خرساء جمدها الخبر، تباطأ تفكيرها وغلبتها المفاجأة، قالت:

– لا حول ولا قوة إلا بالله، أنتي مجنونة وبلا حياء، كيف بتعملي هيك معو؟

لم تجب منى، أخفت عينيها خجلة ولم تضف شيئاً، دبت الرجفة والتوتر في جسد الأم وحاولت البقاء في الغرفة حتى تهدأ ولا تلفت نظر ابتسام زوجة العم الجالسة في الصالون.

خرجت زينب بوجه شاحب، سألتها ابتسام بعد أن شاهدت التغير الذي طرأ على وجهها:

– خير في شي صار شي لمنى؟ تأخرتي ووجهك أصفر وتعبان؟!

ردت مدعية اللامبالاة محاولة افتعال الهدوء:

- لا أبداً ما في شي، بس يمكن منى ملتهبة لوزاتها، شفتها تعبانة شوي.

- إذا بتحبي عندي دوا للالتهاب، عطيها منو.

أجابت بتعب وهي ترفع يدها بالنفي:

- لا، بكرا بتخف، إذا ما ارتاحت باخدها لعند الدكتور.

ابتسام زوجة العم فريد، كانت تعيش في البيت مع زوجها ولم ينجبا أولاداً لأسباب مرضية، راجعا أطباء كثر ولم يروا جميعهم ما يبرر عدم الحمل، تلقيا علاجات لم تنفع وبعد عدة سنوات من المحاولات التي لم تعط نتيجة، سلما أمرهما إلى الله.

لم تنم زينب تلك الليلة، تقلبت في فراشها كمن يُشوى على نار هادئة، فكرت بحيلة تقنع بها زوجها نادر بعدم مجيئهم إلى مصر، فلم تجد ما هو معقول ومقنع للأب الذي عاش مؤخراً ثلاث سنوات دون أن يرى عائلته فمن المؤكد أن أي مبرر سيثير استياءه ولن يقنعه لأن مجيئهم مسألة طبيعية وضرورية ولا توجد حجة كافية من بعيد أو قريب لإقناعه، إذ ستبدو المبررات واهية وغير منطقية بالنسبة إليه، حتى إنه في قراره الأخير لم يشأ أن يبقى ابنه ماهر في حلب وهو يتابع دراسته الجامعية، أرادهم جميعاً، وقرر أن كل شيء ممكن فيما بعد مع الأيام.

بعد سفره إلى تركيا، ومكوثه فيها، بدأ رفاق حزب أحمد فاتح «أبو أمين» اليساري يطلقون عليه نعوتاً كثيرة: ابن سوريا الذي تخلى، مناصر العملاء، الجبان الذي أكل خيرات البلاد وفي أزمتها

هجرها، ظل يقرأ هذه النعوت على صفحات التواصل الاجتماعي صامتاً، أحد المثقفين دعا أولئك المهاجرين النازحين إلى أوروبا «بالواسب السوري»[1] وكان يعني أنهم مشابهون للأنكلوسكسون البيض الذين هاجروا إلى القارة الأمريكية إبان اكتشافها بحثاً عن الثروات.

«لأنه حسب وجهة نظرهم كان عليه ألا يتخلى عن وطنه، رغم أنه وصل إلى الموت، وأن يظل يقاوم مع عائلته إلى أن تنتهي الأزمة»

كان أبو أمين يخوض تجارب صعبة كي يستطيع متابعة العيش هو وعائلته، النقود القليلة التي كانت بحوزته لم تمكنه سوى من تغطية نفقات قليلة من مجمل التزامات وضرورات عيشه في تركيا.

في تلك الأيام، كان ناصر يستعد للسفر إلى تركيا بمساعدة أمه وعمه فؤاد الذي رأى آنذاك أن سفره أكثر أماناً له من البقاء وسط النار المشتعلة، أمنت له والدته «فرحة» بعض النقود التي جمعتها من أموال المحاصيل في «أم الطين» وباعت ذهبها واستدانت مما توفره أختها نجوى والعم فؤاد الذي أتى إلى حلب من البلدة كي يساعدها في إكمال المبلغ الضروري، وفي لقاءات توالت أمام علم زينب، أم ماهر له مع منى، اتفقا على أن الحل الوحيد

(1) الواسب: WASP هم الأنكلوسكسون الأمريكيين الذين هاجروا بعد اكتشاف أمريكا بقصد الثروة.

هو هروب الأخيرة معه فجأة، ودون علم أمها، لأن الأمر لا يمكن أن يكون له مخرج إلا بهذه الطريقة، ثم يمكن لانزعاج الأب والأم أن يتلاشيا مع الزمن بعد أن يوضعا في الأمر الواقع.

كان القلق والخوف ينخر أعصاب أم ناصر بسبب رحلته التي سمعت عنها أخباراً كثيرة، كانقلاب الزوارق والغرق والمشي لأيام عدة عبر البراري والجبال واحتمال القبض عليهم من قبل الشرطة، والسجن والنوم ليلاً وغيرها من الأخبار التي توالت تلك الأيام عن محاولات السوريين النزوح إلى أوروبا، إلا أنها أسقط فيد يديها ولم تجد ما يثني ابنها الوحيد عن قراره بالسفر مع منى التي أخبرها الأخير أنه أخذ عذريتها وانتهى الأمر منذ أن كان في أم الطين.

أمام القرار المفاجئ والصاعق الذي تخيلته منى تلك الليلة، حيث كان ناصر ينتظر ردها كي يمضيا صباحاً إلى تركيا، وأثره المدمر على أعصاب أبيها وأمها والفضيحة التي سيسببها هروبها معه أمام أقاربها، دب الخوف فيها ولم تملك جرأة القرار ساعتها، إذ نظرت إلى أمها وهي تتحدث مع خالتها دون دراية بما كانت عازمة على فعله بشكل مفاجئ وشعرت أنه سيضعها في موقف محرج أمام الجميع مع الأثر النفسي الذي سيحدثه في روح أبيها، نظرت إليها بإشفاق، وأمام كل ذلك لم ترد منى على رسائله الملحة تلك الليلة ولا حتى اتصالاته التي بدأ يجريها في وقت متأخر من الليل، أطفأت جوالها واضعة حداً لترددها وإلحاحه، وقررت ألا تخرج إذا تجرأ، بسبب يأسه، ودق الباب يسأل عنها.

بقيت فرحة مستيقظة متوترة بأعصاب مشدودة ودموع تنسال بصمت ليلتها، بينما كان ناصر يرتب حاجاته ويمضي في محاولاته الاتصال بمنى دون نتيجة، في آخر الليل وبدء ساعات الصباح الأولى قرر أن يؤجل سفره إلى يوم آخر، حتى يراها ويفهم منها ما حصل، أخبر أمه أنه لن يسافر ذلك اليوم، ومضى إلى سريره مغموماً تملؤه الحيرة والاستغراب.

توقعت منى صباح ذلك اليوم أنه سافر بعد أن فهم عدم رغبتها بمرافقته، لكن أمه فاجأت زينب وهي تدق الباب ظهراً، دخلت وسط ترحابها وجلست على الأريكة تنظر يميناً وشمالاً، فهمت الأخيرة أن أم ناصر تبحث في نظراتها عن ابنتها منى، مضت إلى غرفة نوم ابنتها تخبرها، تاركة أم ناصر تتبادل الحديث مع ابتسام زوجة العم فريد، خرجت منى خجلة تتحرك ببطء ورحبت بها، سألتها «فرحة» عن أحوالها وفهمت من سؤالها المضمر أنها تستفهم عن تخلفها عما اتفقا عليه هي وناصر، لكنها، بعد حركات مرتبكة، أكدت أنها بخير ولم تلمح إلى شيء بخصوص ذلك بل صمتت ساهمة، اعتقدت أم ناصر أنها لا تستطيع الحديث في الأمر بسبب وجود زوجة عمها وأمها، فأرجأت الموضوع، وبعد أن فطنت إلى مخرج لفتح حديث بهذا الخصوص سألتها:

– امبارح اتصلت فيكي منى، شو معطل موبايلك؟!

فهمت منى وأجابت:

– لأ، بس انتهى شحنه.

ثم خفضت رأسها وصمتت، استطاعت فرحة تمرير جملة

لمنى لوهلة حين غادرت أمها إلى المطبخ ومضت ابتسام لقضاء حاجة، قالت بهمس:

– بنتي ليش ما رديتي عالتليفون والرسائل، ردي، ناصر عم ينتظرك.

هزت رأسها ولم تعلق بالكلمات على تساؤلها.

كانت زينب تتابع ما يحصل منذ مساء الليلة السابقة، وقد أدركت أن ابنتها رتبت لشيء لكنها تراجعت عنه بعد أن لمحت عدم استجابتها للرسائل وارتجاج الجوال الصامت في اتصالات متلاحقة، إلا أنها ادعت جهلها بكل ما يحصل، لكنها، وسط هذه الحيرة، رأت خيار السفر كأمر واقع، أفضل الحلول لمشكلة ابنتها منى، حتى لو وضعها ذلك في موقف محرج ومتعب أمام زوجها وابن حميها فريد وزوجته، لأنها اعتبرت أن الحل الوحيد لهذه المصيبة هو بسفر ابنتها «كخطيفة» مع ابن جيرانهم ناصر، قدمت القهوة للأم بيدين مرتجفتين ثم جلست تتابع دردشات زوجة أخيها مع جارتها «فرحة» وهي صامتة.

حين عادت إلى حي الميدان، رأت ناصر يمشي في الشارع مثقلاً بحيرة لا يعرف سببها ويفهمها سواها، طلبت منه أن يتبعها إلى البيت.

حين جلس الاثنان باشرت أم ناصر بالقول:

– ما قدرت أفهم منها شيء لأن أمها ومرت عمها موجودين، بس أنا شايفة أنها خايفة ومالا قادرة تاخد قرار يا ابني، مترددة كتير ومحتارة.

تساءل ناصر:

– قالت لك شيء؟ كيف عرفتي؟

ردت:

– عرفت من صمتها ولأنها ما ردت على سؤالي لما سألتها ليش ما رديتي عالرسائل البارحة هزت براسها وما جاوبتني أبداً.

صمت ناصر يفكر ويقلب الأمور.

طالت الساعات ريثما حل المساء، كانت أغراض ناصر الخاصة بالسفر جاهزة، مرتبة في حقائب صغيرة، كل ما تبقى له هو رد منى كي يفهم ما حصل ويعرف منها ما تنوي فعله بخصوص قرارهما واتفاقهما، أرسل رسالة لها ولم تجب بعد أن انتظر أكثر من ساعة، عقب منتصف الليل أرسل لها رسالة أخرى واتصل فوجد الهاتف النقال مغلقاً، ظل مستلقياً طوال الليل وأمه تستلقي قريباً منه تقلب الأمور بقلق محاولة التخفيف عنه بين وقت وآخر.

في الساعات الأولى للصباح، نهض بعصبية واقفاً، وتوجه إلى حقائبه التي حملها بعد أن رتب شعره وتأكد من محفظته، ودع أمه التي دارت إحساسها بالانهيار، وفتح الباب ومضى، بكت فرحة بمرارة، ارتمت على الأريكة خائرة القوى، انهالت عليها كل الذكريات دفعة واحدة، صغيرها في أم الطين، زوجها قبل أن يموت، الخرزة الزرقاء كي تحميه من العيون الحاسدة، دراسته في المرحلة الابتدائية، حبه وتعلقه بمنى، قراءاته، وأحلامها أن يصبح ضابطاً قوياً في الشرطة، وسهرها عليه في مرضه وقلقها في أيام

الكوليرا، خوفها عليه في برد الشتاء ونهوضها ليلاً كي تغطيه، تداعت كلها في ذهنها وانفجرت تبكي، نهضت أختها نجوى من نومها تخفف عنها دون جدوى، حلم العمر وغايته وكل دنياها غادرتها دفعة واحدة إلى المجهول أو ربما إلى الموت، لم تتوقف عن النحيب، ومع سيل دموعها، لم يتوقف تدفق شريط الذكريات التي عاشتها وهي تكبر معه وتراه أمامها كنجمة العمر التي لا تنطفئ.

* * *

للمرة الأولى يودع ناصر البلاد التي كانت مهد طفولته ويفاعته، البلاد التي أنجبت له حبه الأول منذ صغره، عاش فيها متنفساً نسائم الصيف ولياليه، ولعب بالثلج وركض في براريها الباردة، متخيلاً أباه الذي لم يره يركض معه ممسكاً بيده الصغيرة يملؤه الفرح عبر المسافات المفتوحة، ويشق بصدره العريض رياحها الصقيعية، يقفز معه فوق ساقية وراء أخرى ثم يصعد دون إشارة سابقة، ويختفي في أعالي الأشجار حتى يغيب هناك، في مكان ما في السماء.

ظل يقلب صور أمه وأبيه ومنى في هاتفه الجوال والدموع تسيل بصمت من عينيه، استدار ليشاهد أرضاً أخرى تتراكض حتى الجبال، جميلة مترعة بالخضرة لكنها لا تخصه، ولا تحرك فيه شيئاً.

شجرة المشمش وعلى طرفها النبع الصغير، تداعت إلى ذاكرته مع ذكرياتها التي حملت له أنفاس منى ودفء لمساتها وصوتها

الخجول، انحنى يشرب معها من ذلك النبع، حين قبض على الماء براحتيه وسال الماء بدوره على معصمها وهي تضحك، خيل إليه أنه بكى، ولم يكن يعرف آنذاك لِمَ يبكي، بدا حينها صغيراً تشرده العواطف، تروح به هنا وهناك، بين أمه وأبيه الذي كان يبتسم كلما رآه في الصورة، يبتسم له بعيداً ورافضاً أن يكون ابنه الوحيد يتيماً، «وأم الطين» بترابها وحجارتها وسماواتها المفتوحة على حب واحد، هو ومنى، هو وأمه، هو والبكاء الذي ولد معه ولم يتوقف، دخلا معاً باب الصباح وعلقا في دروب الليل بلا خروج.

عندما وصل مدينة غازي عنتاب دار في الأمكنة ضائعاً بلا روح، سأل الناس فيها عن كافتيريا يشرب فيها القهوة، سألهم عن صديقه أمين وأبيه، لم يجب أحد، كانوا غرباء حتى الجفاف، أشعل سيجارة دخنها مع قهوته، وبدا له كل شيء تلك اللحظة هارباً في مساحات مفتوحة، أيقظه النادل بعدها وهو نائم ورأسه ملقى على الطاولة، نهض ومضى متجهاً إلى أقرب مركز للشرطة، كما أرشده صديقه أمين، بعد أن شتّتت روحه الغربة ووحشتها في الطرقات، أبلغ عناصر المركز بالإشارات ثم بمساعدة شاب مترجم أنه قادم من بلد الحرب هناك إلى الجنوب من غازي عنتاب، سوريا وقريتها التي نذرت لكي تبقى وحيدة وسط الرعب والغبار، «أم الطين».

بعد أن وزعت عليه منظمات دولية إنسانية بطانيات وألبسة، أمنت له مكاناً ينام فيه، شقة مع بعض الشبان، نام ليلتها كالميت من إرهاق السفر، وحيداً في سرير جاف لأول مرة، ولم يكن وقتها قادراً قبل النوم، على استحضار أهم اثنين في حياته، أمه ومنى.

بعد أن صحا ناصر صباح اليوم التالي لوصوله، قلّب في أمتعته التي أحضرها معه، أخرج صور أمه وأبيه ومنى، وأثناء بحثه في الحقائب بشكل عشوائي، وقعت يده فجأة على ورقة ملفوفة بكيس فضي لامع ومخاطة معه، عرف لحظتها أن أمه لم تنس أن تدس له بين أغراضه الحجاب، تعويذة الخرزة الزرقاء.

لم يهدأ جرس الباب صباحاً حيث صحت أم ناصر وأختها نجوى بعد أيام من رحيل ناصر على رنينه المتواصل، شعر الجميع بالخوف بسبب الأحداث الدائرة، لم تتعرف نجوى على الرجل الذي كان يقف أمام الباب، وللوهلة الأولى ظنت أنه شحاذ يطلب إحساناً، لكن أم ناصر هرعت إلى الباب فور سماعها لصوت الدرويش أحمد، بكت حين رأته بعد زمن، بغطاء رأسه الأبيض، وجلابيته البنية المتسخة، أدخلته إلى الصالون، هناك جلس الشيخ أحمد على الأرض، ورفض الجلوس على الكنبة رغم إلحاحها عليه، قال لها إن الأرض سرير الإنسان ومنتهاه، وأن أحباء الله هم من يفترشونها كالصحابة والرسول، قبل أن تخبر أم ناصر الشيخ عن سفر ناصر، سارع الأخير إلى القول:

– كان عليه أن يتريث قليلاً قبل السفر يا أم ناصر.

فاجأها كلامه وعلمه بالخبر، سألته:

– من وين عرفت أنو ناصر سافر؟

لم يرد الدرويش واستدرك قائلاً:

– هل أعطيته «الحجاب»؟! أرجو ألا تكوني قد نسيته.

أجابت على الفور:

– بالعكس، هذا هو الشيء الوحيد الذي ما نسيته، وضعته بين أمتعته في الحقيبة.

هزّ الدرويش رأسه مطمئناً، ثم طلب كأس شاي ثقيل، نهضت نجوى لتحضيره، سألته أم ناصر عن أخبار البلدة وأهلها، أجابها إن أم الطين أصبحت بلا ناس تقريباً، بيوتها المأهولة معدودة وإنها تتعرض للقصف والاشتباكات اليومية، ثم أخبرها عن صعوبة تأمين المواد الأولية وقلة الغذاء، «صارت الحياة صعبة تسوء كل يوم»، أخبرها.

«يا حسرتي شو صار بهالبلد، الله يسترنا من اللي جاي» عقبت أم ناصر.

بدأ الدرويش يحكي لفرحة وأختها ما يحصل في البلدة وذكر لها تفاصيل القصف الأول الذي حصل منذ فترة شهور، توفي خلاله بعض الناس وأصيب آخرون كما تهدمت بعض البيوت، ثم استطرد فذكر لها أنه زار جميلة المنسية التي كانت مهجورة تماماً في القرية التي لجأت إليها.

سألته ما الذي دفعه لزيارة امرأة سيئة السمعة آذت الناس في البلدة، فأجاب:

– يا أم ناصر، مع كل ما بدر منها، تبقى امرأة وحيدة وبذرة الخير موجودة في كل منا، علينا هدايتها والوقوف بجانبها في أيام مريرة كالتي تمر بها.

صمتت أم ناصر ولم تعلق.

ثم حول الدرويش حديثه إلى سفر ناصر، أكد لها مواسياً أنه

سيكون بحمى الله، وأن وجوده خطر عليه في تلك الأحداث، وطلب منها أن تصلي وتدعو له، أمامه بكت أم ناصر كما لم تبكِ من قبل إلا بعد وفاة زوجها، كأنها شعرت أنه الشخص الوحيد الذي ترتاح له وتشكو همومها وحزنها، حاول التخفيف من وطأة غياب ابنها عليها، وقبل أن يمضي، حملته أم ناصر كيس مؤونة صغير لأنها أدركت مدى البؤس الذي تعيشه البلدة آنذاك، ودعها ومضى وسط حيرتها من لغز إحساسه بها في لحظات تعبها الشديد وهي ترزح تحت ثقل وحشتها وحزنها لسفر وحيدها ناصر، وكانت بذلك تزداد يوماً بعد يوم، إيماناً بحظوته عند الله ومكانته الكبيرة.

بعد إدراكها لأزمة ابنتها منى الحرجة، حاولت زينب أن تؤخر موعد سفرهم إلى مصر مع زوجها نادر، ريثما تجد حلاً تستطيع من خلاله تمكين منى من اللحاق بناصر كخطيبة له، إلا أنها وجدت مصاعب شتى، منها عدم قدرتها على ادعاء طلب الأخير ليدها وحصول مراسم خطبة لأنها ستضطر إلى تقديم مبررات مقنعة للأب وإعلامه بكل التفاصيل وأخذ موافقته، إضافة إلى وجود عائق آخر هو العم فريد الذي من المفترض أن يكون على علم بكل ما يحصل لعائلة أخيه ومن المؤكد أن أخاه نادر سيسأله ويستشيره في الأمر كونه على تماس مباشر مع عائلته، قلّبت الأمر في ذهنها ولم تجد مخرجاً معقولاً ومقنعاً لا يثير تساؤلات زوجها إذا هي رتبت لابنتها منى السفر إلى تركيا واللحاق بناصر، فأمام الأب والعم لن يكون ذلك سهلاً أو طبيعياً، ظلت ليالي طويلة وهي لا تنام تحاول إيجاد سيناريو هادئ لا يضعها موضع

المساءلة أمام زوجها، إلى أن استسلمت لإلحاح الأب واستغرابه عن سبب تأخرها في المجيء.

كان الأب قد رتب لهم الحجز في طائرة إلى القاهرة عبر مطار بيروت، قبلها بأيام باشرت العائلة بترتيب أغراضها ومستلزمات السفر الأولية، لم يخفَ على العم فريد وزوجته ابتسام قلق وتوتر منى وأمها أثناء ذلك، إذ بدت الابنة وكأنها تفقد توازنها بفعل الاضطراب من الرحيل الوشيك، إلا أن زينب بررت الأمر لدى تساؤلاتهما «إنه قلق وارتباك ما قبل السفر»، نهضت العائلة في الصباح الباكر ليوم الأربعاء من أيام أيار وتوجهوا جميعاً بمرافقة العم فريد إلى السيارة التي ستأخذهم إلى مطار بيروت، وبعد مغادرة الحدود السورية فقد ناصر إمكانية التواصل مع منى عبر الهاتف النقال، عاش الاثنان حالة توتر مميت كل على حدة، دون أن يشعر أحد بما فيه عدا منى التي كانت أمها زينب على علم بحالها، تراقب ذلك بقلق وصمت ونظرات متابعة، انهمرت دموع منى في مطار بيروت قبل أن يتجه الجميع في قاعة الانتظار إلى الطائرة، أشارت إليها أمها أن تداري دموعها وتتوقف عن البكاء، إلا أنها لم تستطع.

أصبحت «أم الطين» وذكرياتها المحرقة خلفهم، كما بقي البلد يرزح تحت ثقل النار والحرب، تركت العائلة البلاد لمن تبقى ينتظر المجهول، الجميع أمام غدٍ أو لحظة قادمة تتربص في مكان ما، كوحش يرصد فريسته في غفلة منها، أم ناصر، الخالة نجوى، والعم فريد وزوجته، والشيخ أحمد، و «أم الطين» الغارقة في الأتربة

والظلمة، هكذا فكرت زينب وكذلك هجست منى من بين انفعالاتها ودموعها وحنينها الذي صار مزيجاً غامضاً من كل شيء.

شعرت زوجة العم ابتسام بتوعك بعد يومين من سفر زينب وعائلتها، وغمرت الفرحة العم فريد حين علم، بعد عودتها من زيارة طبيبتها أنها حامل، لم تعد الدنيا تسعه من السعادة التي أنسته كل شيء، وغمر زوجته طوفان من المشاعر المختلطة، من البهجة والطيران في عوالم تزداد بهاء لحظة بعد أخرى، ومن الزهو بكونها انتصرت على جدب رحمها وجفافه أمام الجميع.

ومنذ ذلك الحين، أصبح الزوجان المتوحدان، يعيشان حياة عائلية يملؤها طفل لم يولد بعد، لكنه صار ضمن جميع الحسابات، شاركهما أحلامهما محتلاً مكانة مميزة في كل ركن، كائن حقيقي مرتجى ومحبوب، يتحرك في كل زاوية من زوايا البيت الذي ترك سفر عائلة الأخ نادر فراغاً ظاهراً فيه.

أمنت منظمة دولية لناصر في غازي عنتاب عملاً كمنظم لنشاطات دعم أطفال النازحين، خلالها بدأت تتحسن لغته التركية، وكذلك بدأ موقعه في العمل ينمو ويزداد الطاقم اعتماداً عليه، وشرع ينشط مكرساً معظم جهوده لتطوير أدائه اليومي، واعتاد أن يلتقي بصديقه أمين وأبيه اللذين استدل على مكانهما عبر المسنجر، في مقهى وسط المدينة كل أسبوع، ما خفف عليه وطأة الغربة والوحدة، في بلد لا يعرف فيه سواهما، كذلك بدأ أمين العمل مع أبيه في شركة شحن كمحاسب ومراقب لترحيل الطرود والإرساليات واستقبالها.

اشتد الحصار وانعدام الأمن في حلب، وصار السفر إلى قرية صغيرة يستغرق ساعات طويلة، رغم أنها تبعد مسافة نصف ساعة عنها، خلال ذلك لم يعد بإمكان المزارعين متابعة شؤون أراضيهم وتأمين متطلبات الزراعة من فلاحة وبذور وري، أصبحت الأراضي مجدبة مهملة، ما دفع العم فؤاد لإخبار أم ناصر لتكون على علم بانعدام عائدات محصول السنة الجارية بسبب توقف الزراعة وغلاء المحروقات وعدم توفر البذار واليد العاملة.

بعد ذلك أصبحت «فرحة» تعتمد على راتب زوجها المتوفى التقاعدي، وأمام تصاعد موجة الغلاء اضطرت أن تعلم ابنها ناصر بتردي الأوضاع وصعوبة الحياة بسبب عدم توفر بعض المواد وغلاء بعضها الآخر، حين علم الأخير أن أمه تعيش ضائقة مادية، بدأ يرسل لها أمانات مع قادمين إلى حلب ممن تعرف إليهم آنذاك عن طريق بعض النازحين السوريين، أكراد وعرب وتركمان، ولم ترض فرحة حينها بإلقاء حملها على أختها نجوى رغم ظرفها المادي الجيد قياساً بالآخرين.

وفي الفترة ذاتها، ازداد شحوب وجه الدرويش أحمد ونحوله، عزا البعض ذلك لنشاطات الذكر التي يقيمها وحيداً في بيته الصغير، لا ينام الليل حتى الصباح، ومع شح العطايا التي كان يتلقاها من أهالي البلدة، من طعام ولباس، ومع اشتداد الأزمة والحصار وانعدام الأمن في طرقات السفر، لم يعد هؤلاء قادرين على تأمين وجباتهم الأساسية، وصاروا عاجزين عن التصدق على الدرويش سوى ببعض الأرغفة كل بضعة أيام.

لكنه رغم الوهن والتعب، خرج صباحاً بعصاه التي تآكلت من الأسفل، وقف أمام الحاجز في مدخل القرية يريد الخروج، بدأ يصرخ في وجههم حين منعوه لأن المنطقة والقرى المجاورة أصبحت منطقة عسكرية يمنع تجول المدنيين فيها، ضربوه وعلا صوته يشتمهم، وهمّ أحدهم بإطلاق النار عليه لولا تدخل البعض ومنعه لأنهم أصبحوا على علم بوضعه في البلدة، وارتمى على الأرض يضرب التراب بقدميه ويتمرغ محتجاً إلى أن يئس العناصر وسمحوا له بالمغادرة أمام موت محتم، إذ لم تكن سلامته تهمهم من بعيد أو قريب.

خرج الدرويش أحمد من «أم الطين» عابراً الشارع المقفر، تحت أصوات المدافع الرشاشة والقذائف القريبة نسبياً من المكان، وأخذ يشير بيده لسيارة بيك آب محملة بالعناصر المسلحة المعارضة كي تقله إلى مكان آخر، مهما كان اتجاهه، ظل طويلاً يحرك يديه وسط أصوات الرجال المسلحين وسخرياتهم، حتى توقفت سيارة تحمل المؤن قدّر سائقها أنه متسول وسمح له بالركوب، بعد نصف ساعة نزل على مفرق طرق لم يكن يعرف إلى أين تفضي، تساقطت منه حبات العرق تحت شمس حزيران، لكنه كان يسترشد بالطيور المحلقة كي يستدل على الجهات وحين استقل حافلة أخرى أوصلته إلى مفرق قرية المريولة الصغيرة التي هربت إليها «جميلة المنسية» كان عليه أن يمشي مسافة ساعة حتى يصل وسط خطر الحواجز والدراجات النارية التي تمضي جيئة وذهاباً وتفتح النار باستخفاف على من لا يروق لها في

الطريق، لم يكن أحد من أهالي «أم الطين» يعرف أن الشيخ أحمد استمات أمام عناصر الحاجز وهو ينوي زيارة «جميلة» وتمرغ في التراب من أجلها، وخاطر تحت النار كي يراها، وأنه كان يستحضر صورتها في وكره الصغير ويكافح خيالها الملح في حفلات الذكر كي يبعده عنه ولا يعانقه عارياً، ويجعله يستسلم لشيطان الرغبات، وقع في حبها بصمت، واستسلم للأمر كما سلم روحه يوماً للإيمان وأسرار نجوم الصباح الخافتة وخيط الفجر وهو يمتد من آخر نقطة أعلى الجبل هناك، واصلاً إلى الحقول المترامية، باسطاً نفسه تحت قدميه.

اجتاز الدرويش كافة الحواجز كطيف ولم يره أحد، مر ببعض النسوة والرجال اليافعين وهو يمشي واثقاً أنهم لن يروه، وحدهم الأطفال الصغار كانوا يرونه يمشي وسط الجدران ويعبر تجمعات الرجال وهم يشربون الشاي، ويشيرون بكلمات متلعثمة غير مفهومة إليه لكن الكبار كانوا ينظرون حيث أشارت أصابعهم ولا يرون شيئاً، فيعودون إلى حكاياهم مع ضوء شمس العصر وأكواب الشاي الثقيل.

لم يكن الدرويش، حين وصل باب بيت جميلة المنسية، بحاجة أن يدق الباب، دخل واستقر هناك على كرسي صغير وجلس يراقبها بصمت، كانت منهمكة في غسيل ثيابها يدوياً داخل وعاء كبير، بدت حزينة وحيدة على عكس ما كانت عليه أيام أم الطين، وجهها شاحب وشعرها ينسدل على كتفيها وظهرها، بينما انكشف ثوبها الفضفاض عن ثدييها الأبيضين النافرين وبانت

ساقاها الملساوان اللامعتان كسطح تمثال برونزي، مد الدرويش يده وداعبها من ساقيها، فارتعدت خائفة، لم تكن قادرة على رؤيته، ثم رفع يده وداعب صدرها المكشوف، فنهضت مذعورة تتلمس جسمها وتتلفت «يا الله، احرسني يا رب»، قالت بصوت فزع مسموع، وحين أدرك الشيخ خطورة بقائه صامتاً كلمها قائلاً:

– لا تخافي، أنا الشيخ أحمد جئت للاطمئنان عليكِ.

سمعت كلماته التي جاء وقعها أنيساً ولطيفاً أدخل على الفور السكينة إلى قلبها

– جئت لأطمئن عليكِ، في هذه الحرب، لست قاسياً مثلهم، أعرف أنهم يرغبون فيك جميعاً ولا يبوحون بذلك، كلهم يكذبون، أما أنا فلا أقول سوى الحقيقية، كيف حالكِ؟

ردت وقد بدأ وجهها يتراخى متحرراً من تشنجات الرعب، وارتسمت نصف ابتسامة عليه:

– أنا بخير يا شيخ أحمد، بس وحيدة وما إلي حدا، حاسة بالوحشة.

رد الشيخ أحمد بقلق مرتجف يحاول الاتزان وادعاء الرصانة:

– لا تخافي، أنا معك، سأحميك من كل من ينوي السوء لكِ، لأنك تسكنين قلبي منذ سنين، أحلم بك ليل نهار.

ابتسمت جميلة بين مصدقة ومشككة ثم سألته بتردد:

– أكيد يا شيخنا؟ يعني أنت مو مع الناس اللي طردوني من البلد بسبب سمعتي؟

رد بهدوء:

- أكيد لست معهم، لأنهم كاذبون، أنا معك أينما ذهبتِ لن أتخلى عنك مهما مر الزمن.

بدأت عيون جميلة تزيغ متنقلة بنظرات متوترة في أرجاء فراغ الغرفة وتأتأت قبل أن تتمكن من نطق كلامها:

- يعني أنت عم تحكي جد شيخ أحمد؟ أنا مو مصدقة أذني وعيني.

- لا صدقيني، أنا جاد ولن يتمكن منك شر طالما أنا موجود وحي.

استرخت جميلة وطلبت منه أن يجلس على السرير ريثما تحضر له الشاي، جلس الشيخ مضطرباً ينظر إلى حركاتها المثيرة.

حين مالت على إبريق الشاي لترفعه من على النار، نهض الشيخ أحمد وحضنها من الخلف بحنان ووله، ارتعدت جميلة ثم راحت تهدأ مع كلماته التي انسابت متهادية مدلهة:

- أحبك يا جميلة، منذ أن طردوك وأنا أتألم لما فعلوه، أحلم بكِ ليل نهار، في صلاتي وفي دعائي وفي نومي، أقيم ذكري كي أستحضركِ قريباً مني، في وحشتي وظلام عمري لقد رسمتِ لحياتي معنى آخر، كنت ضائعاً، مشرداً ووجدت نفسي فيكِ.

ابتسمت جميلة لكلمات الشيخ العذبة ولم تستطع أن تستخف بكلامه العاشق المجنون، بدأت تتراخى شيئاً فشيئاً تحت وقع الملامسات الراجفة الحارة الخائفة، ومع الوقت اقتربت أكثر من الدرويش وهو يهتز من داخله وقد رجع الاحمرار إلى وجهه الشاحب منذ سنين.

في تلك اللحظة، عاد ليعيش في بيت العجوزين، أمه وأبيه، وقد زال عنهما أثر السم، وهما يرتبان له سريره وطعامه، كانا يضحكان بلا نهاية، صحا الشيخ أحمد على وقع يد جميلة المنسية وهي تداعب لحيته وصدره، مد يده إلى شعرها ومال على عنقها بعد أن نزع غطاء رأسه، قبلته من جبينه بمحبة، ورد قبلتها بقبل حارة من الجبين والرأس والصدر، تراخت جميلة بتأثير الشبق وداعبت ظهره تحت عباءته وكلابيته، وجدته منتصباً بقوة لكن يردعه الخجل، أنزلت ثوبها الأسود كاشفة حمالة صدرها وبطنها وفخذيها، انتزع الشيخ أحمد الحمالة وداعب النهدين بحرارة بينما مدت هي يدها إلى ركنه المنتصب وداعبته ثم قبلته من فمه فارتجف الدرويش كمصعوق، ثم تمدد على السرير، نزعت سروالها الداخلي ونزعت له كلابيته ثم سرواله المتسخ، داعبها من المكان الأكثر إثارة في جسدها، المكان الخالي من الشعر، ثم مدت يدها ودلت مارده إلى مغارتها الصغيرة، نهضا من السرير وأدخلته الحمام الصغير، دلكت جسده بالماء والصابون وهي تغني له كطفل ثم جففت جسده بفوطة معطرة، وقبل أن ينفتح الباب ويدخل رجال مسلحون، صحا الشيخ، بعد غفوته ليجد نفسه على سريره في أم الطين، مرتجفاً، خائفاً، لكنه مشرق من الداخل كمن خرج للتو من الجنة، تذكر لحظتها أنه غادر البلدة إلى حيث تعيش جميلة المنسية وحين وصل لم يستطع الدخول إلى القرية، فعاد خائباً واستلقى على سريره يستحضرها بأدعية الحب الموله، ثم بعد ساعات من الانكشافات الساحقة التي عاشها، خر متعباً على

سريره وغط في النوم، ليعيد الكرة ويزور معشوقته داخل بيتها الصغير ويغتسل عندها من تعبه وأوساخه تحت نغمات الأغاني الطفولية المهدهدة.

* * *

كاد التوتر والإعياء يودي بحياة منى في القاهرة وسط خوف واستغراب أبيها الذي بقي يتساءل عن سبب مقنع لانهيارها ذاك، مختلف عن تبريرات زينب أنها تشعر بالغربة وتعاني من اختلاف الأجواء والبيئة التي اعتادت العيش فيها، نقلها أبوها إلى المشفى بعد أن أغمي عليها إثر ليالٍ طويلة من الأرق وعدم القدرة على تناول الطعام، ولم تجد زينب، في موقفها المثير للارتباك والحيرة أي مبرر آخر غير ما ادعته أمام زوجها الملح بأسئلته، أعطيت السيرومات والمهدئات في المشفى ثم خرجت مع أهلها وهي لا تزال في صمتها حبيسة غربتين، الأولى غربتها عن ناصر والثانية غربتها في مصر، دخلت البيت بمرافقة أمها وأبيها واستلقت على السرير مستسلمة لصورها مع ناصر في «أم الطين» وحلب، ولحظات ما حدث تحت شجرة المشمش الكبيرة في البلدة، اهتم بها أبوها حيث لازم البيت معها يتابعها ويحضر لها الأطعمة المختلفة والعصائر والفاكهة ويلح عليها بالأكل وتناول المقويات، استغلت زينب فرصة ذهاب الأب وحدثتها بخصوص حبها لناصر وبعده عنها:

– بنتي ناصر الآن بتركيا وما بتعرفي شو ربنا كاتب ومقدر لنا، ممكن تجتمعي معو، الموضوع مو مستحيل، بس خلينا نلاقي

طريقة مقنعة مشان أبوكي، لازم يكون في مقدمات حتى نفتح بعدها هالقصة، طولي بالك إن شا الله بيمشي الحال.

هزت منى رأسها باستسلام وصمت ولم تنبس بكلمة تعليقاً على حديث أمها، سمعتها زينب تقول بصوت خفيض «إن شاء الله» ثم تتابع سكوتها، خرجت وهي تشير لها أن تخفف عن نفسها ولا تفكر، لكنها حين وصلت المطبخ، أصبح ذهنها يدور مقلباً الأمور يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً دون نتيجة مرضية، ثم، في لحظة يأس سلمت بالأمر ودفعها العجز إلى اتخاذ قرار أن تفاتح زوجها على أساس أن ناصر طلب يدها عندما كانوا في «أم الطين» في أول الأزمة، وأنها أرجأت الموضوع كي تفاتحه به ويتناقشا فيه فيما بعد، لكونه لم يكن موجوداً في سوريا آنذاك، قررت ذلك بجرأة من يقدم، بعد انعدام حيلته على رمي نفسه في النار «وليكن ما يكون» كما حدثت نفسها.

ساعدت زينب ابنتها منى على شراء شريحة مصرية لهاتفها النقال وضعتها الأخيرة فيه وأرسلت لناصر تخبره فيها أنه إذا كان مخلصاً لحبها وجاداً في متابعة مشواره معها، عليه أن يأتي إلى مصر ليطلب يدها من أبيها.

حين وصلت إليه رسالتها، قرأها ناصر فرحاً لكنه أصيب بالارتباك في الرد لأنه لم يكن يستطيع آنذاك ترك عمله ومغادرة تركيا والمجيء إلى مصر إذ إن الأمر يلزمه مبالغ كبيرة لا يستطيع تأمينها، تغطي سفره ومصروفه ريثما يعود، رتب الأخير رسالة لطيفة لها أخبرها فيها أنه سيفقد عمله فيما لو أتى إلى القاهرة

وأنه فضلاً عن ذلك، لا يستطيع تأمين المبلغ اللازم لرحلته تلقت منى الرسالة وأصيبت بالإحباط، معتقدة أنه يتهرب منها، ومذ ذلك الحين عادت إلى انطوائيتها وكآبتها أسوأ مما كانت عليه، عرفت أم ماهر، الأم، برد ناصر، فبادرت إلى إخبارها أنها عزمت على مفاتحة أبيها بالموضوع، وبعدها يمكن ترتيب أمر مجيء ناصر للتقدم لخطبتها وحينها ستحاول زينب مساعدته في رحلته.

كان ناصر يواجه مصاعب في إجادة اللغة التركية إذ لم تتجاوز حدود علمه بها سوى بعض جمل المحادثة التي تعلمها من خلال تواصله مع زملائه الأتراك، إضافة إلى إلحاح فكرة الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا عبر البحر، التي كانت قد انتشرت بين السوريين آنذاك، إلا أنه في واقع الأمر، لم يتخل عن منى وحبه لها، وإنما وقع بين مطرقة راتبه المحدود هناك وضرورة توفير بعض المال للنزوح إلى أوروبا وسندان ضرورة تقدمه لخطبة منى التي تعيش في مصر، أدركه الضياع آنذاك ولم يجد مخرجاً حقيقياً أمام ضغوطات الحياة والاستجابة لمشاعره وحبه الذي يمارس سطوته العاطفية على الطرف الآخر أيضاً.

في مساء من مساءات حزيران حين كانت العائلة تتابع الأخبار في مختلف القنوات الفضائية بأعصاب مشدودة، بادرت زينب وفتحت موضوع خطبة ناصر لابنتها قائلة:

– نادر أنت بتعرف ناصر ابن فرحة، ناصر الصالح.

فرد متسائلاً:

– أي بعرفو شبو؟

أجابت وضربات قلبها تتسارع:

– من ثلاث سنوات طلب إيد منى مني وأنا ما عطيتو جواب لأنك مسافر في ليبيا، حبيت أحكي معك فيه وأسألك عن رأيك.

رد بسرعة واستغراب:

– من ناصر الوحيد ابن جارتنا فرحة؟

أجابت:

– نعم هو نفسه.

رد بنبرة مليئة بالدهشة:

– عم تحكي عن جد؟ ناصر صغير، أصغر من منى بسبع سنوات، شو انتي مجنونة؟ عم تحكي جد؟

ردت بإحساس متزايد بالخوف الممزوج بالارتباك:

– أي عن جد عم بحكي، ناصر كبر وصار شب كلو أخلاق واتزان، مثقف وبحب منى، أنت نسيتو بسبب غربتك بس هو هلأ إنسان ناضج ومحترم، بصراحة أمو طلبت إيد منى مني، بس أنا ما جاوبتها حتى استشيرك.

امتزج صوته بنبرة الاستغراب والدهشة وعدم التصديق:

– شو رح ياخد بنتك وانتي متأكدة أنو رح يستمر معها، بكرا بينشغل بوحدة أصغر منو بيتزوجها وبيرمي منى وراه، شبك سبع سنين فرق في العمر، أنت ناسية أنو هالكلام بصير بس في البداية، بعدين كل شي بينقلب؟!

– بس هوه بحبها أنا متأكدة وبعرفو منيح وأمو مرا أرملة صادقة ربتو كتير كويس.

أجاب باستهجان مستبعداً الفكرة كلياً:

– إي هيه صادقة وكلامها على عيني، بس بكرا بتغير ابنها كتير، مو بإيدو أو بإيدها، انسي هالكلام وقليلها ما وافق أبوها، ما في نصيب.

سرت قشعريرة كتيار كهربائي في جسد أم ماهر التي تدرك معنى ونتائج قرار زوجها هذا على ابنتهما منى، لكنها لم تكن قادرة على متابعة الحوار بعد رد زوجها نادر القاطع واستبعاده للموضوع.

سمعت منى الحديث الذي دار بين أبويها، لم تفاجأ ببردة فعل الأب، إذ كان الرعب والخوف من القادم السيء يسبغ معظم توقعاتها التي رسمت نفسها القلقة وهي تهجس بالاحتمالات الممكنة، اصفر وجهها وظلت في غرفتها حيث توجهت بعد سماع الحديث إلى سريرها وألقت بالشرشف الرقيق على رأسها مغطية جسدها بالكامل.

أدركت زينب أن منى في أسوأ لحظاتها وكآبتها، حاولت إقناعها برفع الشرشف عن وجهها إلا أنها لم ترد، تمددت على السرير كالميتة ولم تستجب لنكزاتها وطلباتها بالحديث معها.

صباح اليوم التالي، بعد أن غادر أبو ماهر البيت إلى عمله، نهضت منى وأرسلت رسالة تخبر ناصر بموقف أبيها، قرأ الرسالة ورد برسائل متلاحقة يسألها لماذا وكيف وما المانع، إلا أنها أكدت برسالة أن أباها لم يوافق بسبب فارق العمر ولا يبدو أنه سيغير رأيه هذا بسبب رده الحازم، ثم تابعت دورانها التائه في أركان غرفتها وباقي أنحاء الشقة ضائعة مكبلة.

حوصرت المدينة، حلب، وأضاف حصارها حلقة أخرى فوق حلقة الحصار الروحي الذي يطبق أقواسه على فرحة التي باتت مرتبكة مختنقة مع أختها نجوى وولديها كريم وآية.

صار جلب الماء بالغالونات والغاز والمواد الغذائية من المهام الشاقة التي عليهم إحضارها بأنفسهم لكي يتابعوا العيش، وبدأ يتضاءل دخلها أمام الغلاء الفاحش وانخفاض قيمة سعر الليرة السورية وارتفاع أسعار المواد الاستهلاكية التي شرع تجار الأزمات بالتحكم بها بصورة وحشية، ساعدت فرحة أختها نجوى مع أولادها في سد ثغرات الغلاء، أصرت أم ناصر على المساهمة في المصروف رغم أن أختها نجوى لم تكن بحاجة لأن زوجها يرسل لها ما تحتاجه من السعودية، أطفال يحملون الماء ويصعدون به الأدراج العالية للأبنية، ومسنون يحملون أسطوانات الغاز والخضار الشحيحة المتوفرة في السوق، وغياب واضح للشبان في شوارع المدينة هرباً من خدمة العلم وبحثاً عن فرص أخرى أمام انعدام إمكانات العمل في المدينة وقراها.

في تلك الآونة، شعرت أم ناصر وكأنها تناثرت إلى أجزاء تعوم في الفضاء، وأدركتها الحسرة على الأيام الغابرة قبل الأزمة، حين كانت تعاني من فقر زوجها المتوفى عبد المعين ومرضه، «كانت أيام خير ونعمة لا تتكرر»، كما علقت أختها نجوى التي ازدادت نحولاً آنذاك.

ثم في لحظة تأمل سرحت فيها بالأحداث الجارية ووحدتها وغربة ابنها، قررت أن تلحق به إلى تركيا هاربة من الأزمات التي

لم تعد تطيقها، عرضت الأمر على ناصر في مكالمة معه، ووافق الأخير مؤكداً لها أنها ستكون في وضع أفضل إذا أتت، وأنه سيحضّر أمور مجيئها إلى غازي عنتاب قريباً، لم تعد الساعات تنتهي منذ وعدها ابنها بإحضارها إليه، مضت الأيام ببطء وضاقت بها الدنيا وأصبح إحساسها كمن ينتظر طائرته المتأخرة في قاعة الترانزيت، لا هي في حلب ولا هي في تركيا، وبدأت في وقت مبكر بتحضير أمتعتها وكأنها ستغادر غداً، وضعت في صرتها قرآناً وكيساً من الحنة وصابون الغار والخرزة الزرقاء الأولى التي أعطاها إياها الشيخ أحمد بعد وفاة زوجها بوقت قصير، ودعت في سرها أن يلهمه الله فيمر عليها قبل أن تسافر فتراه وتطلب منه الدعاء لها ولابنها ناصر، لم تدر فرحة آنذاك أن الدرويش كان يرزح تحت حمى الحب ويتقلب في سريره في منزله، محاولاً طرد الشيطان الأسود الذي ظهر له بصورة «جميلة المنسية» عارية تدعوه، ولا ينام قبل دخول الصباح.

حمى من الأدعية والأناشيد والتوسل إلى الله أن ينسى حبه، ملوحاً بعصاه في فضاء الوكر الصغير دون جدوى، تراتيل وتعاويذ ولا مخلص من ذلك الحب العنيد، حتى يبلل السائل الأبيض سرواله فيصاب بالإرهاق ويغط في النوم صباحاً وكأنه قد مضى عليه أيام طويلة بلا نوم.

أثناء نومها حلمت أم ناصر بالدرويش أحمد يزورها في بيت أختها نجوى ويهمس في أذنها قائلاً:

- احذري الأسلاك الشائكة، امشي بعيداً عنها.

كان يوشوشها وعيناه مليئتان بنظرات التحذير.

صحت من نومها ليلتها ودعت الله أن يجعل هذا الحلم خيراً، ولم يمضِ على تلك الليلة يومان حتى أخبرها ابنها أن تجهز نفسها في اليوم التالي، إذ ستمر عليها سيارة خاصة تأخذها إلى الحدود ومن هناك إما أن تعبر من المعبر الحدودي الرئيسي أو تدخل الأراضي التركية عبر السواتر الترابية والأسلاك.

في ذلك اليوم، حين وصلت أم ناصر الحدود، وجدتها مغلقة لأسباب لا تعرفها، بادر شاب صغير بمساعدتها لحمل حقائبها وأرشدها إلى الجهة التي ستعبر منها، صاعدة تلة ترابية ثم تجتاز مسافة تشكل ممراً ضيقاً ينتهي بها إلى حقل زيتون تصل بعدها إلى شارعٍ ينقلها إلى قرية تنطلق منها حافلات صغيرة تقصد غازي عنتاب.

ساعدها الشاب الذي رافقها وتابع معها المشوار إذ كان ينوي بدوره عبور الحدود بشكل غير شرعي ورافقها على الطريق كي تكون له بمثابة حماية كامرأة يراعيها حرس الحدود الأتراك «الجندرمة» ويسمحون لها بالعبور، بعد أن مشت أم ناصر مسافة مئة متر في الممر الترابي التالي للأسلاك، ركض الشاب إليها ودفعها من كتفها كي تحيد عن حافة مزروعة بالألغام الأرضية، ابتعدت دون أن تدرك ما حصل وتابعت طريقها إلى الشارع الرئيسي حيث أخبرها الصبي اليافع في سيارة الأجرة المتجهة إلى «كلس» أنها كادت أن تطأ حقل الألغام على يمينها، فارتعدت وحمدت الله على نجاتها وشكرته، ثم تذكرت على الفور حلمها الذي حلمته قبل يومين من

سفرها عن تحذير الدرويش لها، هزت رأسها موقنة أكثر بسره وحظوته الكبيرة عند الله.

تركت أم ناصر وكالة لأختها نجوى بقبض راتبها التقاعدي كي تضيفه إلى ما يرسله زوجها كمساعدة منها لها على الغلاء الذي استفحل رغم أن ما تقبضه لا يساوي شيئاً أمام المال الذي يرسله زوج أختها عمر، في تلك الأثناء كانت حلب تتنفس من ممر واحد لحافلات السفر عبر بلدة خناصر في الجنوب الشرقي الذي كان بمثابة شريان حياة وحيد للمدينة.

ازداد نحول منى في القاهرة وهي تعيش بصمت أزمتها الضاغطة أمام حيرة وقلق أمها زينب التي كانت تراها وتلح عليها كي تأكل وتتروى إلى أن تنفرج أزمتها ويخلق الله ما يهيّئ لها سبيلاً يلهم أباها الموافقة واللقاء بناصر قريباً، إلا أن كلماتها المعزية لم تجد نفعاً مع منى التي كانت ترى ذلك مجرد كلام لا يتحقق وأمنيات لا تريد التعلق بها دون جدوى، إذ إنها أدركت من نبرة أبيها وموقفه الحازم عقم المحاولات معه وانعدام الأمل في سياق كآبتها ويأسها، وكانت أمها تروح وتجيء في ذروة قلقها وقد أسقط في يدها.

وكذلك حصل أن الدرويش أحمد، داخل عزلته المميتة، في بيته الصغير، ظل بلا طعام عدة أيام، إثر ندرة المواد الغذائية لدى الأهالي، وضياعهم في غمرة ظروف الحرب وانعدام الأمان وهواجس الخوف وضغوطات الغلاء، اضطر فيها إلى أكل كسرات الخبز المتعفنة وبقايا الأطعمة القديمة الفاسدة، ورغم جفاف وقسوة

حياته هناك، وانطفاء مقومات الحياة التي لم يكن يرجو منها سوى القليل الذي لا يرضى به الآخرون إلا مرغمين، لم تجعله تلك اللحظات اليائسة الشاقة ينسى التفكير في الطريقة التي يستطيع من خلالها الوصول إلى «جميلة» أو إحضارها لتكون معه في وكره الصغير.

الحمامة التي اعتادت أن تقف في كوة صغيرة في جدار البيت، أصبحت مع الوقت، السر الذي يجعله قادراً على دفع الوقت الطويل، عبر أحلام مجنونة لا ضابط لها، هوس صوفي بمعشوقته تتجلى أمامه كروح سامية متعالية، تملأ عالمه الجاف ويكمل بها صلواته وتوسلاته لله، يرتل بها أناشيد تصل بين روحه الصغيرة المقفرة والكائن الفريد الشفاف السري الذي هو «جميلة المنسية»، حيث أصبحت صلته الوحيدة مع أوليائه وجميع الرسل والمقدسات.

نفحة رجف لها قلبه دون رحمة، ودخلت معها إلى بيته المتسخ الممزق، النسائم النقية من أعالي الجبال الخفية، نسي الجوع وكل الحاجات وعاش فيها معها، إلى أن خرج فاقداً الوعي كمخطوف بالقوى العليا، وهو يمشي مترنحاً في ساحة «أم الطين» الترابية وارتمى مغمياً عليه.

كانت سعادة أم ناصر لا توصف حين التقت ابنها بعد سفره إلى تركيا، رغم انفصالها عن أهلها وذكرياتها ومسقط رأسها الذي تركته في عمر يناهز الخمسين، صار أمامها خياران: إما حياتها الأولى في «أم الطين» وأيام عمرها هناك، أو حياتها الثانية والأهم

وهي ابنها ناصر الذي تغرب عنها فجأة، واختارت مرغمة بين الحياتين، الثانية التي يمثلها وحيدها الذي ربته وهي تخشى عليه من الهواء، الكائن الوحيد الذي هو منها ومن ذكرى زوجها عبد المعين.

استأجر ناصر شقة صغيرة له ولأمه وانفصل عن المنزل الجماعي الذي سكنه مع شبان سوريين، رتبه بشراء الأثاث المستعمل من السوق، وتكفلت أم ناصر بترتيبه وتنظيفه، استقرا فيه رغم أن ناصر كان يعيش أزمة متعاظمة بسبب عدم قدرته على الارتباط بمنى بعد رفض أبيها فكرة زواجها منه، آنذاك لم تعد تنفع فكرة سفره إلى القاهرة كونها لن تجدي نفعاً مع رفض أبيها القاطع للفكرة كما أخبرته، لاحظت أمه «فرحة» علامات على هاجسه المنغص هذا، ولم يقدم حديثها معه عن الموضوع شيئاً مجدياً، عجزت أمام جميع الاحتمالات، واكتفت بتشجيعه على الصبر ريثما يلوح حل ما من «عند الله» كما عبرت له.

ظل ناصر في جميع تحركاته وأنشطته اليومية، من عمل إلى زيارات ونزهات مع أمه، مكروباً منكفئاً صامتاً، وكانت أمه تراقبه بصمت وحسرة.

بعد أيام وجد ناصر فرصة متاحة لكي يفاتح أمه بشأن الهجرة عبر البحر واللجوء إلى أوروبا، متشجعاً بالموجة الجديدة التي شاعت تلك الآونة بين السوريين، فوجئت أم ناصر بالفكرة وأصابتها بالفزع، أحست أن غربة الدنيا هبطت فجأة على روحها، إضافة إلى خوفها من فكرة السفر بقارب مطاطي في البحر إلى اليونان، رفضت الأمر ولم تتقبله قائلة:

– أنا فكرة سفرك لتركيا بالكاد تحملتها، بدك أقتنع بموضوع هجرة لبلاد برا «أوروبا»! مستحيل، ورح نعبر أنا وياك البحر بقارب مطاطي؟! ما ممكن أبداً، انسَ هالفكرة ابني، هاد انتحار.

رد ناصر محاولاً إقناعها:

– ماما السفر بالقارب ما بخوف، الناس عم بتروح وبتوصل لأوروبا ليش خايفة؟ رفقاتي حاكوني من السويد وألمانيا وهنن بخير.

أجابت بنبرة رافضة:

– ناصر أنت بدك تأخذ نفسك وتاخدني معك عالموت أو الجحيم، أصحا لحالك؟

– طيب، بكرا رح تشوفي وتتأكدي أنو عائلات بكاملها عم بتسافر وبتوصل. رد ناصر.

تابع حديثه إلا أن أمه أشارت بيدها بما يفيد استبعاد الفكرة تماماً، وأحجمت عن المضي بالحديث في الموضوع نفسه، قرر لحظتها أن يصمت ريثما تعتاد ببطء على الأمر وتسمع بأخبار الناس المهاجرين للجوء إلى أوروبا، ظل الموضوع هاجس أم ناصر، لأنها تعرف جيداً أن ابنها حين يضع في رأسه فكرة ما، فإنه لن يتورع عن تنفيذها، وخشيت أن تنسحب هي كي لا يذهب بمفرده وتفقده، ففي ذلك الحين، فضلت أن تموت مع ابنها على أن يموت وحيداً بعيداً عنها.

في الأيام اللاحقة انضم ناصر لدورة في اللغة الإنكليزية لتحسين مستواه تحسباً لاحتمال احتياجه لها خلال سفره.

وفي الطرف الآخر في مصر، بدأت تنتاب منى نوبات عصبية هستيرية أثارت قلق أبويها اللذين أحضرا لها طبيباً إلى المنزل، وحين لم يستطع الأخير السيطرة على حالتها قرر ضرورة نقلها إلى المستشفى، مكثت هناك ثلاثة أيام تعالج بالمهدئات ومضادات الكآبة، وحين خرجت مع أبيها إلى المنزل قررت أمها زينب أن تفاتح زوجها نادر بإصرار أكبر كي لا تفقد ابنتها.

قبل ذهابه إلى العمل صباحاً أوقفته وسألته:

- ما زلت مصراً على موقفك؟ رح نفقد البنت أبو ماهر، ممكن موضوعها يطلع من إيدنا وما نقدر ساعتها نتصرف شي! شو المشكلة بفرق العمر، هنن بريدوا بعضن ممكن يعيشوا سعداء.

تراجع أبو ماهر لحظتها أمام تحذيرات زوجته وخوفه على صحة ابنته منى فرد قائلاً:

- ماشي، طيب ابعتي لناصر رسالة إني يجي لمصر يخطبها ويرتبطو.

ردت بسعادة:

- وممكن تجي أمو معو لأنها صارت عندو بتركيا.

- طيب هيك أحسن، خبريهن يجوا.

ثم فتح الباب ومضى.

على الفور أرسلت زينب لناصر رسالة عبر النقال تخبره فيها بموافقة الأب أخيراً. حين تلقى الرسالة، رد برسالة مماثلة يعبر فيها عن سعادته مضيفاً أنه يخطط كذلك للسفر مع أمه إلى أوروبا للجوء هناك، وعليه فإن منى سترافقهما في رحلتهما.

قرأت أم ماهر الخبر متوجسة، إذ إن من المحتمل أن يرفض زوجها نادر سفر ابنته إلى أوروبا، لكنها سألت الله أن يمر الأمر دون رفض أو معيقات وترتبط منى بناصر وتخرج من حالتها النفسية السيئة، انطلقت إلى غرفة ابنتها تخبرها بموافقة أبيها ورد ناصر بعد أن أيقظتها من نومها تحت تأثير المهدئات.

في حوار له مع ناصر، رفض أبو أمين فكرة اللجوء إلى أوروبا مؤكداً لناصر أنه خرج من البلد بسبب الأزمة وعدم الأمان، لكنه سيعود إلى موطنه حينما تهدأ الأوضاع وتنتهي الأزمة، علق قائلاً:

- ما رح أتخلى عن بلدي مهما صار، أنا خرجت مع العائلة خوفاً على أسرتي واحتمال تطور الأمور للأسوأ، لكن رح ارجع بمجرد تتحسن الأحوال، ما بترك البلد.

كان أمين يوافق ناصر في فكرة السفر، لكنه صمت حين سمع رأي أبيه، أما ناصر فقد تابع:

- عمو أبو أمين، نحنا صرنا مهجرين، والبلد صارت على كف عفريت، إذا رجعنا كيف يا ترى رح تصير الأوضاع، رح نكون بمأمن من الفساد والاستغلال والضياع؟

رد أبو أمين:

- ابني الأمور بتتحسن بس بدها منا إرادة وإصرار على بناء البلد بنوايا طيبة.

صمت ناصر ولم يتابع حديثه، لأنه لم يكن مقتنعاً بما يقوله أبو أمين إذ أخبر ناصر صديقه أمين أن أباه يحلم وهو شديد التفاؤل بالقادم.

حين جلست عائلة منى مساء أمام التلفزيون، بادرت أمها زينب وأخبرت زوجها نادر برسالتها لناصر، وأخبرته أن الأخير كان سعيداً بالنبأ وهو يخطط للسفر مع منى وأمه إلى أوروبا، استنفر الأب لدى سماعه الخبر وسأل مستفسراً:

- لوين؟ كيف رح يروح لأوروبا؟ عن طريق سفارة ولا شو؟

أجابت زينب:

- ما بعرف لكنه أخبرني أنه سيطلب اللجوء في أحد بلدان أوروبا حين يصل.

رد الأب على الفور:

- أخبريه أنه إذا كان رح يسافر عبر سفارة رسمية فهالشي ممكن، بس غير هيك مرفوض، لأن كتيرين عم يسافروا عبر البحر بالقوارب المطاطية ويغرقو، هاد شي خطر ما بوافق عليه أبداً.

أجابت زينب متوجسة:

- طيب، ببعتلو رسالة بسألو كيف رح يسافر لأوروبا.

انهارت نجوى حين بلغها خبر إصابة ابنتها آية بقذيفة مع مجموعة من الناس الذين كانوا يقفون عند منهل الماء لتعبئة غالوناتهم بعد انقطاعه لوقت طويل، نقل الجرحى والمصابون إلى المستشفيات، وحين توجهت إلى المستشفى الجامعي الذي علمت بوجود ابنتها فيه، أخبرها أطباء الإسعاف أنها توفيت إثر إصابتها بشظية قتلتها على الفور، انهارت نجوى وحملتها جارتها إلى الخارج مغمى عليها.

شارك أهل الحي بتشييع جثمان الطفلة التي لم تتجاوز الاثنتي عشرة سنة، ودفنت في حديقة خصصت لدفن الموتى بعد انعدام إمكانية الوصول إلى المقابر في المناطق الشرقية بسبب وجود المعارضة المسلحة فيها، وأعلمت الأم زوجها عمر على الفور برسالة عبر هاتفها النقال، حيث اتصل مصعوقاً بوقع الخبر ولا يكاد يكمل جملة من كلامه دون نشيج يجعله يتقطع كبكاء طفل صغير، انهار على الهاتف وبعد أن عرف من زوجته أسباب الوفاة قطع الاتصال فجأة وهو يتداعى، ثم أرسل بعد أيام حوالة مالية طلب فيها منها توزيعها على روح الفتاة الصغير للفقراء في الحي.

بكت أم ناصر حين علمت بالأمر، حدثت أختها معزية عبر الهاتف النقال، وآلمتها المرارة التي تعيشها نجوى لوفاة ابنتها الصغيرة، وشاركها ابنها ناصر في تعزية خالته، حين أنهى المكالمة تذكر ما قاله الأستاذ أبو أمين في حديثهما السابق، وهز برأسه يائساً.

في محاولة من عناصر الفصيل المسلح لتغطية مراقبة جميع الجهات المحيطة بأم الطين، أقنعوا الدرويش بالوقوف في جهة الجنوب المفتوحة ومراقبة الأجواء هناك، حين أبلغوه أول الأمر رفض ولدى رفضه سجنوه في غرفة صغيرة قريبة مبنية من القرميد ومنعوا عنه الطعام والشراب ثلاثة أيام، صلى خلالها وابتهل إلى الله ورتل أناشيده الدينية لكن بلا جدوى، كان حجز حريته يعني له عدم قدرته على استحضار «جميلة» وانعدام فرصة الذهاب إليها

حينما تتاح له يوماً ما، هذا فضلاً عن هجر أحلامه له في تلك الغرفة الخانقة وبُعده عن مركز تلك الأحلام، حمامته التي لا تعبأ بالحواجز والمسافات، تلك التي اكتسبت مع الأيام القدرة الأليفة على جلب شطحاته الهاربة، وإلهامه بأخرى ذات إيقاع دافئ مليء بالوعود الحلوة.

وافق مكرهاً لكنه ضمر في نفسه أنه لن يراقب شيئاً، بل سيبقى هناك كي يكون حراً يهرب في أوقات مناسبة إلى بيته الصغير ليستلقي مستغرقاً في النظر إلى منبع الأحلام المتدفقة، الحمامة الفضية الأليفة، ولم يدر حينها أنهم كانوا في طلبهم غير الجدي هذا، يحاولون رميه في مكان بعيد عن قلب البلدة كي يبعدوه عن الترتيل بصوتٍ عال كالمجانين، وإلهاءه عن أجوائه التي صارت مصدر إزعاج لهم وسط الهدوء الذي يخيم في معظم أوقات النهار على «أم الطين» مشوشاً عليهم قدرتهم على تمييز الأصوات الغريبة.

خرج لكي يرصد الجهة التي أوكلوه بها ثم ما لبث أن احتج من جديد ولازم بيته غير مهتم بنداءاتهم السمجة، فتركوه ومضوا، صمت بعد أن مضوا واستعاد تأملاته لحركات حمامته الفضية التي لم تعد تبرح المكان إلا نادراً.

وسط حزنها مع وحيدها كريم وهو جالس أمام التلفزيون، تحسرت نجوى لعدم قدرتها على السفر ومرافقة أختها فرحة في رحلتها إلى تركيا، وندمت على تراخيها وعدم سعيها لإقناع زوجها عمر بالسفر إلى هناك، لأنها بهذا خسرت ابنتها التي راحت

ضحية الحرب بقذيفة عمياء، بكت بصمت ولملمت دموعها بمنديلها محاولة ألا ينتبه إليها الصبي.

فكرت بمستقبلها ومستقبل ابنها الذي سافر أبوه ولم يبلغ السنة من عمره، ولأجله هو وأخته آية التي توفيت منذ أيام، تحملت غربة زوجها وبعده عن ولديه رغبة منها ومنه في تأمين مستقبل جيد لهما، أما الآن فقد بقي وحيداً بانتظار المجهول في تلك الحرب المخربة العمياء، اقتربت منه في تلك اللحظة، بينما كان انتباهه منصباً على مشاهدة فيلم كرتون متحرك، وعانقته بحرارة بينما رفع نظره ليرى ما الجديد الذي دفع أمه لمعانقته فجأة وبتلك الطريقة المتدفقة الحانية.

أسرع الجد أبو مروان، والد زينب، في حلب، للاختباء من قذائف الهاون التي أمطرت مركز المدينة، حيث ذهب لشراء بعض الخضار، اختبأ في مدخل عمارة وانتظر حتى يهدأ القصف هناك، بينما تسارعت حركة الناس في الطرقات محاولين الهرب والاختباء من الخطر، ولم يتمكن حينها من الرد على مكالمة وردته من ابنته زينب في مصر.

ولدى دخول البيت، أعاد الاتصال بها كي لا يثير قلقها، قطعت الاتصال بدورها واتصلت به تحاول الاطمئنان عليه وعلى زوجته، فسألها عن أحوال زوجها والأولاد، وخفف من حدة قلقها بسبب أخبار الانفجارات والاشتباكات التي تسمع عنها في قنوات التلفزيون، إذ طمأنها أنه بخير وأنه يحاول ألا يخرج إلا عند الضرورة، لكنه لم يخبرها أنه يتعافى الآن من إصابة في كتفه

بطلقة قناصة أسعف على إثرها إلى المستشفى حيث أخرجت الطلقة وضمد جرحه، ثم خرج بعد يوم ليرتاح في بيته بانتظار أن تتحسن حركة يده وكتفه اليمنى، بعد أن أنهى أبو مروان مكالمته مع ابنته حدث زوجته قائلاً:

– أنا كنت كتير فرحان أنن سافروا لمصر لأني هنيك المكان آمن، لو بقيوا هون ما كنا منعرف شو كان رح يصير، الناس عم بتموت بالمئات والمصابين بالآلاف، شي فظيع، الحمد لله أنهن سافروا برا البلد لمصر.

هزت زوجته زكية رأسها مؤكدة كلامه، وأردفت:

– يا حسرتي على هالناس شو صار فيون، كأني زلزال وقع بهالبلد.

جاء رد ناصر على زينب متأخراً قليلاً، بعد رسالتها الأولى له صباح يوم الأحد من أيام نيسان، أكد فيها أنه لا يستطيع الاستمرار بالبقاء في تركيا، وأنه ينوي الهجرة إلى أوروبا وطلب اللجوء، وأن أحواله هو ومنى ستكون أفضل لو رحلا وطلبا اللجوء هناك أمان وتأمين صحي ودخل مستمر وفرص عمل. تلقت زينب الرسالة محبطة ولم تجد حينها فائدة من إقناعه لأنه بدا فيها مصراً على السفر وطلب اللجوء هناك، أرجأت الأمر إلى وقت آخر كي تتحدث معه بمكالمة صوتية وتنبهه إلى أن زوجها نادر لن يقبل بسفر ابنته عبر البحر, وعلقت حين أنهت قراءة الرسالة:

– هالولد ما بعرف شو صرلو، فجأة رح يسافر لأوروبا

ويطلب اللجوء، ما عادت تركيا تصير معو؟! شو صار لهالشباب ما بعرف.

* * *

وبدوره، واصل العم فريد الاطمئنان على ابنته هبة التي بقيت في حلب لمتابعة دراستها في المدينة الجامعية، مع أعداد متزايدة من العائلات النازحة التي استقرت هناك، بعد أن خسرت منازلها، إذ أصبح مظهر السكن الجامعي مليئاً بالفوضى وحبال الغسيل وأدوات المطبخ المعلقة خارج نوافذ الأبنية الخاصة بالطلبة، وكان يمر عليها أول الشهر، حين ينزل لقبض راتبه الشهري، يعطيها مبلغاً من المال كمصروف ويطمئن عليها ثم يمضي عائداً إلى أم الطين، حينها صار السفر إلى القرى محفوفاً بالمخاطر لكن الموظفين كانوا استثناء على الطريق كاتفاق ضمني أو معلق بين جميع الأطراف كونهم طرفاً مشتركاً في جميع المناطق التي تشهد نزاعات لا تتوقف.

لم يكن ناصر في غمرة انشغاله في غازي عنتاب قد تخفف من حب منى والتزامه تجاهها، إلا أنه بحكم طبيعة الظروف آنذاك وأثر البعد الخفي في التخفيف من حدته وإلحاحه، دون أن يلغيه، أصبح يرد على أسئلة زينب، أم منى، بدافع الإحساس بكفاية إعطاء أجوبة واقعية على ما ينوي فعله بلا إلحاح منه يوحي بتمسكه وحرصه على حب ابنتها، الأمر الذي أثار في نفس منى تساؤلات وشكوكاً حول احتمال تخليه عنها ونسيانها.

صرحت بإحساسها ذاك لأمها التي لم تؤكد كلامها ولم تكن

قادرة على نفيه، إلا أنها فضلت أن تطمئنها أن مثل تلك الشكوك غالباً ما يثيرها البعد وعدم التواصل، لكن منى لم تركن إلى طمأنات أمها ورأيها، بل أصبحت تقلب الأمور في ذهنها مؤكدة لنفسها أن هذا ليس ناصر الذي عرفته تلك الأيام في «أم الطين»، حنانه وتعلقه المجنون ورغبته بالالتصاق بها حيثما كانت، ولهفته لرؤيتها وضجره لبعدها عنه، بدا ذهنها مشغولاً بهذا التعلق الذي لازمها معظم الأوقات، وظلت تحت أنظار أمها التي كانت تراقبها عن بعد ساهمة شاردة في حالة تفكير مستمر يخطفها عن كل ما حولها دون إرادة منها، ولم تدركها ملائكة الراحة والسكينة لحظة واحدة، كررت أمها فتح حديث بهذا الخصوص معها لجعلها تتخلص من ذلك القلق الملح، لكنها لم تفلح إلا في إثارة مزيد من دوافع الريبة والشك فيها، وفي بعض الأحيان، كان ناصر يسرح مفكراً بمنى يقلب الاحتمالات ويلوم نفسه لتقصيره معها، رغم أنه يتصل بها كل يوم أو يومين في فترة غياب أبيها، إلا أن الأخيرة لم تأنس لتطمينات أمها ومكالمات ناصر شبه اليومية معها، استغلت غياب أبيها حين صحت من نومها ولم تلبي دعوة أمها للإفطار، واتصلت به عبر «المسنجر» مدفوعة بعدم اليقين، أخبرته فيها أنه ينبغي أن يتخلى عن فكرة اللجوء إلى أوروبا لكي يوافق أبوها على ارتباطهما، وأنه يرفض رفضاً قاطعاً سفرهما الخطر إلى هناك، مؤكدة له أنه إذا كان حريصاً على استمرار حبهما، عليه أن يوافق على رغبة أبيها، وحين ألمح ناصر إلى فكرة الزواج أولاً ثم السفر فيما بعد، بعد أن يحصلا على موافقة الأب، ردت منى

إنها ترفض ذلك الأسلوب لأن فيه شكلاً من أشكال الخداع، أصرّ بدوره على ضرورة المناورة حتى يضمنا الارتباط، رفضت مصرة على ضرورة التزامه بوعده لوالدها. قرر ناصر في غمرة نقاشهما أنه سيفكر في الأمر ويتصل بها ليحدد معها ترتيباته لإجراءات الخطوبة في مصر فيما بعد، وأنهيا المكالمة. حين رجع ناصر من العمل عصراً، ناقش مع أمه ما طلبته منه منى وأخبرها بقرار أبيها، ردت الأم، بعد أن أثارت الفكرة فيها الشجاعة على معارضة سفر ابنها عبر البحر:

- كلام الأب صحيح ابني، معه حق، ما بريد يغامر بحياة بنتو في البحر والمشي في الطرقات لمدة أيام.

رد ناصر:

- أمي الموضوع عادي ما فيو شي، الناس عم بتروح بالآلاف وعم توصل.

ردت على الفور بنبرة نافية:

- لأ، مو صح هالكلام، في أخبار عن ناس عم يغرقوا، وأنت بتعرف هالشي.

- طيب وشو الحل برأيك؟ أنا ما رح ألغي الفكرة من راسي هادا قراري.

ردت أم ناصر بيأس:

- أنت حر، من زمان بعرفك مجنون، ايه، شو رأيك تخسر منى ويمكن تخسر حياتك وتجنني؟.

- أنتو دوماً متشائمين، ما بتفكروا إلا في الاحتمالات البشعة.

صمت الاثنان ونهضت أم ناصر محبطة لتحضير طعام الغداء، وهي تكلم نفسها في طريقها إلى المطبخ.

هجر الإحساس بالسلام الداخلي روح منى، وسيطرت في الوقت ذاته شياطين السفر على روح ناصر الذي بدا مهجوساً بفكرة الرحيل إلى أوروبا، بدأ آنذاك خلال حياته اليومية، يفكر في الترتيب للرحلة الانتحارية عبر البحر، مضى للتعرف على الأشخاص الذين يعملون كوسطاء مع المهربين في مدينة أزمير التركية، واطلع على جميع الإجراءات اللازمة للتحضير لذلك، دون أن يعلم أمه بكل التفاصيل.

في غمرة حياتها في غازي عنتاب، وهي تفكر بموضوع السفر، قررت «فرحة» أنها ستعود إلى حلب وأم الطين والدرويش أحمد، ولن ترافق ابنها في رحلة لجوئه إلى أوروبا، وسلمت أمر سلامته إلى الله، مشبعة باليأس والإحباط، وهي على حدود البكاء، بكامل الاستسلام والتعب، ولم تخبر ابنها بقرارها ذاك.

لم يدرِ ناصر حينها، أنه سيمضي وحيداً عبر البحر، في قارب مطاطي يحمل ما يقارب الخمسين مسافراً يرتدون ستر النجاة، تاركاً وراءه أمه ومنى و«أم الطين» وحقولها وذكرى الأب والأصدقاء وجداول الماء والعصافير حين ترفرف في مسقط رأسه في لحظات الفجر الأولى وعند المغيب، فكر في البحث عن مستقبل آمن مليء بالمفاجآت الحلوة والعيش في مدن منظمة نظيفة يحلّق فيها كعصفور حر يتابع دراسته ويعمل ويقرأ ويحضر حفلات الأوبرا المنعشة للروح، مخلفاً وراءه تاريخاً من الخوف

والموت والأيام المجهولة القادمة، وفوضى الحياة التي تسفح على أرض الزمن كالماء المبعثر.

تمنت أم ناصر لو أن الدرويش أحمد كان معها في محنتها الراهنة، حين لم تستطع إقناع ابنها بالعدول عن فكرة السفر، تمنت لو أن التعويذة التي أعطاها إياها لحمايته، كتبها أصلاً لإلهامه بالتراجع عن هاجس اللجوء إلى أوروبا، البقاء في تركيا أو العودة إلى البلدة، لكنها بقيت هناك وحيدة تصارع معه للتخلي عنها، ولم تدر آنذاك، أن الدرويش كان يعيش اقسى أيام الضياع والتشوش في زلزال حب مجنون يصعد به إلى قم روحية شاهقة، ثم يرميه، في غمرة إشراقه الصوفي، في هاوية منزل خرب حزين لا يمتد أبعد من ركنه النائي في أم الطين التي تعيش معه وحدة وعزلة قاتلة تركها فيها أهلها لينجوا بأرواحهم هرباً من الجوع والقصف والموت.

انتظرت منى وأمها زينب رداً من ناصر يخبرهم فيه بموعد مجيئه إلى القاهرة من أجل حفل الخطوبة، لكنهما لم تتلقيا رسالة أو اتصالاً منه، طال الانتظار ورفضت منى بدروها الاتصال به للسؤال عن سبب تأخره، رغم إلحاح أمها عليها، أدركت منى في داخلها أنه لن يتصل، وقد راودها ذلك الإحساس لمعرفتها طبيعته أيام حبهما الذي مضى، عرفت أن تقلبات الزمن المتوحشة ومفاجآتها والتشققات التي أحدثها البعد في روحه، جعلت تلك الأيام ولهفة لقاءاتهما ودورانه المجنون حول منزلهم في البلدة، تصبح كلها ماضياً مهجوراً وضائعاً، وتلقت زينب بأسى مشابه الشعور ذاته دون أن تتبادلا الحديث حول الموضوع، تجنباً فتح

الأوجاع وخشية من الأخيرة أن تكون سبباً في انهيار ابنتها التي تتلكأ في مشيتها غير الواثقة، وتختل في محاولتها الحفاظ على توازنها الذي أصبح في تلك الأيام أمنية جميع أفراد عائلتها.

توجهت أم ناصر إلى حلب في صباح يوم حار من أيام الصيف، بعد أن بكت حتى العمى، في سرها، قبل يومين من مغادرة ابنها إلى أزمير لاستقلال القارب الذي سيمضي به من المدينة الساحلية إلى جزيرة يونانية، وقبل أن تبدأ رحلته إلى مركز انطلاق رحلات الموت، كانت قد وصلت حلب لتنضم إلى عزاء أختها نجوى وتؤنس وحشتها، وتنهار أمامها وهي تتخيل رحلة الجحيم التي سيمضي بها ابنها الوحيد إلى حدود مفتوحة وغابات تنفتح على جبال جميلة لكنها مقفرة، يسلم نفسه إلى أقرب مركز شرطة كمشرد يطلب الراحة ويستجدي من يلملم ضياعه الطويل.

نجحت تعويذة الشيخ أحمد في درء المخاطر عن الابن الوحيد في نظر «فرحة» لكنها أخفقت في درء البكاء عنها، وكأنها منذورة للعنة الأسى والألم، وهناك في «أم الطين» كان الشيخ سجين وحدته وآلام حبه المكتوم، لا يستطيع الخروج من البلدة وهي محاصرة في جميع طرقاتها بظلام الحرب، ولم يكن يدري ما يحصل هناك في قرية مريولة، حيث تعيش «جميلة المنسية» أيامها الأخيرة فيها، عجزت القوى الخفية لدى الدرويش في جعل الخراب من حوله أقل وطأة، وهندسته بحيث يخدم أمنياته الصغيرة البسيطة، ظل وسط الطبيعة المحايدة، في الفجر، خلال أيامه المتتالية وهو يدور قرب الجداول والأشجار ورفرفة الطيور التي تطلق أصواتها في الفراغ،

وحيداً، متروكاً وسط الخراب وغبار الوحدة، في صمت البراري الجاف، يلوّح بعباءته المتسخة كي يستحضر ملائكة هاربة ويقنعها بالعودة إلى أرض الأرواح الضائعة.

في القاهرة، كانت منى بين ذاكرة الأيام الماضية في البلدة، وتفاصيلها التي حلقت فيها سعيدة بحياة لم تكن تتصور ما يشابهها على الأرض، وبين لملمة أجزائها التي تبعثرت في كل الجهات ولم تجد ما يحملها على الشعور بالاستقرار وسكينة النفس التي تركن مطمئنة لأحلامها المسافرة مع الطير، أحست أنها فقدت بوصلتها التي كانت ترشدها في الطرقات المختلفة وتجعلها تتحرك فيها بتوازن رشيق تنعشه الكائنات الحرة في الأرض، الفرحة بالتوزع الفاتن للهواء والجداول وتراقص الأشجار على إيقاعات خفيفة متناغمة، بحثت في زوايا الغرف عن همسات صورتها الخفية وهي تنادي على ناصر بدلع، وعن منى وهي تتراكض هاربة بفرح من محاولاته اللحاق بها وإيقاظ جسدها بقبلة، بحثت عن الخطوط العريضة التي ترسم حياتها الماضية وروحها الأولى دون جدوى.

في تلك الأثناء، كان ناصر يتخفف من أمتعته الشخصية ويلبس طوق النجاة وهو يستعد مع مسافرين آخرين لركوب القارب المطاطي الهزيل الذي سيحمله إلى جزيرة قريبة من اليونان، باندفاع من يقصد أرضاً جديدة يفتحها ويكون مكتشفها الأول، بدا البحر خفيف الموج والرؤية جيدة في المدى المفتوح بين ماء وسماء، صعد مسافرون من نساء ورجال وأطفال، بعضهم خائفون وبعضهم صامتون، مع آخرين مندفعين لمعرفة ما تخبئه الأرض القادمة.

في عرض البحر، بعد مسافة ميل من الإبحار وسط الأمواج الزرقاء، كان القارب يصعد ويهبط كريشة وسط مهب مياه عملاقة، ومعها يصعد قلب الأمهات والأطفال والرجال ويهبط خوفاً من المارد المائي الذي جعل وجودهم كله بلا وزن أو معنى أمام أمواج ترتفع في السماء، ثم تهبط متراقصة في وجه فزع الكائنات الصغيرة التي تكاد لا ترى.

خلال رحلة القارب الذي كان يمر بسفينة عملاقة، يتناثر حوله رذاذ الماء وضربات الموج الهائلة، لمح ناصر قارباً مطاطياً آخر يتهاوى في البحر على مسافة غير بعيدة عنه، من هناك، كانت يد صغيرة تلوح له بحرارة وحركات متتالية، لم يستطع تبين صاحب اليد أو شخصه، لكنه حين انحرف القارب بزاوية معينة استطاع أن يتعرف على صاحبة اليد، كانت «جميلة المنسية» تلوح له بحرارة وفرح وهي تعبر في قارب متعب إلى الأراضي المجهولة، مخلفة وراءها درويشاً حالماً كالمجانين، قاصداً في رواحه ومجيئه، الأحياء الخالية والساحات التي ضاعت أطيافها السابقة وسط الفوضى والخراب، مستسلماً لخيارات الزمن السيئة، معتاداً نصيبه من الوجع دون أن يجد من يواسيه عبر الجهات التي يقصدها بلا هدف، منتظراً حلول المساء، كي يقيم ذكره وتوسلاته التي تستحضر ملاكاً من الغيب وتجلسه قريباً منه، يتحرك حركات ملتوية مغرية تأخذه إلى أعالي قمم النشوة.

رمى ناصر قبل أن يصعد القارب، هناك على الشاطئ، أمتعته من صور ودفاتر وكأنه يرمي ماضياً كاملاً وراءه دون

ندم، قاصداً حياة أخرى ومدناً مليئة بالأضواء لا مكان فيها للموت والرصاص والحواجز والخوف، واحتفظ في أكياس نايلون ببطاقته الشخصية وجواز سفره، ولم ينس أن يرمي، قبل صعوده، حقيبة صغيرة كانت قد خبأت فيها أمه تعويذة الدرويش أحمد وألبوم صور قديم لطفولته في «أم الطين» وصورة وحيدة لأبيه.

انقطعت أخباره منذ صعد القارب، ولم تستطع خالته نجوى الاتصال به لطمأنة أمه التي كانت تفيض دموعها بلا عزاء، أصيبت أم ناصر بالإغماء عدة مرات، وهي تفكر في قارب وحيد صغير يجتاز البحر حاملاً ابنها.

كان عليه أن يصل اليونان، ومن هناك يمكنه إخبار الجميع عبر النت أنه أصبح في أمان، وحتى ذلك الحين، كانت فرحة تعيش لحظاتها كمريض يتنازعه الموت، هي التي آلمتها فكرة أنها أعطته بيدها الدولارات التي سيشتري بها موته.

تناثر الجميع آنذاك، منى وأهلها وأم ناصر وأختها وناصر، كمن ينتشر في لحظات قيامة لم يبق فيها سوى كائنات تبحث عن ملاذ آمن وخلاص فردي، مخلفين وراءهم بلدهم وبيوتهم وأيامهم الضائعة، آنذاك كانوا جميعهم موزعين بعيداً عن مسقط رأسهم، عدا الدرويش أحمد الذي تمسك به وحيداً كي لا يخسر آخر حلم تبقى له في دنياه، بعد الوفاة المفجعة لأمه وأبيه، ظل يدور حول الأحجار وبقايا الجدران يقرأ الأدعية ليبارك الفراغ.

بقيت دكان العم عبد الودود شبه الفارغة المكان الوحيد الذي يقصده الدرويش أحمد كي يهرب من الفراغ الهائل الذي حل

في البلدة الصغيرة، ويستعيد معه أياماً مضت، هارباً من أشباحه وشياطينه التي لم تعد تغادر عقله ولحظات خلواته في البيت، جلس يشرب الشاي مع البقال صامتاً يتحدث جملاً موجزة بعد أن يستحثه الأخير على الكلام، مدركاً أنه يعاني من العزلة، متأثراً برحيل معظم الأهالي إلى مناطق مختلفة، وغياب من كانوا يحبونه ويقدمون له الصدقات وعطايا الإحسان.

أثار الشيخ أحمد لوعة عبد الودود المدفونة حين ذكر بعض الأهالي وبكى، أم ناصر، أبو أمين، وأم ماهر، وحتى... توقف عن الحديث خوفاً من إثارة حفيظة البقال، ثم حين نظر إليه وهو يمسح دموعه وأدرك مدى تأثره، عرف أنه لن يعترض حين يذكر له: حتى «جميلة المنسية» لأنها جزء من ذكريات الماضي المفقود العزيز عليهما.

هزّ عبد الودود رأسه موافقاً على جميع الأسماء التي ذكرها الشيخ وبدا متعاطفاً معه، مؤكداً توقه لتلك الأيام التي أصبحت فردوساً مفقوداً، ولم يستطع الدرويش أن يضيف له أن «جميلة» كانت أجمل قطعة من ذلك الفردوس.

مكث ناصر أسبوعين في فندق صغير في العاصمة أثينا ثم توجه عبر المترو إلى ألمانيا، غامر باحتمال التعرف عليه كغريب لاجئ، إلا أن الحظ حالفه وعبر الحدود، وحين وصل هناك، توجه إلى أقرب مركز للشرطة وسلم نفسه طالباً اللجوء الإنساني.

في تلك اللحظة، حين طلب ناصر اللجوء في مركز الشرطة، أدرك معنى ألّا تكون ثمة حدود واضحة للإنسان تميزه عن الآخر

وترسم ملامحه الخاصة، لم يشأ أن يكون مشرداً في نظر الآخرين، لا موطن ولا عنوان، إلا ما سينطقه أمامهم معرفاً بنفسه، وأن يختزل حياته وذاكرته وأهله وملائكة الأرض الواسعة التي عاش فيها طائراً في البراري حراً فرحاً، إلى دفتر جواز السفر البارد، هبطت عليه كل الأوجاع حين وصل إلى بلدة صغيرة قريبة من هامبورغ ووضع في «كامب»، معسكر يُجمع فيه اللاجئون من مختلف بلدان إفريقيا والشرق الأوسط، استلقى في سريره ولم يستطع النوم رغم الإرهاق الشديد الذي كان يعانيه بسبب رحلته الطويلة، وزعوا عليه ألبسة متنوعة، قمصاناً وكنزات وأحذية وألبسة داخلية، وأمام كومة الثياب والألبسة الجديدة، كان يفتقد لصورة أمه ومنى والأصدقاء، وتذكر حينها تعويذة الشيخ أحمد التي تركها في حقيبة صغيرة، وتمنى أن يكون قد أحضرها لا لشيء سوى كونها شيئاً يذكره «بأم الطين» وحرص أمه وقلقها، والدموع التي سالت منها مع الأدعية كي يحفظ الله ولدها الصغير، استحضر في ذاكرته صورة منى وهي تركض في الحقول، تبكي قرب شجرة المشمش، صورتها وهي تسرق النظر إليه في منزل أهلها عندما جلس يحضر لامتحان الثانوية العامة مع أخيها ماهر، صوتها المرتجف وهي تكلمه من القاهرة، الرجاء الذي يغلف كلماتها الخجولة، عزلة أمه في حلب بعد عودتها اليائسة من غازي عنتاب، حزن خالته نجوى على ابنتها آية، يأس أحمد فاتح «أبي أمين» من محاولة إقناعه بعدم السفر إلى أوروبا، انهيار أم منى لدى سماعها بنبأ فقدان عذرية ابنتها، نداءات «أم الطين» مع الدرويش أحمد له كي يعود.

كل ذلك تدفق دفعة واحدة في ذهنه، ولم يستطع التغلب على مارد اليأس الذي هيمن عليه باسطاً أجنحته السوداء، واستسلم لحظتها لحقيقة أنه لن يستطيع النوم تلك الليلة، فنهض يقلب محطات التلفزيون وجلس يحدق في الجدار ساهماً وسط الصمت.

في تلك الأيام، بينما أصبحت «أم الطين» محط أحلام كل من غادرها من الأهالي الموزعين في شتات الأرض، كانت هي تحبو كالطفل على ظلها المتعب المليء بطعنات التراب المستوحش، تحضن من تبقى وهي تطلق نداءاتها في البراري والحقول المتروكة للهواء وشمس الصيف الحارقة، مستباحة بكل لعنات الأرض، تنوء تحت شكوى أحجارها التي ازدادت جفافاً بعد هجرة العناقات الحميمة ولمسات أيدي الأمهات الحانية وهن يلمسن الجدران بعد خبز العجين لصنع فطائر الحلوى، في حوار ودود بين حرارة أيديهن وبرودة الأحجار اللطيفة السخية.

بدأ وقع الحب الذي خطف توازن منى يخف مع الأيام بسبب يأسها بعد أمل طويل مفجوعة بإهمال ناصر المدمر لها إذ سرع ذلك في دفعها إلى التخفيف من وطأة التعلق التي أفقدتها توازنها، وما يثير الدهشة أنها انقلبت إلى لا مبالاة تدفع للحيرة بعد أن استماتت للارتباط واللحاق به حيثما حل، بدأت منذ قرارها ذاك، الاهتمام بأمور حياتهم اليومية والذهاب في مشاوير إلى مناطق التنزه في القاهرة، وتحسنت شهيتها للطعام، أفرح ذلك أمها زينب مؤقتاً، إلا أنها عادت للتفكير في مستقبل ابنتها المعلق بقلق حفر في أعماقها حول إمكانية ارتباطها برجل آخر، ظلت تفكر وتقلب

الأمور حتى أدركها التعب فتناست الأمر مشغولة بتفاصيل الحياة اليومية وأشغالها، مر شهر رمضان ثقيلاً عليها وعلى الجميع ممن غادروا البلاد، إذ أتى محملاً بأحداث مؤلمة تصاعدت خلالها أعمال العنف والاشتباكات والتوترات هناك.

مر الشهر عصيباً مريراً على كل من «فرحة» وأختها نجوى وابنها الصغير كريم، ازدادت حدة الغلاء مع انقطاع المياه والكهرباء وضعف توفر المواد الغذائية في حلب، حيث بلغ التصعيد على مستوى الحرب استيلاء المسلحين المعارضين على مناطق أخرى مهمة في المدينة، وازدادت هجرة الشبان الذين ترك بعضهم عائلته هرباً إلى تركيا وبعضهم الآخر قصد اللجوء إلى أوروبا، رافقها تشتت بعض العائلات بسبب النزوح أو فقدان الأب أو بعض الأبناء الشباب.

صامت أم ناصر وأختها وأفطرتا على بعض الخضار والبيض المسلوق، ولم تتوقف الاثنتان عن انتظار نهاية توقعها الجميع للحرب، لكنها لم تأتِ، بل ازدادت الأمور تعقيداً على الأرض.

ومع شح الأموال والغلاء ظل فريد، عم منى، يتلقى المساعدة من أخيه نادر في مصر وأمضى شهر رمضان مع زوجته ابتسام وسط أنباء الخراب والانفجارات والخوف، إذ بدا آنذاك مصعوقاً بتفاقم الأحداث لأنه كان من المتفائلين بانتهاء الأزمة والوصول إلى حل قريب، أفزعه ما كان يحصل آنذاك، طبيعة التوترات المتصاعدة التي أوقفت معها توقعاته المتفائلة بحصول حل قريب.

كان الدرويش أحمد لا يعلم بأمر سفر «جميلة المنسية» لأنها

رحلت فجأة دون أن تجد من يهتم بها لتخبره، بعد أن طرح عليها أحد المعارف ممن لهم صلة قربى برجالها السابقين، السفر معه إثر وقوعه في غرامها، ظلت أحلام الشيخ مستمرة في ليالي شهر رمضان، لكنها امتزجت في ذلك الحين، بنفحة روحانية مفرطة، كانت معه في قراءة القرآن والدعاءات وترتيل الأناشيد الغامضة، يتدفق وجهها الممتلئ نوراً وحظوة ربانية مع تصاعد شطحاته المجنونة، يناديها، ويكلمها، وترد عليه بدلع وتودد وهي تلامس لحيته وتنهض كي ترفع عن ساقيها وتضع الماء المغلي في وعاء كبير لتغسل ثيابه المتسخة، ثم تجلس أمامه تغني له أغنيات وله وعشق وتغمزه بعينها الواسعة الآسرة، يتدفق خلالها قلبه بأنوار سماوية تملؤها نجوم وملائكة سرّية لا يعرفهم سواهما، ليعود إلى سريره الضيق يتابع أجواءه التي تفيض بالحب، محولة إياه إلى غيمة باردة في سماء صيفية، ومع اقتراب الفجر، لا يتسنى له أن يأكل قبل آذان الصبح، فينهض ليغتسل ويصلي، ترافقه سحابة من الخيالات تحضر معها كل الغائبين من أهالي أم الطين الذين افتقدهم الدرويش في الأيام والأشهر الأخيرة، ولم يستجيبوا لنداءاته المجروحة.

خلال ذلك الشهر، كان العم فؤاد يخص الشيخ بكل ما يتيسر له من طعام بعد أن احتجز في «أم الطين» بسبب إصابة منزله في حلب، وكانت ابنته الجامعية هدى حينها قد زارتهم في البلدة لآخر مرة قبل أن يصبح السفر إليها محفوفاً بالمخاطر وطويلاً يستغرق ثلاث عشرة ساعة متواصلة.

مر الشهر حزيناً نارياً، لم يشعر الناس بعده ببهجة العيد، أما فرحة فقد امضت أيامها خلاله وهي تتذكر وحيدها ناصر باكية في لحظات الإفطار على مائدة تضمها مع أختها وابنها الصغير، وهي تفتقده بعد أن اعتادت حضوره في جميع أشهر رمضان الماضية، لم يعد ناصر في ذاكرة أحد، منى وأمين وأبوه وعمه فؤاد، حتى الشيخ أحمد كاد أن ينساه.

اعتاد الناس الصمت، لكنهم كانوا يبوحون بأسرارهم وشكواهم مع الليل، بأصوات خفيضة، تتصاعد خلالها الآلام والحيرة والضياع، جميعهم تحدثوا في الليل، وجميعهم علا أنينهم، وحزنهم، وجميعهم كذلك، كانوا يفتقدون الملائكة الحامية، ملائكة أرواحهم المطمئنة، التي مضت واختبأت في أعالي الجبال، في زوايا قصية معتمة.

كانت علاقة زينب بجيرانها السوريين مميزة، بودها وحرارة استقبالها وتعاملها الدافئ، وبعد أن مر العيد، وفي زيارة لها لجارتها أم سامر التي سافر زوجها مع عائلته إلى مصر خلال الأزمة، من مدينة حمص، حيث أسس الزوج عمله من جديد كتاجر لمعدات وبرمجيات الكومبيوتر، طلبت الجارة يد منى لابنها الكبير سامر، إذ كانت أمه معجبة بها وباتزانها، ترددت زينب لدى سماعها الطلب أمام ابنتها منى التي شعرت بالخجل والحرج، وطلبت من الجارة أن تعطيها بعض الوقت لاستشارة زوجها نادر، حين أنهيا زيارتهما، رجعت الأم وابنتها إلى البيت صامتتين ثم بادرت زينب بفتح الموضوع مع ابنتها منى، سألتها مستفسرة:

– شو رأيك منى؟..

ارتبكت الأخيرة ونظرت بطرف عينها إلى أمها مشوشة، ثم ردت:

– ما بعرف، أنا شفتو مرة لابنها، بعدين انتي بتعرفي المشكلة ماما.

ردت زينب بإحباط وحيرة:

– أعرف نعم، أنا كنت أصلاً خايفة من هالسبب، وهلأ اجا الوقت لنواجه الموضوع، بس والله ما بعرف كيف.

صمتت الاثنتان ثم تابعت زينب قائلة:

– شو رح تقولي لأبوكي؟ ما بعرف، لأنو رح يستغرب سبب رفضك إذا ما وافقتي.

– أنا مالي موافقة لأنو ما بعرف الشاب ولما شفتو من بعيد ما عجبني، هيك وبس ما في داعي نعقد الموضوع ماما.

علقت زينب:

– هلأ بنقول هيك، وممكن نرفض الشاب بس وبعدين؟ شو رح تعملي في المرة الثانية إذا طلبك شاب تاني؟ شو رح تكون حجتك.

صمتت منى وطلبت من أمها أن تغير الموضوع وتخبر الجارة أنها لا تفكر الآن في الزواج.

سمع الأب نادر بالأمر، سأل زوجته زينب عن العائلة والشاب، ردت أنها تعرفه من خلال أمه وأخبرته عن عمله وعن أبيه، فسألها على الفور:

- شو رأي منى؟..

أجابت بارتباك:

- منى ما بدها ياه، قالتلي أنو ما عجبها.

أجاب متسائلاً:

- ليش، الشاب مو منيح، ولا ما عجبها شكلو؟

- لا بس قالتلي أنو محترم لكن ما عجبها.

رد الأب مسلّماً بالأمر:

- طيب على راحتها، إذا ما صار معها بلا، هاد زواج مو لعبة، متل ما بدها، أنا شخصياً ما بعرفو ولا بعرف أبوه، لمحتو مرة على درج العمارة بس.

صمتت زينب ونهضت تصنع القهوة بعد الغداء، فكرت الأم أن بداية أزمة منى بدأت الآن، وها هي تواجه أولى المشكلات، استطاعت أن ترفض هذه المرة ولكن إلى متى؟ سألت نفسها.

* * *

بدأ ناصر يحضر مدرسة تعلم اللغة الألمانية، حين جلس على مقعد الدراسة، تذكر أنه عاد إلى صفوف المدرسة الابتدائية الأولى من جديد لكن في سن العشرين ونيف، وتذكر المفارقة التي آلمته حين عاد بذهنه إلى وعيه المبكر خلال دراسته الإعدادية وبداية قراءاته الباكرة للرواية والشعر، متذكراً أن عليه الآن أن يبدأ بدراسة الأحرف الأبجدية للغة جديدة.

كان الصف الدراسي يشمل جنسيات مختلفة، سوريين وعرباً وأفارقة وأوروبيين، تعرف على فتاة شابة إنكليزية تجلس في

المقعد المجاور، تبادلا بعض أحاديث التعارف العامة بإنكليزيته المتواضعة، فهم من حديث الفتاة أنها تعرف أوضاع السوريين وشتاتهم، واكتفى بإشارة من رأسه بالتأكيد على كلامها، بدت الفتاة الإنكليزية أليفة بسيطة، معبرة أمامه عن فهمها وتقديرها لأوضاع اللاجئين والأحداث في سوريا، شكرها ورد بسؤالها عن طبيعة دراستها الجامعية، أجابت:

- سوسيولوجي، علم اجتماع.

رد هو بكلمة واحدة:

- «إنجنير» هندسة.

ود حينها لو خرج من المعسكر إلى الحياة العامة، وتمنى لو أنه يملك دخلاً مادياً مستقلاً يخوله الحياة بحرية أكثر، في تلك الأثناء، غامت في ذهنه واسودت صورة غرفته والمبنى الذي يقيم فيه، وعادت تلح عليه ذكرى «أم الطين» وأمه ومنى وحلب، لكن الدرويش أحمد جاءه بصورة أكثر ثقلاً وتأثيراً، أشار بإصبعه معاتباً:

- لماذا تركتنا وذهبت؟!

تذكر كحل عينيه وعباءته المتسخة وغطاء رأسه المنحسر عن شعر بدأ يشيب ولحيته المهيبة غير المشذبة، أشار له الشيخ مرة ثانية بسبابته وهو يضعها على صدره:

- أنا.. أنا.

أجاب متسائلاً:

- أنت ماذا يا شيخ أحمد؟

رد الدرويش:

– أنا من سيعيدك إلى مهدك الأول، أنا «أم الطين»، وحدي سأبقى ووحدكم ستتبعثرون في أقاصي الأرض.

انتبه ناصر إلى الفتاة وهي تنبهه متسائلة عن شروده بابتسامة، تابع حديثه معتذراً وهو يحاول إبعاد صورة الدرويش عن مخيلته بصعوبة.

عندما هبط الليل، تمدد ناصر على سريره في غرفته داخل السكن، صمت شارداً.

– ذهبتم وتركتم الأرض لمن؟

كان الدرويش يسأله، أجاب:

– وهل كنت تريدنا أن نضيع أو نموت يا شيخ؟!

رد الدرويش بسؤال:

– من أنت الآن؟ من أين أتيت؟ وما هي بلدك؟ أين لغتك وأهلك؟

رد مستغرباً:

– أهلي هناك، معك، ولغتي ما زالت معي أكتب بها وأقرأ.

رد الشيخ بمرارة:

– لن تقرأ وتكتب بلغتك بعد الآن، ولن تتذكر أباك وجدك، ستتكلم بلسان آخر بعد شهور، ستضيع في بلاد غريبة، ولن يذكرك أي مبنى أو حجر أو حديقة «بأم الطين وبيوتها وحجارتها وحقولها».

رد ناصر محتجاً:

– وهل تركت لنا الحرب خياراً، أمامنا إما الموت أو الجنون، ماذا كان علينا أن نفعل؟

– حصل ما حصل، لكن تذكر أنك الآن بلا حدود ترسم أيامك وذاكرتك وماضيك، لا تنسَ ما ضاع منك، لا تنس أمكَ، والله والهواء الذي تنفست.

رد ناصر بعصبية:

– ماذا أتذكر؟ أتذكر الهواء أم رائحة البارود؟ أتذكر الجوع والموت؟ أتذكر الأهل المبعثرين؟؟ ماذا أتذكر يا شيخ أحمد؟ ماذا؟

غادر الدرويش الغرفة حزيناً ورد الباب وراءه.

تقلب ناصر في فراشه طويلاً ثم غرق في نوم مشوش.

في مكان آخر، في القاهرة، تقلبت منى في فراشها ولم تستطع النوم، وسط صمت الليل وصوت أنفاس أختها ليلى التي كانت تنام بوداعة وعمق، وهي تسمع حركة أخيها ماهر في الغرفة المجاورة يقلب أوراقاً ويحدث صديقه على الانترنت في سوريا.

مرت الصورة سريعة في مخيلتها، أم ناصر وهي تشير لها بيديها ما معناه أن لا علاقة لها بما فعله ناصر، بوجه حزين مليء بإحساس الفقدان.

– ضائعة أنا، تركني ناصر ومضى، ألا تستطيعين أن تقنعيه أن يعود؟ هو بحبك ويلبي طلبك.

ردت مذهولة:

– ناصر! لقد هجرني وسافر ولا أعرف أين هو الآن، أنتِ تعرفين ما جرى أكثر مني، ابنك تخلى عني يا خالة، ادعي له أن

يعود ولا يتركني هكذا وحيدة أواجه دنيا لا ترحم، ألم تعطيه تعويذة الدرويش أحمد علها تجعله يحن إلينا ويعود؟!

ردت بارتباك وحيرة:

– ما أعرف، تركتها معه في المحفظة، لكني لا أدري ما حل بها، ركب قارباً ومضى، ربما رماها في البحر، أو نسيها في مكان ما.

غابت صورتها وحضرها الدرويش بصوته الرباني:

– ألم يعد إليك، عاتبته منذ أيام، ولمته على غيابه، كلماتي كانت قاسية، عاتبته لأنه غادر وترككم جميعكم.

ردت حزينة:

– لم يعد يا شيخ، نسي الجميع ومضى إلى دنيا أخرى، صلِّ لي وادعُ لنا كي يعود، علَّ دعاءك يلهمه بخطئه ويعيده إلينا.

رد متنهداً:

– أصلي، من قال لكِ إني لا أصلي من أجل عودته ومن أجلكم، لكن إذا عاد بالله عليكِ أخبريني سريعاً حتى آتي لأراه.

– آه، حتى أنت تريد أن تراه يا شيخ، يعني افتقدته مثلنا.

غابت الصورة وحلت حقول أم الطين وأشجارها مكان الدرويش، السواقي الصغيرة والأشجار وطيور الصباح الباكر وحركة الناس في الطرقات الضيقة، الغبار والنسيم الرطب الناعم، ابتسمت منى للمشهد وأنعشها أنها وسط البلدة، ولم تغادرها حتى غرقت في النوم وانقطعت صورتها.

تأوهات كاترين كان لها وقع مختلف، حين زارها ناصر عصراً

وشربا معاً بعض النبيذ، وتبادلا القبل على السرير، لوهلة سريعة حضرته صورة منى مقارنة بصديقته الإنكليزية، جرأة وانفتاح في المتعة، صوتها لم يهدأ، كانت تئن بحرية وشبق وصراخ، مختلفة تماماً عن أنين منى الخجول ومتعتها الرصينة، مع حياء يوشح حركاتها، مر المشهد الذي أبعده ناصر عن مخيلته سريعاً كمن لا يريد استرجاع الماضي المحفوف بالآلام والحزن والكآبة.

الخيط الذي يربطه بتلك الأيام، أراد له أن يختفي بجذوره التي ترتبط بالفقر ومعاناة الناس وعنف الحرب ومشاهد الموت، مضى متجهاً إلى مكان السكن مساءً حيث كان يجهد كل يوم للخروج مبتعداً عن مرارة الوحدة وجفاف العزلة.

فرحت ابتسام، زوجة العم فريد بما أخبرتها الطبيعة النسائية حول حملها، حدث أخيراً أن لبى الله دعاءها وسيمنحها طفلاً لطالما انتظرته مع زوجها، وبلغت فرحة العم فريد أنه كاد ينسى ألم الحرب وأحزانها، طار ليخبر الجميع بالنبأ أولهم أخوه نادر وأسرته وأصدقاؤه في حلب وأم الطين، صلت زوجته ابتسام صلاة شكر لله ووزعت خبزاً على بعض المحتاجين كما نذرت.

فرحت أم ناصر وأختها لدى سماعهما الخبر من زينب، بعد أن تعرفتا إليها خلال بعض زياراتها مع زينب ومنى قبل سفرهما إلى مصر، وعدتها أم ناصر على إثرها أن تستدعي الدرويش أحمد، صاحب الكرامات كي يقرأ لها القرآن ويدعو لها بإتمام حملها وولادتها بالسلامة. فرحت زينب بالخبر ودعت لها بالخير والسلامة في حديثهما معاً على الانترنت الذي بدا متقطعاً ضعيفاً

في حلب إبان الحرب، ولم تشأ منى أن تتكلم مع زوجة عمها على الهاتف النقال وتبارك لها بسبب مزاجها السيء وكآبتها إذ أشارت إلى أمها من بعيد ألا تذكر اسمها أمامها، ولدى سؤال أمها ومعاتبتها لها على رفضها الحديث مع زوجة عمها، أجابت:

- ما بقصد شي، بس على شو فرحانين؟! على طفل رح يولد في الحرب والناس عم بتموت!

ردت زينب معاتبة:

- لا تقولي هالكلام بنتي، حرام، هي مشيئة الله وادعي لهم الله يفرحهم فيه.

في نهاية شهر آب عصر ذلك اليوم من أيام أيلول، هبت رياح قوية أثارت الغبار في أم الطين، ومالت أشجارها ونباتاتها كرجال ونساء مطعونين، لكن الدرويش أحمد لم يشأ الاختباء، بل خرج فاتحاً عباءته وهو يصرخ ويعظ الباقين من الأهالي أمام عناصر الفصيل الضاحكين، ظل فترة من الزمن ثم عاد ليختفي في منزله الذي لم يعد يرى تحت عاصفة الغبار الذي هب هناك، مشى على الأحفاد الصغار ومارة الطريق الهاربين، بدا للشيخ أحمد الذي صمد لوهلة ثم توارى، أنه عليه لسبب ما أن يواجه العاصفة الغبارية قدر ما يستطيع، لهذا خرج يتحداها كما نوى ذلك منذ البداية، لكن العمى أجبره على التراجع والدخول هذه المرة، الذرات التي دخلت عينيه دون رحمة وجعلته لا يستطيع كشف الساحة والرجال أمامه.

نهض عملاق الجوع والألم والموت وراء الأبنية والطرقات

والحدائق الخالية تلك السنة، أرسل خلالها ناصر عدة صور لأمه وخالته يظهر فيها مبتسماً سعيداً بالمكان الذي هو فيه وكذلك أرسل فيديو قصير له في مقابلة مع قناة تلفزيونية ألمانية تجري مقابلات مع اللاجئين السوريين كي تروّج لأعلام السياسة هناك في تلك المرحلة، الأعلام الداعمين لإنسانية من حلوا بضيافتهم هاربين من الحرب.

بكت أمه حين شاهدت الفيديو الحي، وتمنت لو أنها كانت برفقته ولم تتركه يعيش بعيداً عنها، إلا أن الخالة نجوى واستها وأكدت لها أنه في النهاية سيخرج ليعيش حياته بعيداً عنها، وهذه سنّة الكون، ومع توالي الأيام المتعبة، تبدلت مع الوقت تركيبة حلب، إذ تناقص عدد سكانها بشكل ملحوظ ودخلها أناس من أمكنة أخرى في الأرياف والبلاد، وكان الذين قرروا المغادرة والسفر منذ البدايات هم الأوفر حظاً لأنهم خرجوا في ظروف وشروط أفضل ممن تأخروا.

مرت بضعة أشهر حتى بدأت منى وأخوها ماهر تعرف التجول في القاهرة وتتعرف على أصدقاء جدد، لم يكونا وقتذاك يعرفان المزيد من الأصدقاء كي يعوضا عما افتقداه من صحبة لها خصوصيتها وذكرياتها في أم الطين أو حلب، كان عليهما أن يتأقلما مع كل ما يستجد في حياتهما وهما بعيدان عن مسقط رأسيهما ولم يكن أمامهما خيار آخر.

تقدم ماهر لامتحان قبول في جامعة القاهرة لدراسة الفلسفة وقبل فيها، منذ ذلك الحين، باشر حضوره ودوامه فيها وانشغل في

دراسته، على عكس منى التي وجدت نفسها أمام وحدة قاتلة وأيام تتكرر رتيبة دون تغيير أو جديد، أحبت منى بعض الأصدقاء المصريين الجدد، لكنها رغم ذلك لم تجد نفسها في جميع نشاطاتها المتواضعة التي كانت تقوم بها، لأن ذاكرتها القديمة احتفظت بصور دافئة لها إيقاعها الذي لا ينسى، ورغم ذلك حاولت الاندماج مع الجميع كي تتابع حياتها بعيداً عن الملل المدمر، اختبرت مشاعر غريبة وهي منزوعة عن جذورها، وكانت «أم الطين» وحدها التي تستطيع ردم الهوة الكبيرة التي حاصرتها، ورغم وجود أهلها في حياتها وقربها منهم، في كل يوم، كانت تتلمس جنبها فترى جرحاً عميقاً لا يندمل، جرح ناصر وغياب ألفة الحقول والعصافير والأشجار وبراري البلدة ونسائمها وحرها وبردها الثلجي.

في لحظات انهيارها صلت كي يعود الجميع، حاملين معهم الأمكنة الأليفة، لكنهم بقوا في مواضعهم ولم يقتربوا من حافة حياتها متراً واحداً، ومع ذلك، لم تفقد الأمل يوماً بعد يوم، كانت تحاول دون جدوى، فيدفعها حلم ليلي منعش في البلد إلى معاودة الكرة مرة ثانية وثالثة، ناسية أن القرار الآن أصعب من إرادتها وأقرب إلى المستحيل على عكس ثقتها بقدراتها حين كانت يافعة في أيام مضت.

حمل الدرويش البقال عبد الودود محاولاً إسعافه، بعد أن أصيب بشظية من قذيفة نزلت قريباً منه وهو جالس قرب دكانه، كان ينزف ولم يكن يتوفر آنذاك أي مستوصف سوى بعض الشبان المدربين على الإسعافات الأولية، طلبوا له سيارة إسعاف لكنها

تأخرت لصعوبة الطريق، بعد ساعة من المعاناة مع النزيف وألم الجرح، أسلم عبد الودود روحه بين يدي الشيخ أحمد، الذي أسدل عينيه وبكى ثم تلا عليه سورة ياسين وهب كالمجنون معلناً وفاة البقال.

دق أبواب البيوت المأهولة والمهجورة طالباً من الناس الخروج لأداء صلاة الجنازة وتشييع البقال إلى مثواه الأخير، أصر الدرويش أن يكون على رأس الصلاة رغم وجود شيخ الجامع الوحيد في البلدة، أم بالمصلين ثم نهض وحمل طرف النعش وهو يرتل الآيات القرآنية باكياً.

حين عاد بعد العصر من المقبرة، وقف يعظ الناس بقيامة قريبة، بصوت جهوري يتوعد الكافرين والمستهترين بقدرة الله، ثم توجه بخطوات بطيئة مرهقة إلى بيته الصغير، دخل وأغلق الباب عليه، وسط الظلام وعلى ضوء فانوس صغير أشعله الدرويش أحمد، اكتظت غرفته بكل رجال الله، منشدين الأناشيد الدينية والدعاءات التي تتوسل الرحمة من السماء.

وعندما بدت الغرفة وقد غادرها الجميع، حضره شيطانه المحبب، يحاول أن ينسيه حزنه الذي استقر في أعماقه، لكنه كان يتصرف بثقة أمامه، لم يكن بحاجة لأية محاولة، مرة واحدة أخرجت الشيخ من حزنه الأسود وأرجعته إلى طقوس الوله الضائع، حضرت «جميلة المنسية» بصدرها الناهض وهي ترفع عباءتها عن أفخاذ بيضاء مضيئة، شعر الدرويش بشلل في أعضائه ولم يستطع الحركة، بل تسمر في مكانه يحدق في المشهد أمامه،

استعاذ بالله، إلا أن المرأة أصرت على حركات الإغواء، ابتسمت له، همست بخبث ثم جلست بقربه على حافة السرير، حملت معها من قرية المريولة حبات رمل ذهبية وتفاحاً أصفر وسلة مغطاة بخرقة بيضاء، بيدها أطعمته تفاحة ومالت عليه فبرز نهداها المتقافزان، كاشفة عن فخذيها الأملسين الناعمين.

حين انتشى الشيخ مدت يدها وكشفت الغطاء الأبيض عن السلة الصغيرة وأخرجت كتاب قرآن كريم، هب الدرويش فزعاً واستعان بالله على الشيطان الرجيم، واستغفر ربه مرات عديدة، حين أنزل قدميه عن السرير، كانت جميلة المنسية قد غادرت الغرفة إلى سواد الليل في الخارج وتركت الباب مفتوحاً، مكث في فراشه مرتجفاً، وهو يتمتم بالأدعية، وتحت تأثير وفاة البقال عبد الودود وإغواء جميلة، لم يستطع النوم حتى الساعات الأولى من الصباح.

غردت العصافير بعد أن غفا الدرويش وحيداً في منزله، وسط أصوات المدافع والقذائف البعيدة، وحطت حمامات قريبة تنقر كسر الخبز حول البيت الصغير، بينما كان هو يرقد روحاً أسلمت أمرها لربها وغطت في سلطان وهدأة النوم دون اعتراض، وعلى السطح كانت مناقير العصافير تنقر الأخشاب الملقاة ملتقطة بعض حبات الخبز الصغيرة، لم يستطع الشيخ سماعها آنذاك، لكن روحه كانت تحوم قريباً منها، تناديها بأسمائها تحت جناح من الرحمة.

تابع أبو أمين أخبار أم الطين من تركيا، إذ كان يتلهف من هناك لمعرفة أخبار الأهالي وما حل بهم منذ غادر مع عائلته،

وساءه أن سمع خبر وفاة عبد الودود البقال لكنه عرف من بين ما عرف من الأخبار أنها أصبحت شبه خالية إلا من بعض العائلات الفقيرة ومن الدرويش أحمد الذي ما زال يدور الساحات والدروب هناك وحيداً وحزيناً أكثر من أي وقت مضى، وأنه هو الذي صلى على جثمان البقال عبد الودود وهو يبكي، ورغم ذاكرته الراسخة في تذكر أهالي البلدة إلا أنه حين سأل، كان الجواب خلافاً لتوقعاته، الغالبية نزحت عدا بعض الأهالي الذين يعرفهم عن بعد.

استطاع ناصر باحتكاكه المتواصل مع أصدقائه وصديقاته الألمان أن يطور مقدرته اللغوية، اجتاز امتحانات أغلب المستويات بشكل ناجح، كان قد غادر المعسكر (الكامب) منذ زمن وبدأ العمل في مركز لرعاية المسنين بعد دورة أكملها قبل أن يستأجر شقة صغيرة أعطي من أجلها مبلغاً من المال من قبل مكتب العمل هناك، حين بدأ يستقر في ظروف أحسن، شرع يراجع ذكرياته وحساباته في ساعات فراغه في الشقة الصغيرة، هناك أدرك أنه تصرف باستعجال أرعن مع منى وعرف أنه كان من المفترض أن يتعامل مع الموقف بجدية واحترام أكبر لعلاقتهما التي استمرت سنوات، فكر بلحظة ندم واندفاع أن يخابرها محاولاً استرجاع رقم موبايلها في مصر، حين عثر عليه، أسرع وطلب الرقم عبر هاتفه، على الطرف الآخر انتبهت منى لوجود رقم خارجي على لوحة هاتفها الجوال، ردت فجاء صوته مفاجئاً غير متوقع، عرفت نبرته في الحديث، وصوته، هزتها المفاجأة والاعتذارات على الطرف الآخر، لكنها، وبلحظة لم يسمح لها كبرياؤها وألم الأيام الماضية

أن تستجيب بمودة لملاطفات ناصر، طلبت منه أن ينسى الأمر وألا يتصل ثانية، صدمته عباراتها التي أغرقته بإحساس عميق بالارتباك وأعادته ليسترجع مواقفه السابقة بندم.

بعدها، أدرك ناصر أن المسافات التي باتت تفصله عن منى، وأن لحظات الحب الماضية في البلدة، صارت نثارات مرمية في الفضاء، مدركاً لحظتها حجم الخطأ الذي ارتكبه وحجم الجرح الذي سببه لها.

في تلك الأيام، كان يتابع أخبار البلاد عبر القنوات الفضائية، مدركاً مدى التعقيدات التي حلت هناك، وذات صباح، فاجأته صديقته الألمانية التي استضافها في شقته ونامت معه في الغرفة ذاتها وهي تسأله عما يشغله، لأنه كان يتكلم باللغة العربية في نومه ولم تفهم ما كان يعنيه.

* * *

بعد وصولها إلى السويد في رحلة لجوء شاقة، استطاعت «جميلة المنسية» أن تحصل على حق الحماية هناك، تابعت إقامتها في المعسكر مع توفيق، الرجل الذي رافقها في رحلتها من المريولة، استمر الاثنان يعيشان حياة مشتركة بعد أن ادعيا أنهما زوجان، عاشا ما يقارب الخمسة أشهر حياة مشتركة إلى أن اختلفا ومضى توفيق في طريق آخر، حين أدرك أن جميلة اعتادت حياة حرة دون قيود منذ أيام «أم الطين»، إلا أنه لم يهجرها حتى أصبحت حاملاً في شهرها الثاني، مضى تحت وقع إهاناتها ولعناتها السفيهة، ولم تهتم بدورها لغيابه، ولم تفكر باسترجاعه من

أجل حملها، كانت ترتاد المركز الصحي لرعايتها كأم حامل مدعية أمام الأطباء أن حملها هو من زوجها السابق الذي انفصل عنها، أراحها أنها لم تكن هناك في موقع التساؤلات والشكوك حيث اكتفى الجميع أنه طفلها من زوجها ولم يعن الآخرين منهم وجود أوراق تثبت زواجها وارتباطها، مكثت هناك، لا تسمع النداءات المريرة التي يطلقها الدرويش أحمد لها كي تكون بقربه.

أخبرت منى أمها زينب بمكالمة ناصر، لامتها أمها لأنها صدته وعاملته بقسوة، إذ إن احتمال إقناع أبيها أصبح أقوى، وكان من الممكن أن يوافق على أن يجري لها ناصر عمليه لم شمل كما شاع في تلك الأيام، إلا أن منى لم تهتم للوم أمها ومعاتبتها، لأنها كانت على قناعة تامة بما فعلته، لهذا تعاملت مع نصائح أمها بلا مبالاة ورفض شديد.

حملت سيارة إسعاف تابعة للفصيل المسلح في أم الطين الدرويش أحمد إلى مستوصف ميداني قريب، بعد أن ارتمى على الأرض وهو يصرخ متألماً من بطنه، وبعد أن عاد، وضعوه على سريره مع بعض الأدوية وهو تحت تأثير الحمى التي كانت تخف ثم تعود أكثر وطأة لتجعله يهذي بلا وعي.

أخبرهم الطبيب هناك أن من المحتمل أن يكون مصاباً بالحمى التيفية وذلك مرجح لأنه قليل النظافة يأكل ما تقع يداه عليه، وسط الحمى، نادى الشيخ على أم ناصر وسألها عن ابنها، وتحدث مع البقال عبد الودود طالباً منه تحضير الشاي، وعاتب أبا أمين على إهماله وعدم سؤاله عنه، ثم نادى بمرارة وحرقة على «جميلة

المنسية» حبيبته السرية التي لم يبح بحبها سوى للسماوات وقمم الجبال، عاتبها وناداها، واسترحمها وتحدث معها عن حبه المؤلم الجارح، طالباً منها العودة إلى البلدة بلا خوف من أحد، شارحاً لها لياليه السوداء في وحدته ومرارة البعد على قلب وله متيم، ولم يهدأ في هذيانه ودعاءاته وصلواته حتى جاء أحد الشبان من الأهالي وأعطاه حقنة خافضة للحرارة أوقفت هذيانه وحماه بعد قليل.

استمر بعض الأهالي بإحضار الطعام المسلوق له، وواظبت امرأة تدعى فاطمة، أرملة لها خمس بنات تبعثر معظمهم في حلب والقرى المجاورة خلال الأزمة، على إطعامه وإعطائه الدواء يومياً من قبيل الإحسان تجاه الشيخ الذي يعتبره الجميع بركة البلدة، استمر على هذه الحال ثلاثة أسابيع ثم توقفت فاطمة عن المجيء للاطمئنان عليه، حين رأته يخرج صباحاً، مستنشقاً الهواء النقي، يغتسل ثم يرش فتات الخبز للطيور.

بعد المرض بأيام، بدأ الشيخ أحمد يجلس قبالة باب جميلة، مستظلاً بلوح من التوتياء يقيه الشمس، صامتاً، لا يغادر المكان إلا للطعام أو الصلاة غير المنتظمة، ولم يدر حينها أنه بتلك العادة الجديدة، أثار شكوك من تبقى من الناس وكاد يكشف سره المكتوم.

وصلت أم ناصر إلى قمة حزنها وانتقادها لابنها ولم تنفع معها مواساة أختها نجوى لها ومحاولة إقناعها أنه سيعود ما إن تنتهي الحرب، قررت في سرها العودة للطريقة التي لجأت إليها أيام زمان، منذ توفي زوجها عبد المعين وكان ابنها ناصر لم يتجاوز السنتين

من عمره بعد، لجأت إلى تعويذة الدرويش أحمد التي حمت ابنها وأبعدت عنه الأذى والحسد، وهي الآن قادرة على إلهامه بالعودة إلى أمه وبلده، وكان الطرف الأهم في هذا القرار هو الدرويش، عليها أن تصل إليه وتخبره بقصتها بحيث يخصها بتعويذة ترد لها غائبها، السفر إلى «أم الطين» هو الحل، ومنها تزور ابن حميها فؤاد وزوجته شكرية وتطمئن على من تبقى من جيرانها من الأهالي.

في الصباح الذي نهضت فيه وهي تهم بالسفر، حاولت أختها نجوى أن تردها عن قرارها «لأن الطريق خطرة والرحلة إلى هناك محفوفة بالموت»، لم تتراجع عن قرارها آنذاك، رن جرس المنزل، وحين فتحت الأخت الباب وجدت ابنة أخيها هبة قادمة في زيارة بعد أن انقطعت زياراتها خلال دراستها ووجودها في المدينة الجامعية.

نهضت العمة فرحة ترحب بابنة أخيها، ضمتها إليها وسألتها معاتبة:

– ما بتقولي إلك عمة في حلب هبة؟ ما كنت عم شوفك طول هالفترة، سافر ابن عمتك ناصر وأنتي بعيدة غايبة ما شفناكي غير لما توفت آية بنت عمتك؟

ردت خجلة:

– والله يا عمة الأزمة والدراسة وفوضى الحياة في المدينة نسوني كل شي، آسفة بس لو تعرفي ظروفي.

ردت فرحة:

– بعرف الظروف صعبة بس مري ولو مرة اسألي عني بنتي.

أجابت مصابة بالحرج:

- إي صح، أنا مقصرة.

والتفتت إلى عمتها نجوى:

- كيفك عمة نجوى، شو أخبار عمو عمر وكريم؟

أجابت العمة نجوى بوجه معاتب وحزين:

- الحمد لله ماشي الحال، عمو عمر بخير ما قدر يجي بهالأزمة وكريم هلأ بجي، هو عند الجيران، بمل لوحدو، بعتو يتسلى مع الأولاد.

حضّرت العمة القهوة وجلس الثلاثة يتحادثن بأمور الحرب والحياة إلى أن أخبرت نجوى ابنة أخيها هبة أن عمتها أم ناصر تنوي السفر إلى «أم الطين»، ذهلت هبة والتفتت تسألها مستغربة:

- معقول عمتي؟! هلأ صار الطريق كتير خطر، ليش رح تروحي عندك شي؟ أهلي هونيك ما عم زورن، أبوي رفض وطلب مني أبقى بحلب، هلأ هوه عم بجي يشوفني، الطريق للبلد صعبة كتير وخطرة.

ردت أم ناصر وهي تخفي سبب عزمها على الذهاب:

- هبة صار لي زمان ما شفت الجيران ولا زرت أهلك، حابة روح.

ردت برجاء:

- عمتي لا تروحي، أجلي سفرك لبعدين، هلأ الطريق خطر كتير.

هزت فرحة برأسها وصمتت ثم قالت:

– طيب، رح أجل هالسفرة وروح بس تهدا الأحوال.

تابعت نجوى سؤال ابنة أخيها هبة عن دراستها وحياتها في السكن الجامعي.

تبادلتا الحوار وفرحة سارحة تغوص في عالم آخر، ولم تنتبه الاثنتان أن أفكار العمة كانت قد سافرت إلى ألمانيا وعادت عشرات المرات بينما كانتا تتحادثان.

غادرت هبة منزل العمة نجوى محملة ببعض أكياس المؤونة الصغيرة، لم تدر الاثنتان أن ابنة الأخ هبة كانت غائبة عن الأنظار لأنها كانت تعيش علاقة حب أخذت معظم وقتها فضلاً عن أزمة الحرب وصعوبات الحياة في المدينة الجامعية ومشاغل الدراسة، هذا ما عرفته حين قدم أخوها فؤاد إلى حلب وحكى لأختيه اعتراضه على علاقة حب ابنته للطالب الجامعي الذي قرر أن يخطبها من أهلها ومنعته آنذاك ظروف تقطع الطرقات ومخاطر الحرب، ورداً على ذلك الخبر والعلاقة التي وصله نبؤها عبر ابنة صديق له على معرفة بها وتدرس اختصاصها نفسه، أنه قرر عودتها إلى «أم الطين» وإيقاف دوامها.

لم يمض أكثر من أسبوع أو عشرة أيام حتى صحت نجوى ولم تجد أم ناصر، بحثت عنها في الغرف والحمام فلم تجدها، سألت ابنها كريم إذا كان قد رأى خالته فأجابها بأنه صحا من النوم ولم يجدها، عندها أدركت نجوى أن أختها أم ناصر قد غادرت إلى البلدة كما قررت، تحت تأثير حنينها لابنها وعزلتها بعيداً عنه، وقلقها المستمر الذي لم يبرحها منذ عادت وسافر هو.

أخبرت نجوى العم فؤاد، بعد صعوبات ومحاولات كثيرة في الاتصال عبر هاتفها النقال، أن أم ناصر في طريقها إليه على الأرجح، لأنها أخبرتها بنيتها الذهاب إلى «أم الطين» لرؤية الدرويش أحمد.

جلس فؤاد لحظتها وهو ينتظر وصول أخته داعياً الله أن يحفظها من المخاطر، اعترض على سفرها لكنه جلس قلقاً مسلماً بالأمر وقد أسقط في يده.

نهضت زوجته شكرية تحضر طعاماً مما يتوفر آنذاك في السوق في انتظار مجيئها، واستعدت هبة لحضورها كي تطلب منها التدخل وإقناع أبيها بالعدول عن قراره بشأن جامعتها ودراستها، وفي منزلها في «الميدان» جلست نجوى في انتظار اتصال من أخيها فؤاد يطمئنها بوصول الأخت المتلهفة لعودة ابنها الذي حرمها بغربته راحة النوم.

في تلك الأثناء، حين حل المساء ولم يصلها خبر عن أختها، عادت نجوى ودخلت غرفة أختها فوجدت الطاولة والسرير والبساط الممدود في ركن قريب وقد نشرت عليها صوراً في مناسبات مختلفة لناصر ابنها، يبدو منها أنها لم تنم تلك الليلة وهي تتأملها مستحضرة ذكرى الابن الوحيد الضال الذي لم يفكر بمدى ألم أمه حين قرر الابتعاد والسفر.

ظلت المكالمات العسيرة بسبب الانقطاع الجزئي للاتصالات مستمرة بين نجوى وأخيها فؤاد لمدة يومين متواصلين، حتى صباح اليوم الثالث حيث تلقت نجوى صباحاً اتصالاً من أخيها يخبرها

فيه أن جثة «فرحة» وصلت بيته وقد أصيبت بعدة شظايا على طريق سفرها إلى البلدة، أخبرها باكياً منهاراً مذهولاً بكلمات متقطعة مذبوحة، انهارت نجوى على إثرها وسقطت أرضاً بلا قوى أو قدرة على الكلام، انهارت باكية تتراكب في ذاكرتها المشاعر المؤلمة لوفاة ابنتها وخسارة أختها، تمددت على الأرض غير قادرة على الحركة ودفنت وجهها بين يديها، وابنها كريم يبكي خائفاً مصاباً بعدوى الحزن دون أن يستوعب شيئاً مما يجري.

في أم الطين، هناك، أجهش الدرويش أحمد بالبكاء ضارباً الأرض بقدميه ثم ارتمى يتمرغ بالتراب، حين سمع بخبر مقتل أم ناصر في طريقها إلى البلدة.

أذيع نبأ وفاتها على مئذنة الجامع، ثم غسلت محاطة ببعض النسوة ممن بقين من جاراتها مع شكرية، وأصر الدرويش أحمد أن يصلي عليها صلاة الميت وانطلق الجميع إلى المقبرة.

ظل الدرويش في الفراش مساءً، يتكلم بضع كلمات ثم يجهش بالبكاء كطفل وسط مواساة الآخرين لهم وتهدئتهم، بمن فيهم أخوها فؤاد.

بلغ ناصر نبأ وفاة أمه وهو يحضر ندوة أدبية في مركز ثقافي في هامبورغ، خرج على الفور ومشى في الشوارع مساءً وهو يبكي منهاراً، يرافقه أصدقاء سوريون وعرب جدد.

بكى عاجزاً عن التنفس وهو يمشي ويتذكر الأم الحزينة في البلدة وهي تلبسه الإسوارة الزرقاء، تخبز له الخبز البلدي وتحضّره لفرحة العيد، كانت تصلي في غرفتها وهي تدعو له ذلك المساء

حين رآها قبل امتحان الثانوية العامة، يدها تمسح شعر منى، حبيبة ابنها، حبها للدرويش وبركاته، بعد أن وقف إلى جانبها في الأيام الصعبة، ذهابها للتودد لزينب، أم منى، لإدراكها السري أن ابنتها هي حبيبة ابنها، دعاؤها في ضوء القمر وتحت وابل المطر، الحطب المشتعل في أيام الثلج والبطانيات الممدودة على كامل جسمه لحمايته من البرد القارس تلك السنة.

رمانها وزبيبها وتينها المجفف الذي يُخَبَّأ ليأكله خلال سهرات الشتاء والصيف، الجداول التي سبح فيها أمام أمه كي تلطف له حر الصيف، قلقها المتحرك وراءه كالظل، عينها الحانية ويداها الدافئتان، بسمتها الملآنة بالفرح وهي تراه يضحك، حديثها مع الملائكة قبل طلوع الصباح كي تباركه عند بداية النهار، بعد أن رحل الأصدقاء وبقي وحيداً، هناك كان يقف في الشارع، تغطيه دموعه وليل لا تكفيه شموس الدنيا كي يضيء.

فجأة، أدرك ناصر أن القدرة على الأنين تحتاج لمساحة واسعة لم تتوفر له ذلك المساء، أدرك أن عمر الحزن صار سحيقاً أطول من عمر السنوات التي مضت على جميع أهالي «أم الطين» مجتمعين، صار صدرهم خلاله مليئاً بالكهوف والفجوات الخشنة الجافة، وعرف حينها أن الليل دخل القلوب المتعبة ولم يعد يعرف طريق الخروج مدركاً أن السفن التي رافقته في إبحاره إلى المجهول وطرقات الضياع صارت منذ سنوات، الطرق البديلة عما كان، والخارطة الجديدة التي عليهم أن يألفوها كحقيقة ولادة، ولادة عسيرة وجديدة مليئة بالشوك والغربة والتخبط الأعمى، بحر من الحيرة التي لا صوت لها.

منذ توفيت أم ناصر عصر ذلك اليوم، بدأت وتيرة الأدعية والأذكار تزداد لدى الدرويش أحمد، أدعية وصلوات مختلطة، يترحم فيها على الأخيرة، يدعو لها تارة، وتارة أخرى يستحضر صورة «جميلة المنسية» الحبيبة الحبيسة المتوحدة، امتزجت تراكيبه غير المفهومة للآخرين بشكوى الحب الوله مع توسلات الرحمة والغفران لروح المتوفاة الأقرب إلى قلبه، التي معها أحس بالطمأنينة ونورانية القلب الطيب المعطاء، الذي ميزه عن الآخرين بمودته ومحبته الزائدة، وتعاطيه المدرك لقيمة البركة والنقاء في عالم ملوث، ظل يقضي مساءاته في تلاوة وتراتيل وذكر حتى طلوع الصباح، في تواصل روحي مع روحٍ في السماء وأخرى في الأرض محاصرة بالقيود، بقي في ذروة تلك الحمى أسابيع طويلة لم يخرج خلالها إلا لقضاء حاجة أو تناول طعام.

حين بلغ زينب ومنى وماهر خبر وفاة أم ناصر بقذيفة وهي في طريقها إلى «أم الطين»، بكتها زينب بمرارة وكان بكاء منى أكثر حرقة وعمقاً، فاضت لدى الجميع ذكريات الأيام الماضية في البلدة وحلب، وتداعت إلى ذهن منى صورها مصحوبة بصور ناصر العاشق القديم، ووزعت زينب صدقات للفقراء على روجها وكأنها فقدت أكثر من أخت.

في تلك اللحظة، ندمت منى على صدها لناصر في مكالمته الأخيرة لها، وانتظرت أن يعاود الاتصال، لكنه لم يفعل.

كما أصاب العم فريد حزن دام أسابيع دعا لها خلالها بالرحمة وذهب إلى الشيخ أحمد مقدماً له الأطعمة والمال طالباً

منه أن يدعو للمرحومة بالجنة الواسعة، رد الشيخ لحظتها على الفور:

– يا أخ فؤاد، أختك أم ناصر الآن شهيدة عند الله فلا تقلق.

مرت شهور عدة بدأ بعدها يدخل فصل الخريف دون أن تصل من ناصر مكالمة لخالته نجوى أو عمه فؤاد، عاد خلالها الأخيران للانخراط في مشاغل الحياة ومشاكل الحرب.

في هامبورغ، كان ناصر يتمشى في ساحة قرب حديقة، منتظراً أحد الأصدقاء، مر خلالها بشاب وفتاة يجلسان على مقعد قريب، انتبه إلى الحديث المتبادل بينهما وهو يروح ويجيء، تحدثا باللغة الألمانية ظناً منهما أنه لا يفهمها، عرف ناصر آنذاك أن الشاب يدعو الفتاة للانتباه إلى الكومبيوتر المحمول خوفاً من سرقته، لأن «الرجل الذي أمامنا لاجئ».

رنت الكلمة في أذن ناصر الذي عرف أن الشاب ميزه من خلال بشرته السمراء، آلمه ذلك الموقف ولعن حينها الحرب والظروف التي اضطرت الناس إلى الهرب طلباً للجوء، لكنه بلع الموقف بمرارة وتابع انتظاره لصديقه مبتعداً عنهما قليلاً.

بدأت شروط اللجوء وطريق السفر تزداد صعوبة يوماً بعد يوم، إذ أغلقت الحدود التركية في وجه السوريين وكذلك زادت الرقابة على السواحل القريبة من اليونان وذلك عبر ضغط أوروبا على تركيا لمنع تسريب اللاجئين إليها بعد ازدياد أعداد الوافدين غير الشرعيين أواخر الخريف وأول الشتاء.

مرت سنة على وفاة أم ناصر، أنهى خلالها ناصر دورات

تعلم اللغة وحصل على فرصة عمل أخرى كعامل في معمل شوكولاتة بعد أن رفض طلبه للانضمام إلى الجامعة للدراسة، إذ تأخر في تقديم الطلب ولم يجتز اختبارات دخول الجامعة بسبب الاضطرابات النفسية التي عاناها إبان وفاة أمه، كان خلالها يقضي عطلته الأسبوعية في الحانات يتعاطى المشروبات الكحولية.

حين عاد ناصر ليلة أحد أيام السبت مخموراً في ليلة مثلجة وارتمى على سريره، فتح الباب بعد لحظات ودخل الشيخ أحمد وسط الإنارة الخفيفة، وقف في منتصف الغرفة وفوجئ ناصر لرؤيته بجلبابه الرمادي وغطاء رأسه الذي يغطي جبهته وعينيه، سأله الشيخ معاتباً:

– ماذا نفعك السفر؟ هل تركت أمك لتتعاطى المشروبات وتنغمس في حياة ليست لك؟

رد ناصر بلسان ثقيل:

– أهلاً بالشيخ أحمد، هل تظن أنني أتيت هنا لهذا السبب؟ ماذا عن الحرب والموت وانقطاع الطرقات ومستقبلي الغامض؟

أجاب الشيخ بهدوء:

– أدرك هذا، لكنك لم تختر حلاً مناسباً، بالله عليك قل لي هل تجد نفسك هنا؟

أجاب ناصر وهو يفرك عينيه الناعستين:

– لا، لم أجد نفسي، أشعر بالغربة عن كل شيء، لكن على الأقل أنا أعيش الآن بأمان في بلد فيه نظافة وحضارة وتنظيم، لا

ينقصني شيء هنا، أما بخصوص الغربة فليس هناك شيء كامل، لا بد أن ينقصني شيء في هذه الدنيا.

رد الشيخ وهو يرمي ظله الهادئ على الجدار المقابل:

- توفيت أمك وهي تفتقدك وتحتاجك، تركت منى صديقة عمرك ومضيت بعيداً عن أرضك وأهلك، ما الفائدة؟

رد بكسل ثمل:

- لم يكن أمامي خيار، الجميع غادروا للنجاة بأرواحهم ومن أجل مستقبل أفضل، لم أغادر بمفردي، هناك مئات الآلاف معي.

- صدقني يا بني، مهما عملت هنا وصادقت الناس وتعلمت لغتهم، لن تكون بالنسبة لهم مثلما أنت في بلدك، قل لي هل تشعر أن ثمة شيئاً يخصك أو يعترف بك؟

- لا طبعاً، لا، لكن ماذا أفعل يا شيخ...

- لن يكون لك ما يخصك، مهما طال بكَ الزمن، لا تنس هذا الكلام، لن يراك الآخرون ولن تجد ما يخصك ويخص أهلك هنا...

ثم تلاشت صورة الشيخ في عتمة الغرفة، انسحب فاتحاً الباب متجهاً نحو الخارج، ارتجف جسد ناصر لرؤية الشيخ وسماع صوته، فرك عينيه بيديه كي يتأكد أنه لا يرى خيالات، ثم تداعى منهكاً في فراشه وغط في النوم. في صباح اليوم التالي صحا ناصر من نومه ومضى للاغتسال وتحضير القهوة وهو يستعيد رؤيا ليلة البارحة متذكراً العبارات التي قالها الشيخ ومضى.

وضعت جميلة المنسية مولوداً ذكراً أسمته سعيد، وسجلته في مفوضية اللاجئين مخبرة إياهم دون ثبوتيات ورقية باسم أبيه

«توفيق» قالت لهم، سألوها أين هو، فأجابت إنه رحل ولا تعرف إلى أين، سعيد ابن جميلة المنسية وتوفيق الهارب.

ظل المهجرون يتوالدون في المخيمات وفي بلاد اللجوء في أوروبا ومصر وسوريا، البلد الأم، أكدت الحياة خلال ذلك على استمرارها رغم الدماء والموت، أطفال صغار يمشون فوق برك الماء وكومات الثلج، يكبرون وسط الألم والغربة وفجيعة الآباء، يموت بعضهم ويبقى البعض الآخر على قيد الحياة التي اختلفت معاييرها من مكان لآخر في عالم صامت منشغل بتفاصيل طموحاته، ناسياً آخرين في أمكنة أخرى تحوم حولهم نذر الموت والمخاطر والآلام على درب لا تبدو له نهاية واضحة، مفتوحٍ على أكثر من نهاية.

وتأكيداً آخر لإصرار الحياة على متابعة مسيرها اللازم والمحكوم بالاستمرار، احتفلت نجوى وجيران العم فريد بولادة زوجته ابتسام التي أنجبت أنثى طارت لها فرحة أبيها وأمها حتى وصلت أرجاء الأرض، ولدتها أمها تحت أصوات المدافع وقذائف الهاون بمساعدة قابلة شاركتها بعض النسوة من الجيران، كانت زينب على خط الإنترنت المتقطع تتابع أخبار الولادة وفرحت لها حين وضعتها بالسلامة ثم أخبرت زوجها نادر وأولادها.

أثناء مخاض ابتسام، لم يستطع فريد الخروج إلى أي مكان بسبب الاشتباكات الشديدة في الشوارع المجاورة، ولحسن حظه أن قابلة كانت تقطن في عمارة مجاورة فمضى وأحضرها، ولدت الصغيرة التي أطلقوا عليها اسم شام تحت الرصاص والماء والكهرباء المقطوعين عن الحي، جاءت ولادتها في توقيت لم

يعرف فيه أبواها أنها ستكون الطفلة التي لن تعرف في بلدها غير الخراب والحرب وفقدان مقومات الحياة الأساسية، وأنها ستنتمي منذ تلك الساعة إلى ما يسمى بجيل الأزمة كما سيبدو بعد حين.

اضطرت الخالة نجوى بعد أيام من ولادة شام إلى النزوح عن منزلها في حي «الميدان» بعد اشتباكات عنيفة وانتشار الدبابات في المنطقة، استأجرت منزلاً في حي قريب من الميرديان بعد أن أخبرت زوجها عمر وطلب منها مغادرته واستئجار منزل آخر بعيداً عن التوترات والخطر، خرجت مع ابنها الصغير كريم بملابسها دون أن تكون قادرة على أخذ أي شيء من أشيائها الخاصة، وحين أخبرت أخاها فؤاد، لم ينصحها بالمجيء إلى البلدة لأنها خطرة، واقترح عليها الانتقال إلى مكان آخر أكثر أماناً في حلب، وكالأحجار المتداعية حجراً إثر حجر، وصلتها أخبار جاراتها اللواتي نزحن مع عائلاتهن إلى أمكنة أخرى ودور إيواء بائسة كالمدينة الجامعية والمساجد التي خصصت للعبادة باستثناء القادرين منهم على دفع إيجارات شقق أخرى في أحياء مختلفة.

عاد البيت ليصير ذكرى مفقودة لدى نجوى التي تركت أيامها وذكرياتها ومضت هرباً من الموت.

وصل تنظيم الدولة الإسلامية المسمى «داعش» بلدة «أم الطين» بعد أن اشتبك مع الفصيل المسلح الذي كانت البلدة تحت سيطرته وطرده، انتشر عناصرهم القادمون من بلدان إسلامية مختلفة في العالم، العراق وأفغانستان والشيشان وليبيا وأمكنة أخرى مع عناصر متشددة من أبناء البلد، بدؤوا يعاقبون من لا يتبع

مبادئ التعاليم والعقيدة الإسلامية بشكل صارم وصار على الرجال أن يلتزموا الصلاة في المسجد أو منازلهم كما فرضوا النقاب والعباءة السوداء الطويلة على النساء، منذ ذلك الحين، قرر العم فؤاد عدم خروج زوجته شكرية وابنته هبة إلا للضرورة مع التزامهم بارتداء العباءة الطويلة ونقاب الوجه، خوفاً عليهما من سطوة التنظيم الدموي.

آنذاك، بدت «أم الطين» خاوية، بليدة حزينة، يتحرك الناس فيها بحذر وخوف، وبدت كأنها تحن لأهاليها وأيام زمان تحت وطأة العقاب الصارم والأجواء المتشددة الخالية من الحياة التي فرضها التنظيم في تلك الفترة، لم يدرك أحد ذلك الحين، من هؤلاء العناصر ومن أين جمعوا أنفسهم وقدموا إلى سوريا بعد أن كانوا في العراق.

لم يعد يغامر بالمجيء إلى البلدة، من كان ينوي القدوم إليها لسبب ما، عندما كانوا يسمعون باحتلال داعش للمنطقة برمتها، حاول الناس خلال ذلك أن يعتادوا التحرك والعيش بالحدود الأكثر تحفظاً ناسين أيامهم فيما مضى، متحاشين عيون عناصر التنظيم.

ولحسن حظ الدرويش أحمد أنهم اعتبروه رجلاً فاقداً لعقله، لكنه رغم ذلك، لم ينج من ضربات بالعصي نالها وهو يتجول في الساحة والطرقات الصغيرة، وهم ينهرونه طالبين منه العودة إلى منزله.

لم يرتح الشيخ أحمد لهم، ولذلك حاول أن يلزم بيته وكان شديد التحفظ بتحركاته في البلدة، وحين كانوا يسمعون تراتيله

وصلواته العالية ليلاً، كانوا يدقون الباب بعنف مهددين باعتباره من الخارجين على الدين وهذا يعني اتهامه بالهرطقة والكفر مما قد يؤدي إلى قطع رأسه.

آنذاك، كان الشيخ يصمت ثم يتلو تراتيله وصلواته ونداءاته بقلبه وعينيه المشعتين بالهيام والحب المجنون وهو يغلق بابه ويطفئ الأضواء الباهتة، من شق صغير في سقفه، كان يخاطب نجمة وحيدة يرسل لها أمنياته وتراتيله ونداءاته وأسراره، حتى صارت النجوم توءم أحلامه العائمة في الليل. في أحد أيام الشتاء، سارع إلى صرف امرأة من الأهالي، جاءت تطلبه كي يقرأ القرآن على ابنتها المريضة مشيراً لها بيده أن ترجع صارخاً بها أن تسرع قبل أن ينتبه لها عناصر داعش.

في أيام قادمة، وبعد أن نزح بعض أهالي «الميدان» عن بيوتهم المستأجرة أصلاً، وفقدوا آباءهم أو بعض أفراد عائلاتهم، منهم من ماتوا بالقذائف وآخرون اختفوا ومنهم من كان أبناؤهم الشبان في خدمة العلم، صارت الفتيات والأمهات يبعن ربطات الخبز في الطرقات بأسعار تزيد عن أسعارها في المخابز كي يستطيعوا أن يستمروا في العيش بالحد الأدنى، بعد موجات الغلاء المتصاعدة يوماً بعد يوم، كما انتشرت الدعارة الخفية في أوساط السكن الشعبي ومآوي النازحين.

عدم القدرة على حل الصراعات النفسية المتراكمة، حرمت ناصر امكانية التركيز والتوازن في حياته اليومية وعمله، إلى درجة أوقف فيها عن العمل وعاد يتلقى راتب المعونة بعد أن أعيد

النظر بتقييم أدائه، كان في أمس الحاجة آنذاك لمن يستند إليه كي يمنحه دفعاً وثقة بالحياة، وقدرة على التوازن حين اختلت به الدنيا وفقد القدرة والدافع على أداء نشاطاته اليومية، شعر بالحاجة إلى أمه «فرحة» كي تباركه وتعطيه الثقة بدعاءاتها ودعهما الروحي، وبحاجة متزايدة لمنى التي كان يكفيه وجودها بجانبه حتى يملك الدنيا وما فيها ويعود إلى طبيعته كما كان، إلا أن ذلك الشعور لم يلبث أن يرميه على قارعة الطريق، يائساً، محزوناً، متعباً، حين يصل إلى جدار مسدود: «أمك ماتت، ومنى هي في مكان آخر تعيش حياتها مع أهلها أو زوجها، أين ستأتي بهما؟» كان يناديه صوته من الداخل.

ناشد الدرويش أحمد، في لحظات انهيار، كي يأتيه مساءً، لكنه لم يجب، وحين كان يهم بإجراء مكالمة لمنى في القاهرة، يوقفه شعوره بأنه سيلقى صداً مؤكداً حين تسمع صوته.

ويسأل نفسه دون توقف: هل مات الشيخ أحمد أو سافر؟! هل تزوجت منى أم ما زالت تعيش هناك مع أهلها؟! ولا يلقى جواباً لأسئلته الحائرة.

إثر ذلك، في لحظات تعبه النفسي وشعوره بخسارة كل شيء، نهض وتوضأ ومد سجادة صغيرة وشرع يصلي، وكانت صلاته تصله بخيط ضعيف مع ماضٍ باهت مفقود، وبعد ساعات من الصلاة، حين ينقطع الخيط الروحاني بينه وبين أمه والشيخ ومنى، كان يعود في فراغ مفتوح يدخل خلاله في نوبة بكاء لا تنتهي، حتى يحضره صديقه السوري ويخفف عنه ببعض الكلمات، مالئاً

عليه فراغه باختلاق بعض النشاطات المنزلية التي تبعده قليلاً عن جوه الموحش.

بعد غياب دام ثلاثة أيام، انتبهت فاطمة جارة الدرويش أحمد لغيابه، وعدم خروجه من البيت، ذهبت إلى هناك وهي تهجس باحتمال وفاته، ضربت الباب مرات عديدة، ولم يفتح الباب، وبعد عدة محاولات أحضرت ابنها ورجلاً من جيرانها وخلعوه، دخلوا يفتشون فيه دون أن يجدوا الشيخ، استغربت فاطمة وتساءلت في نفسها أين يمكن أن يكون، لكنها حين لمحت أحد رجال داعش قريباً منها ينظر إلى المنزل، أرسلت ابنها كي يسألهم إذا كانوا قد رأوه، أجابها الرجل إنه غادر منذ ثلاثة أيام بعد أن رجاهم أن يسمحوا له بالمغادرة على أن يعود، قال لهم إنه ذاهب إلى قرية مجاورة ليزور ابن عمه بعد أن انقطعت أخباره عنه منذ زمن طويل، لم تعرف فاطمة ولم تفهم أين يمكن أن يكون قد ذهب، وهل له فعلاً ابن عم في قرية مجاورة؟!

نهض الدرويش صباحاً منذ ثلاثة أيام بوجه متعب بسبب السهر وتوجه إلى رجال داعش كي يسمحوا له بمغادرة البلدة، رجاهم لفترة طويلة، وبعد أن أقسم إنه ذاهب في زيارة قصيرة وسيعود سمحوا له أن يذهب، حقيقة الأمر أن الدرويش ذهب إلى قرية المريولة كي يرى جميلة المنسية، وحين وصل بعد عذاب كبير، متنقلاً من حافلة لأخرى أخبره أهل القرية أنها غادرت المكان منذ أكثر من سنة مع رجل من بلدتهم لكنهم لا يعرفون أين ذهبا، لأنهما لم يخبرا أحداً منهم، أدرك الدرويش أنه ظل معظم ذلك

الوقت الذي مضى، يستحضر صورة جميلة على أنها ما زالت هناك في مكان قريب منه، في المريولة، احتار آنذاك من يسأل عنها، سأل كثيرين ولم يسمع رداً شافياً من أحد، عاد بعدها متوجهاً إلى «أم الطين» وهو حائر مصاب بالإحباط واليأس، وحين حل المساء يومها، صلى الشيخ أحمد ولم يعد إلى طقوسه وتراتيله ومناجاته الليلية، بل نام مرهقاً بصمت.

تدفقت الذكريات بغزارة في ذهن منى حين تذكرت «أم ناصر» الشهيدة، عادت بها الذكريات إلى أيام البلدة ومغامراتها المحمومة مع ناصر، مشاويرهما ولقاءاتهما، والقبلات الحارة والحنين المجنون آنذاك، عادت إلى ذهنها ذكرى ذلك اليوم الذي ضاعت فيه مع ناصر في حب متوهج، تبادله فيه القبلات والعناقات والملامسات إلى أن اشتعلا ومارسا الحب دون وعي، وكانت نهاية اللقاء أن فقدت عذريتها، وركضت باكية في الحقول وهو ينادي عليها، منذ تلك اللحظة التي بدأت تداهمها خلالها الذكريات ولم تعد قادرة على إبعاد صورة ناصر عن مخيلتها وذهنها، لم تعد قادرة على النوم المتواصل، وبدأت تفقد توازنها السابق، لكنها كانت تحاول جاهدة أن تبدو في حال طبيعية قدر الإمكان أمام أبيها وأخيها ماهر، أما أمها زينب فقد أدركت على الفور ما ينغصها ويخرب استقرارها، تحدثت معها على انفراد وهما وحدهما في المنزل طالبة منها أن تحاول تجاوز ناصر ونسيانه وأن تحافظ على صمتها وسلامة روحها، لكنها رغم عدم اعتراضها على طلبها، لم تستطع مداراة هواجس الوخز اللاذع لذلك الحب الذي مضى وحفر فيها بعمق

بحيث تحول إلى جزء لا يهدأ من مكونات روحها ودنياها أينما حلت، شعرت أنها فقدت بعيداً عن ناصر، جزءاً مهماً من حياتها والتفاصيل التي تكاملت معها شخصيتها حتى وقوع الحرب والنزوح إلى حلب ثم إلى مصر.

– انسي ابنتي، الأيام لا تعود إلى الوراء.

قالت لها أمها، ولم تغير كلماتها شيئاً عدا أنها دفعتها إلى مزيد من البكاء واللوعة، في الليل وقبل أن تنام دخل عليها الشيخ أحمد بعباءته وعصاه متثاقلاً وخاطبها:

– يا ابنتي، لا تدعي تعلقكِ بناصر يخرب عليكِ حياتكِ، أنا أريد له الخير كما أريده لكِ، لكن حافظي على روحك وتوازنكِ، ناصر في غربة خلالها فقد أمه، وهو ليس بخير، لقد فقد كثيراً من معالم ماضيه وأهله وشخصيته التي رسمت هناك، في «أم الطين»، حاولي أن تنسي والله هو القادر على تغيير الأحوال، شتتتنا الحرب، صلي وادعي لنا أن نعود ويلتم شملنا.

قال كلماته الأخيرة بصوت بدأ يخفت وتلاشى في ظلام الغرفة، أدخلت كلمات الشيخ بعض السكينة في قلب منى، واستطاعت بعد فترة وجيزة أن تغرق في النوم لأول مرة منذ أيام طويلة.

مضت عدة شهور قبل أن تنسحب «داعش» من أماكن سيطرت عليها، خلال المعارك التي نشبت في مواقع عديدة، لم تكن خلالها الحياة قد عادت بعد إلى بعض المدن بسبب استمرار التوتر والنزاعات، وكان مسار الحل يسير ببطء في البلاد مع استمرار تداعيات ذروة الأزمة على الكثير من الناس، وبعد أن

انسحب عناصر تنظيم الدولة من «أم الطين» حل مكانهم فصيل مسلح آخر ليستبدل المشهد بآخر لا يعد بأي انفراج.

استمر العم فؤاد بالتواصل مع ابن أخيه ناصر عبر الانترنت، محاولاً من وقت لآخر الاطمئنان عليه بعد وفاة أمه، ورغم انقطاع النت لأيام طويلة، إلا أنه استمر في الاتصال به حين يعود، أو يقوم ناصر بإجراء مكالمة بالهاتف العادي مع عمه من وقت لآخر، كانا خلالها يتبادلان الحديث عن آخر أخبار البلدة وبعض المعارف من الأهالي.

في ليلة باردة من أيام شهر آذار، صحا الناس في أم الطين على أصوات اشتباكات جرت في خاصرتها الشمالية، تبادل الأطراف خلالها النيران بكل أنواع الأسلحة، رشاشات ومدافع هاون، «وآر ب جي»، استمر الاشتباك عدة ساعات، خرج خلاله الشيخ أحمد إلى الساحة كالمجنون وكأنه، مع معرفته بخطر الخروج في ظرف كهذا، كان يقصد الانتحار أو يطلب الموت، تحت وطأة شعوره المبرح بالفقدان، بعد أن دفن سر حبه المضني عن الجميع، ولم يجد من يبوح له بآلامه وشكواه.

أصيب بطلقة في خاصرته، صرخ على إثرها ودخل بيته، تلمس الدم في جنبه وهو ينزف، الجارة فاطمة سمعت صوته في الساحة وكانت تراه مع ابنها وزوجها من شباك صغير، وانتابهم الشك حين أصيب، لكنهم لم يكونوا متأكدين من إصابته. شاهدوه يدخل بيته وهو يضع يده على خاصرته منسحباً من الساحة التي كانت الطلقات تطير فيها كشياطين صغيرة حمراء.

حين هدأ الاشتباك خرج أبو معروف، زوج فاطمة إلى منزل الشيخ ليطمئن عليه، وجد الباب مواربًا فدخل ورآه مرمياً على الأرض فوق بقعة من الدم، هب لإخبار عناصر الفصيل المسلح، نقل على إثرها إلى مستوصف ميداني أخرج فيه طبيب متدرب طلقة خارجية لم تصب عضواً من جسمه، عقم له جرحه وطلب نقله إلى البيت مع بعض الأدوية المضادة للالتهاب والألم.

بدا آنذاك قلب أم الطين متعباً يضخ الغبار بدلاً من الماء والخضرة، وهي مستوحشة وحيدة، يأكلها الألم واللوعة، ترتجف حجارتها تحت البرد القارس والرياح الباردة الجافة، انحنت أمام مارد الليل وكأنها تحن لمليون عصفور كانت أماً لهم واختفوا فجأة تاركين لها وحشة السماء وسكوناً ميتاً في الليل.

وبعد حادث إصابة الشيخ أحمد بأيام قليلة، تجمع مسلحو داعش وانقضوا على «أم الطين» وعلى مجموعة القرى المجاورة طاردين فصائل مسلحة أخرى حيث اجتاحوا ثانية رقعة أكبر مما سيطروا عليه فيما مضى، الأهالي القليلون فيها بدوا يائسين ومتعبين، نفّذ التنظيم الإرهابي إعدامات همجية وقطع رؤوس، التزم الناس في البلدة وقرى أخرى بيوتهم خوفاً من همجيتهم وعقابهم الدموي.

انتشرت أخبار الدائرة الواسعة من القرى والأمكنة التي احتلها التنظيم في أنحاء البلاد وباقي بلدان العالم، كان الشيخ خلالها لا يغادر البيت، في طور الاستشفاء من جرحه الذي أصيب بالإنتان واضطر الأطباء القلائل فتحه من جديد وتنظيفه وتعقيمه

مع كميات متواصلة من المضادات الحيوية، وحل أنينه من الألم والحمى محل صلواته وتراتيله.

لم تعد البلدة آنذاك مرهونة لضعف الانترنت، للمفارقة، إذ أحضر تنظيم الدولة معه معدات للنت الفضائي مع الأسلحة والآليات الحديثة، وبدا غريباً تمويله وقدراته الكبيرة على مستوى التجهيزات وكمية الدولارات الضخمة التي كانت بحوزته.

اعتاد الناس هناك التحرك ضمن الحدود التي فرضها عناصر التنظيم «وأمراء» المراكز والقرى حيث أصبحوا مع الزمن على دراية بالممنوع والمخالف والمسموح ضمن حدود الشريعة الإسلامية التي فسرها الأمراء على طريقتهم آنذاك.

في حديث له على الإنترنت مع ناصر، أخبره العم فؤاد الذي لازم البيت خوفاً على عائلته، عن أحوال البلدة وانتشار تنظيم الدولة فيها، وحدثه عما حصل للدرويش أحمد حول إصابته بطلق ناري في خاصرته، وعن سلوك الأهالي المتبقين في «أم الطين»، انتشار الخوف والرهبة فيما بينهم وخشيتهم من الوقوع بأي خطأ يعاقبون عليه بالموت أو الجلد، ورد ناصر بدوره إثر سماعه الخبر أن الناس الذين غادروا البلدة نجوا بأرواحهم، حيث قال:

– تخيل عمي، حتى «جميلة المنسية» رأيتها وقت سفري إلى اليونان في قارب مطاطي هاربة وقد لوحت لي بيدها فرحة.

لم يفاجأ العم فؤاد من الخبر لأن أغرب الأخبار آنذاك أصبح أمراً عادياً مهما كان فظيعاً أو غير معقول، وأكد له أنه حزين لوجوده في ألمانيا بسبب الغربة وفقدان الخصوصية والمعالم،

وسعيد بكونه أصبح بعيداً عما يحصل من أمور فظيعة لا تصدق، طلب ناصر وقتذاك من عمه محاولة الهروب بعائلته والمغادرة إلى حلب رغم كل المخاطر، لكن الأخير رد بصعوبة الأمر في تلك الظروف الخطرة.

هبت رياح الشتاء على ساحات «أم الطين» الخالية، وبدت متعبة حالكة حزينة ذلك المساء، حيث كان من الممكن أن تسمع نداءاتها البعيدة للأهالي وحديثها السري مع الأشجار التي جفت وتخشبت من البرد والوحشة.

في كل ليلة كانوا يسمعون في عمق الظلمة والصمت عويلها ونداءها المبحوح يشق فراغ المكان، نادت على جداولها الجافة وحقولها، وأطفالها المتناثرين، نادت على أم ناصر وزينب ومنى وأبي أمين وابنه، نادت أمواتها وأحياءها، بينما يتردد صدى صوتها مكسوراً مجروحاً متعباً وحيداً أكثر من أي زمن مضى وسط العتمة.

في عصر اليوم الذي ضجت القرى حول «أم الطين» بنبأ إعدام شخصين بقطع رأسيهما في قرية مجاورة لأنهما قتلا شخصاً في نزاع احتدم بين الثلاثة على سرقة ماشية أحدهم، توجه الدرويش متثاقلاً إلى الجامع ليؤدي صلاة العصر، صادفه العم فؤاد في طريقهما للصلاة، ومن باب الاستغراب وفضول نشر الأخبار، أسر الأخير للدرويش قائلاً:

– تصور يا شيخ أحمد، أنا هلأ فرحت للناس اللي تركت البلد من هالفظائع اللي عم بتصير، الكل نزحوا وهاجروا تصور... حتى

جميلة المنسية ذائعة الصيت المهجورة في بلدتنا، هاجرت لأوروبا، رآها ابن أخي ناصر في قارب مطاطي في البحر لما كان مسافر لليونان.

لم يدر العم فؤاد لحظتها ما حصل للدوريش أحمد الذي اصفر وجهه وقبض فجأة على خاصرته صارخاً ثم اعتدل ورافقه إلى المسجد مفتعلاً الهدوء.

بعد أن صلى الدرويش خرج متجهاً إلى بيته الصغير، فتح الباب مشلولاً يتحرك كدمية وهو يضع راحة كفه على جرحه، دخل ومكث صامتاً في الداخل، ثم عند حلول المغرب أول المساء خرج كالمجنون ماسكاً خاصرته وهو يركض ويصرخ:

– ما بقي شي يا أم الطين، انتهى كل شي، واصبحت يتيمة، يا الله، يا الله، ثم تعثر وارتمى على الأرض المتربة دون حراك.

جاء عناصر التنظيم وخرج بعض الأهالي عقب ندائهم لمن يعرفه بالمجيء، أدرك العم فؤاد أن الدرويش أحمد، بركة البلدة وتاريخها قد مات.

مات الدرويش تاركاً أم الطين يتيمة بلا بوصلة ولا قلب محب، بلا صلوات يتلوها لمباركتها وبلا دعاء لله كي يحفظها من الأزمنة السوداء، عرف كل من الأهالي الباقين آنذاك أن شيئاً مهماً اختفى عن البلدة، رجلاً يوازنها ويظل يذكرها في كل وقت، شعر الجميع أنهم فقدوا ظلاً ما، له آثار كبيرة لكنها خفية، ولم يدركوا حينها لماذا بدؤوا جميعهم يفقدون توازنهم وسلامهم.

شيع الشيخ وصلى أهل البلدة عليه في المسجد، ودفن في

المقبرة حيث بكاه كل الرجال والنساء، ممن عرفوه عن قرب ومن كانوا يرونه عن بعد فقط.

في تطورات جديدة لأحداث الحرب، اعتبر تنظيم داعش إرهابياً في دول العالم، شكلت أمريكا مع دول أخرى تحالفاً عسكرياً للقضاء على الإرهاب، وفي الصباح المبكر لذلك الشتاء شنت غارات جوية عنيفة ضربت أماكن تواجد تنظيم الدولة، في جميع البلدات والقرى في دائرة واسعة بما فيها أم الطين، دمرت الطائرات البيوت ومسحت الساحات والأشجار، ظل القصف أياماً طويلة راقبه الناس وهم حول أجهزة التلفزيون، نادر وزينب وأولادهم، العم فريد وزوجته، ناصر وأصدقاؤه، ولم يعرف أحد منهم مصير الباقين القلائل من الأهالي، حتى مصير العم فؤاد وعائلته صار مجهولاً بالنسبة لهم.

نبشت المقابر وهدمت البيوت والجوامع وصوامع الحبوب، وخربت الجداول والسواقي الصغيرة.

وبدت حينها كأن تاريخاً من الأساطير الصغيرة المليئة بالظلال قد اكتسحها سيل جارف من المياه العظيمة فتناثرت كالقش، أو الأوراق الخفيفة في إعصار جامح، ماحياً تفاصيل الرقص الساحر وقصص العميان وأكاذيب الحب التي عاشت هناك، وآلام النساء في تفاصيل ليلية شتى أيام الحصاد، وأثار مواسم كاملة من الحكايات ذات المنشأ المجهول، الأمير الباكي، والقرصان السفاح، وعشاق الظهيرة في الصيف، وبكاء الأطفال في ذروة الحمى، ونشوة الملوك المتوالين على عرشها، والندوب الباقية في أجساد الجرحى

بعد الموت، والتعاويذ التي ردت عشاقاً لعشيقاتهم وردت الغائبين إلى بلدتهم النائحة في أيام الحظ العاثر، تاريخ متتال من أمهات ناصر ودراويش مروا وتركوا صلواتهم ودعاءاتهم بعد أن غادرتهم الحافلات المتجهة إلى مجاهل العالم بلا هوية أو معالم، أمسكت بأيدي الأمهات وهن يحضرن مونة الشتاء في أوج الصيف ورمتهن في فضاء الغيب، وسلمتهن لملائكة نورانية لا يراها الآخرون ممن رموها بالقذائف ومسحوا ما كان مدوناً في سجلاتها الشخصية من أعاجيب وغرابات، وأولاد ولدوا فيها ودونوا في أوراقها وآخرين ولدوا في أيام قادمة ولم تتح لهم الفرصة أن يسجلوا كأبناء لها، ينتمون إلى جذورها التي لم يخطر ببال أحد، أن يمر بها إعصار الهمجية العمياء فيجفف ماءها ويطردها من فضاء الوجود الفسيح المخصص للأنبياء وأصحاب الحظوات الإلهية، حيث مضت وهي تعلو تشف عن قلب ممزق وبقايا دعاءات يائسة، وصلت بعد رحلة طويلة جنات الله، ثم عادت تهبط لتتفقد ناسها وترابها وأعشابها ونساءها المختبئات في جحور معتمة تقيهن من سلطان الدماء وتعدهن بخلاص لا يأتي.

تداعت حجارتها في عناق طويل على نفسها كجوقة من أحباب تباعدوا طويلاً ثم، حين طعنتهم الخناجر مالوا بصمت يضعون جراحهم فوق بعضها البعض كي تلمس الدفء.

في تلك الأثناء، كان صوت عميق ينطلق وهو يشق الجهات، عبد المعين وهو يرجع حياً ويلملم آثار الخراب ويحمل الجرحى ويدفن الضحايا، باحثاً عن «فرحة» ليطلب منها أن تروي له ما

حصل ويحضنها وسط الغبار، وكانت لا تخفى حركة العم فؤاد وهو يلملم جراح أولاده ويبحث في أرض الدار عن أثر لصوت أم ناصر وهي تصلي، غير مبالية بالخراب الكبير.

طويلاً بحث عبد المعين وسط الركام عن الشيخ أحمد ليقبل جبهته التي جبلت من نور لا تمحيه ظلمات العالم المخيفة، وكان لا يدرك خلال بحثه، معنى وهوية ذلك النور الذي يصعد ملقياً عليه التحية من بعيد.

هناك وحده الدرويش كان يسمع عويل أم الطين وهي مفتوحة لوحشة الجهات، تركض خلف البيوت المدمرة والأركان التي عاش فيها من كانوا يوماً ما، بأحزانهم وأفراحهم وروائحهم التي عششت في الحجارة المتداعية إثر القصف الأعمى الذي لم يُبقِ أثراً لما أسسه ورد الأجداد ومواعيد الأبناء مع الطيور الماجنة. في كل مساء، يسمع الشيخ أحمد من مكانه في طرف المقبرة هناك، امرأة تركض بعباءتها السوداء حاملة منديلاً أبيض هي تصرخ على أبنائها قريباً من الجداول الصغيرة وشجر السرو والصفصاف، وأخرى تحمل مولودها الميت وتنبش التراب في صرخات مجنونة باكية كي تدفنه وهي تضرب على رأسها بينما يبدو وجهها حجرياً بلا ملامح.

سمع وقع أقدام ناصر ومنى يتراكضان في الحقول، قريباً من شجرة المشمش، وهما يضحكان ورأى، أم ناصر «فرحة» وهي تغادر منزلها متوجهة إلى منزل زينب حاملة سلة طعام وتين وعنب، رأى بيت «جميلة المنسية» مضيئاً بأنوار مبهرة تملؤه

الأهازيج والفرح والموسيقا، رآها وهي تخرج غير مبالية بالاحتفال، متوجهة إلى بيته الصغير بلهفة وغنج.

ورأى العم عبد الودود جالساً قرب الدكان يشرب الشاي بوداعة، والأستاذ أبو أمين متجهاً إلى بيته حاملاً مجموعة كتب، ورأى الثلج والأمطار وشمس الصيف تخرج من كل الزوايا، وكسفر قيامة، انتشر صمت قاتل في «أم الطين» من موتى وتراب ممزق، بعد ذلك، عدا صوت واحد كان يسمع في الليل من هناك، وسط المقبرة المدمرة، صوت الدرويش وهو يتلو صلواته وذكره وتراتيله المشبعة بالوله والإيمان ونداءات السحر الغامضة، والأدعية الضارعة إلى الله كي يعم السلام البلدة الغائبة.